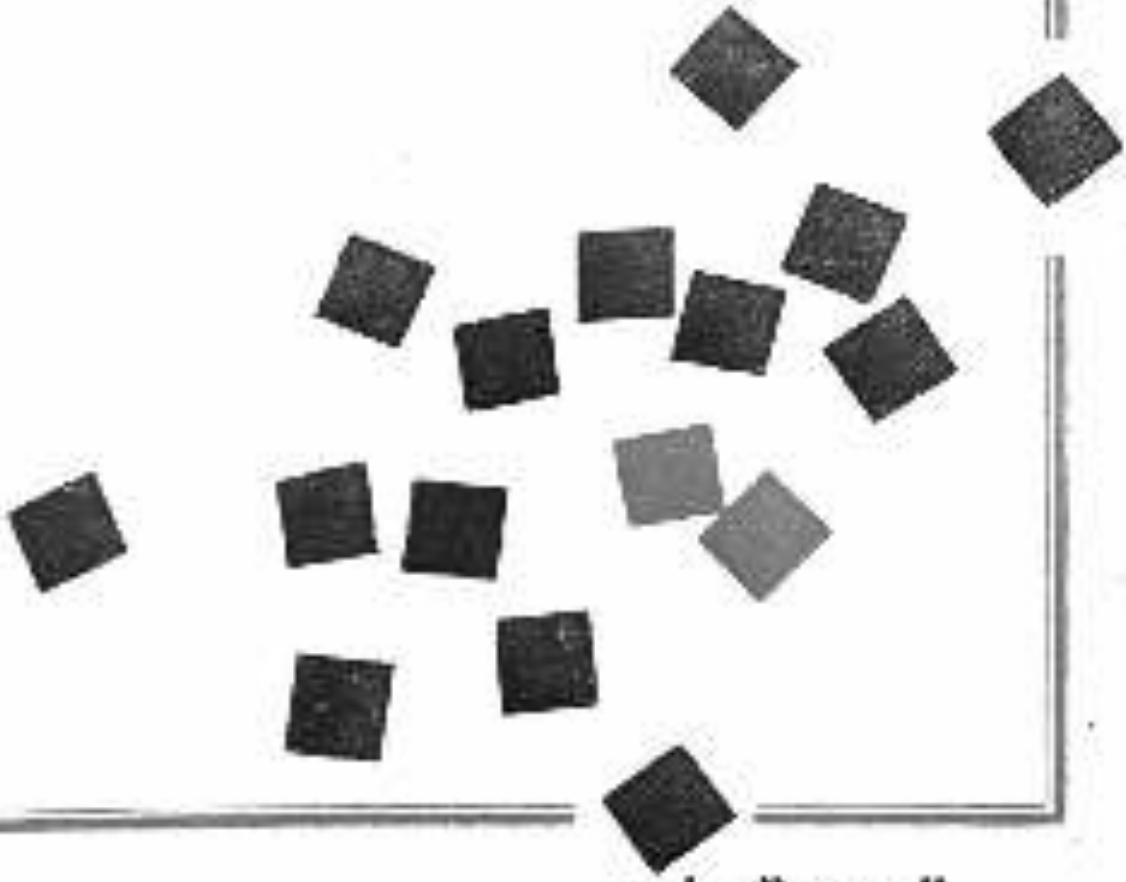
منشورات كلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس

مجلة
كلية الآداب والتربية



١٣٨٩ د.ر

العدد التاسع

١٩٨٠ م

مجلة

كلية الآداب والتربية

منشورات كلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس
بنغازي
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

مجلة كلية الآداب والتربية

هيئة التحرير

دكتور رجب بودبوس أمين التحرير
دكتور عبد الحميد محمود عضوا
دكتور عبد الله الزهالي عضوا
دكتور رمضان خليفة الله عضوا

العدد التاسع

١٣٨٩ و ر - ١٩٨٠ م

مجلة كلية الآداب والتربية

مجلة علمية ثقافية تصدر سنويا عن كلية الآداب بجامعة قاريونس ، ولا تعبر الآراء التي تنشر بالمجلة إلا عن رأي أصحابها ولا تمثل وجهات نظر الكلية ولا هيئة التحرير .

تحتفظ الكلية بجميع حقوق الطبع ولا يسمح بإعادته إلا بإذن مسبق .

جميع المراسلات ومواد التحرير ترسل الى العنوان التالي :

مجلة كليـة الآداب والتربية

جامعة قاريونس

الجماهيرية العربية الليبيـة الشعبية الاشتراكية

بنغـازي

الثمن للنسخة الواحدة ١٠٠٠ درهم أو ما يعادلها

بسم الله الرحمن الرحيم

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ★ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ★

صدق الله العظيم

قرآن كريم – من سورة آل عمران

فهرس

مقالات

رقم الصفحة

١ ـ الحاجة والحرية ١٣
د. رجب بودبوس

٢ ـ الخروج من القلعة ٢٥
د. رشيد الجميلي

بحوث

٣ ـ سيميولوجيا علم الإنسان الاجتماعي ٢٤
د. صبحي قنوص

٤ ـ نمو السكان في مصراته ٦٧
د. منصور الكيخيا

٥ ـ السوسيولوجيا وازمة المجتمع ٨٩
د. عبد القادر عرابي

٦ ـ احمد رفيق المهدوي ١٥١
شاعر الوطنية والانسان والحب
د. عبد القادر احمد رمضان

٧ ـ تطور مورفولوجيا مدينة مصراته في عهد الثورة ٢٥٣
د. فوزي الاسدي

دعوة للمشاركة ٢٢٦

مقالات

الحاجة والحرية

للدكتور رجب بودبوس

قسم علم التفسير

الحاجـة والحريـة

الدكتور رجب بودبوس

هل يمكن تحديد الحاجة ؟..

وما علاقة الحاجة بالحرية ؟..

لكي نجيب على هذه التساؤلات التي طرحناها هناك من الضروري أن نحاول أولا معرفة ما هي الحاجة ؟..

ان الحاجة حتى وان تمثلت في بحوع نحو الاشباع المادي ـ كما هو معاش ـ إلا أنها في تركيبها ليست مادية صرفة .. فليست الحاجة الى الاكل مجرد التهام كمية من الطعام مهما كثرت .. وليست الحاجة الى اللباس مجرد ارتداء كمية من القماش أيا كان نوعها .. وليست الحاجة الى السكن مجرد بناء وأربعة جدران مهما تفننا في هذه العلاقة .. ان الحاجة تركيب وجودي وهي بهذا ان الاشباع ليس لا انجازا تتجاوزه الذات نحو غيره .. أي ان الذات تجد ذاتها حاجة التي تسعى لاشباعها واكتمالها باشباعها تتجاوزها نحو غيرها ، في هذا التجاوز للحاجة حال اشباعها تحقق الذات والتأكيد لوجودها ..

ولهذا لكي نفهم الحاجة لا ينبغي ان ننظر اليها والى الاشباع مجرد نظرة مادية خارجية أي من خارج الذات نفسها التي تحتاج والتي تعمل على اشباع هذه الحاجة كما فعل الماركسية حين اعتبرت الانسان حيوان اقتصادي .. وانه علينا ان ننظر اليه من داخل الذات نفسها لتتبين الطابع الوجودي الذي يطبع الحاجة والذي يهدف اليه الاشباع .. ولهذا

السبب ... أعني لهذا الارتباط الوثيق بين وجود الانسان وحاجاته فان الانسان يعتبر خالق حاجات ، ان مقارنة بسيطة ولو عابرة تؤكد لنا هذه الحقيقة أي حقيقة التغير والتحرر الذي يحدث في حاجاتنا من فترة لأخرى .. وهذه الجدلية بين الوجود والحاجة ، وتحول الحاجة إلى وجود والوجود الى حاجة هي محرك تاريخ الانساني نحو التقدم والتطور : وهي المسئولة عن انفصال عالم الانسان خالق الحاجات عن عالم الحيوان المتجمد في حاجات محددة ثابتة وأزلية ..

ان صراع الانسان ضد الطبيعة أولا والتي كانت المسيطرة على حاجاته ، ثم صراعه ضد أولئك الذين حاولوا احتكار الطبيعة في السيطرة على حاجات الآخرين حتى تمكنوا من تحرير حاجاتهم وانتاج أول أداة هي الطبيعة الاستجابة لحاجاتهم بدل خضوعهم لها ، ان هذا الصراع يؤكد ان الطبيعة الديناميكية والمتطورة باستمرار للحاجات ولو كانت الحاجات ثابتة ومحددة لظل الانسان في مرحلة العبيد ولاستعاد الى الابد .. وهذا يؤكد لنا حقيقة أخرى وهي ان الانسان في صراعه من أجل اشباع حاجاته انما يصارع من أجل تحرير نفسه ، ومن هذا الكشف العلاقة الوثيقة بين الحاجة والحرية اذ بين وجود الانسان الاحرية تمارس .. ويكون هذه الحرية لا معنى لهذا الوجود .. ان في العقل المتحرر حاجات تكمن حرية الانسان ، ولذا فاننا اذا أردنا هذا العقل فعلينا ان نهيء له هذه الحرية وجسدنا لوجود الانساني بحيث لا يكون هناك فرق يذكر بين عالم الانسان وعالم الحيوان ..

واذا كان « في الحاجة تكمن الحرية » فان هذا يعني فقط من حيث التحكم الخارجي في حاجات الانسان من قبل الآخرين أو شيئا من

---

(١) الفصل الثاني من الكتاب الاخضر ص ١٦٠ .

قبل الطبيعة ، بل أيضا في العلاقة الوثيقة جدا بين حرية الانسان وخلق الحاجات ، ان خلق " حاجات واشباعها والذي يعني انطلوجيا تجاوزها واستطاعة من العصاب هو ممارسة للحرية .. ان الحاجة دافع من ناحية لانها هي التي تدفع الانسان نحو الانتاج والابتكار والتطور ، وهي هدف من ناحية أخرى اذ ان كل انتاج وكل ابتكار انما يهدف لاشباع حاجة ، ان جعل الحاجة هدفا لا يمكن ان يتبلور ويزدهر الا بوجود الحرية أو بحرية الوجود ، ان الحركة نحو الدافع والهدف لا يمكن أن تتم الا اذا لم يكن هناك عائق يمنع هذه الحركة ..

وعلى ضوء ما سبق ذكره يمكن ان نميز في الحاجات عموما بين الحاجة الواقعية ونعني بها تلك التي لا يمكن تأجيل اشباعها .. وهناك عدد نسبية من إنسان لآخر لا بد وان يتوفر لكل انسان حتى في تحديدها والعمل على اشباعها .. وهناك الحاجة النظامية والتي يمكن تأجيل اشباعها ، وهذه بشكل أوضح من تلك تكشف لنا بصراحة عن طابعها كحافز على العمل والانتاج لانه في هذه الحاجات النظامية تتأكد بداية الخصوصية بكل الانسان واختلافه عن غيره من الذوق والتفضيلات ..الخ.. والحرية هي العلاقة بين الحاجات الواقعية والحاجات النظامية ، أو بمعنى ادق هي المسئولة عن تحويل الحاجات النظامية الى حاجات واقعية تتجاوزها الانسان عند الاشباع .. كما انها مسئولة أصلا عن خلق الحاجات النظامية ، وفي هذا يكمن سر التقدم والتطور وأي تدخل في هذه الجدلية بين الواقع والمستقبل يعني الركود بالنسبة للانسان والتخلف بالنسبة للمجتمع وجعل الانسان بدون مستقبل ..

ان أعلى الحاجات على الانسان وأشدها الحاحا عليه لاشباعها هي تلك التي لم يحقق بعد اشباعها ، وهي بهذا الاشباع تشكل بعد في وجه حريته ، وهذا التحدي يعتبر ليس مطلوب بل ان الحرية نفسها تطلب هذا

التحدي .. ولكن اذا كان هذا التحدي بشكل لا تقوى حرية الانسان على مواجهته ولا قبل لها به كما في النظام الماركسي والرأسمالي فان الحرية تتكلب .. وبعطم الامراض النفسية ليست الا انكلاب الحرية ، ان الحرية تتمرد على حاجات كلما كانت صعبة المنال كانت أشد الحاح في طلب الاشباع .. وبين واقع لا يعطيها اية فرصة لمجاولة الاشباع ومجابهة التحدي ، فلا يبقى أمامها غير الامراض النفسية تشبع رغبة أولا وقبل كل شيء ما عجزت عن اشباعه والقيام به .

كيف نحافظ على هذه الحركة الجدلية بين الواقع والمستقبل حرية وخلاقة ؟.. كيف نحافظ على كينونة الانسان حرا دون أن يؤدي هذا الى الفوضى التي تزدري كل حرية فتخربه .. كيف يضمن كل انسان يومه الذي يعيشه ومستقبله الذي يسعى اليه ؟..

لنتمحص قبل الاجابة على هذه التساؤلات وجهتي النظر المتناقضتين في هذا الموضوع .. ولنفترض من الآن اننا حددنا الحاجات ، وانتصر وضع الانسان في هذا الوضع ، فهل يعد ؟ انه على أحسن الفروض بالكاد يعيش ويسكن ، ثم ليس لديه اي أمل في ان يحرر نفسه ويحسن مصيره ، وبمعنى أدق لم يعد بامكانه ان يحقق وجوده الخاص .. لقد تحول الى فكرة حتى بالنسبة لنفسه مجرد كلمة يكرر نفسه كل يوم دون أن يكون بامكانه التجدد والخلق ، انه انسان لا مستقبل له .. لقد جمدنا بتحديد حاجات حرية الانسان وقضينا على حق الاختلاف ، وهذا ما حدث في الدول التي تحاول تطبيق الماركسية ..

ان ماركس لم يهتم بمسألة الحاجات لأنها بالنسبة له لا تشكل مشكلة في المجتمع الحر ، واهتم فقط بالاشباع الذي يصورة استهلاكية أي على أساس نمو الحاجات ، أو على الاقل تحديد سرعة تغيرها وتطورها من

تتخارج بقوانين وتوازنات* تكفل ارتقاء هذه النظم في محاولتها ايجاد التوازن المنشود بين الحاجات والاشباع ، أي الانتاج وتحديد الحاجات وفرملة سيالة الخلق .. وفي هذا الخصوص نلاحظ ما يلي :ـ

١ ـ انه لم يفرق بين خلق الحاجات والذي هو مرتبط ارتباطا وثيقا بالحرية وبين الاختلاق والذي هو مظهر من مظاهر النظام الرأسمالي ـ كما سنرى ـ وكان النتيجة تمثل الضوح والركود رغم كل المحاولات لتغيير سمة الانتاج والتي تظل دائما عرضة للتوقف أو على الاقل عرضة للتباطؤ ، وبتوقف الامر على السلعة الخارجية ومدى تسلقها ..

٢ ـ لاحظ الاستاذ وعلى بدرجة التطور بحسبة النفتي الذي وصلت اليه بعض البلاد ، واثرا الاهداف الاقتصادية التي وضعت تحت تأثير ظروف سياسة دولية وبحسبة ، انه يرتبط بسرعة خلق الحاجات لا تناسب مع المسرعة من الانتاج لاشباع المتجددة ، اثرا اتاح هذه النظم الرأسمالية السابقة أو المتواجدة في أماكن أخرى[٣] .. ولم تكن هناك من حيل بالنسبة لهذه النظم سواء التحكم في عملية الخلق هذه من الخروج بأن تحدث لكل فرد حاجاته كما وكيفا وتوازن الاشباع اما مباشرة أو بتوازن غير مباشر من توازن التحكم في الافراد .. ولكن هذا التحكم هو في حقيقة الأمر تحكم في حرية الفرد[٤] مما أدى الى أن يصبح الفرد يكرر نفسه ويكرر غيره بدل الخلق والابداع ..

---

* في كل حال ما كان يمكن فلسفة مدرسة حمص أن تنتبه الى العلاقة بين الحاجة والصنعة ..

(٣) انظر الكتاب واختراف الانسان المعاصر لماركيوز العدد ٢ .

* انظر الكتاب الاخير العمل الاقتصادي ص ٤ .

والخطأ يكمن هنا في انه لم يفرق بين الحاجات العضوية المؤقتة والحل النظري الدائم والذي يتقدم به الفصل التالي من الكتاب الاخضر كما سنرى ..

أما في مجتمعات أخرى ، ولانها بالاساس متطورة تقنيا ، ولانها مجتمعات استهلاك ، فانه يسهل ان تدفع بمعيشة الخلق هذه الى اقصى حدودها بل زيادة على ذلك ادخلت بواسطة الدعاية والاعلان المستخدم فيها كل التقدم العلمي من اجل الاسراع في خلق الحاجات هذه مما ادى الى :

١ ـ تبذير خيرات المجتمع بتحويل حاجات تعليمية او ضرورات مع وجود نقص في الضروريات عند بعض فئات المجتمع ..

٢ ـ تحول الاقتصاد الى فوضى وسباق محموم من اجل الربح ..

٣ ـ تحول عملية خلق وازدهار الحاجات الى هدر من طرف الافراد انفسهم ..

٤ ـ تظلم اجتماعي اذ ان فئة كبيرة من المجتمع تشعر بتأكد الضروريات مع انها تحقق اليوم حاجاتها التنموية ..

والسر وراء هذا كله يكمن في ان هذه النظم لا تتمكن بأية حال من اشباع الحاجات التي خلقتها عند الناس .. ولهذا فعليها ان تخلق دائما حاجات جديدة حتى يزداد الطلب بالنسبة للعرض ويمكنها تصريف الانتاج والذي تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، فتطلب بذلك العاشرون الاقتصادي من ان الطلب يخلق العرض ، اي العرض يخلق الطلب (١) ..

(١) انظر المصدر الاخير : الاستراتيجية حقائق الاقتصاد ، العدد ١٥١ ،

ان النظام الرأسمالي كما هنا يعتبر المحرك لعملية اختلاق حاجات جديدة ، ويعتبر نسبيها اختلاق لان الخلق في هذا لا يتم بصورة طبيعية وتلقائية بل نتيجة تأثير الدعاية والاعلام المستخدم فيها أحدث ما توصلت اليه العلوم .. وبهذا يتضح لنا ان هذه الحرية التي تعتبرها النظم الرأسمالية ليست في حقيقة الأمر حرية ، لان الحرية هنا خاضعة لضغوط خارجية تعريها كما هو الوضع في النظم الشيوعية .. ان الحرية هنا كما هو هناك مزيفة ، ليست فان التوازن دائما مختل : في النظام الرأسمالي بين اختلاق الحاجات والقدرة الحقيقية على الاشباع ، وفي النظم الشيوعية تحديد الحاجات مباشرة او لا مباشرة يؤدي الى اضعاف القدرة الى الانتاج مما يؤدي بدوره الى اختلال التوازن ..

ان هذين الحلين يضران بالحرية ويعدمانها ، ورغم تناقضهما الظاهر فان نتيجتهما واحدة : فهي الحل الأول الأمر واضح لا يحتاج لتوضيح اذ أن تحديد الحاجات فضاء على الحرية .. اما في الحل الثاني فانه : بما ان عملية الخلق ، أيا كانا سببها الخلق ، لا تتم ذاتيا وبشكل تلقائي طبيعي وانما تتم تحت تأثير الدعاية والاعلام مما يجعل الحرية أسيرة ما لم تخلقه ، وان تصبح مسيطر عليها من الخارج في عملية خلق حاجات لها .. وليس حرة حقيقة في نشاطها الخلاق ، أي حدثت أبطال نشاط الحرية الخلاق في الحلين ، والسبب : ـ

في النظم الشيوعية كما في النظم الرأسمالية لم ينظر الى العلاقة بين الحاجة والاشباع أو بين الحرية الخلاقة وملكية الانتاج .. فملكية الدولة لأدوات الانتاج وللانتاج وتحديدها العائد منه على المنتج في شكل أجور قد حدد من الخارج النشاط الخلاق للمنتج وقضى ذلك على حريته كأساس للتطور والخلق أما في النظم الرأسمالية فان الانسان يدفع اكبر حاجات

جديدة ، وله أن يحول أو يتبنى ما يخلق له من الحاجات ما شاء دون أن تكون بامكانه اشباعها ، فهي العلة بين الانتاج وخلق الحاجات متوسطة ، في احداهما متوسطة بالدولة المالكة للانتاج ولادواته ، وفي الثانية متوسطة على الرأسمال المالك للانتاج وأدواته بحيث أن أي سعر من المنتج للاشباع الحاجة التي دعي اليه وفي حقيقة الامر لصالح الرأسمالي أكثر منه لصالح المنتج : لصالح الرأسمالي لان السعي للاشباع يعني زيادة الانتاج والذي هو ملك الرأسمالي ، لان الاشباع هو زيادة في الاستهلاك الذي يزيد في ارباح الرأسمالي ، وفي كل حالة الاحوال لا يمكن ان يكون هناك توازن بين عملية خلق أي خلق الحاجات والانتاج ، اذ لا يمكن أن تكون هناك حرية مطلقة ..

اذن نكرر من جديد السؤال الذي طرحناه : وما هو الحل ؟

ان كان الخلل العام لاختلاق حاجات هو لا يمكن أن نكون الى الاسباب عندما ذكرناها سابقا من التطور والتغيرات الحاجات وانتقال الحاجات والهوة التي تزداد اتساعا بين الحاجات والاشباع .. كما ان تعقيد الحاجات يعني التركيز والجهود لخلق أي رغبة في التطور والتقدم أي تحسين الانسان ، لتقدمه نحو حريته ..

كيف نحافظ اذن على هذه الحركة — خلق الحاجات لإشباعها — حركة خلاقة ؟

كيف نحافظ على كرامة الانسان حرا دون أن يؤدي ذلك الى الفوضى التي ترتد على الحرية فتلغيها تحريا ؟ ..

ان الجواب بسيط وجذري في نفس الوقت يتمثل في مفهوم التركيز وليس اجراء واحد ممكن أي يمثل منع الانسان من خلق حاجاته واشباعها

---

* راجع الفصل الثاني ص ٣ .

هو تدخل بمضاد للحرية وللانسانية والانضباط الخلقي لتؤدي الى التقدم ، كما ان اغلاق المنافذ واستغلال ذلك من قبل الرأسمال يؤدي الى نفس النتيجة وان اختلف السبيل .. ان الشاهد الخلقي لا يمكن أن يتم وعلى صورته الصحيحة الا في مجتمع فيه الانتاج يعود بالنفع في مجتمع و شركاء وليس لأجراء ، وفي هذا الصدد يحدث التوازن بين الشاهد الخلقي وبين الانتاج .. فالانسان في هذه الحالة يخلق الحاجات التي يمكن له السعي لاشباعها أو بمعنى آخر ينتج ما يشبع حاجاته التي خلقها ، وبهذا فقد تحافظ على الشاهد الانساني الخلاق والذي يؤدي الى التطور والتقدم وتفني عن القهر والاستغلال .. ان الانسان يحدد هذا بارادته وبقدرته دون أي تدخل خارجي .. أي ان الحرية تحدد نفسها .. ربما تجيب عن السؤال الذي طرحناه في البداية : هل يمكن تحديد الحاجة ؟ ان الحاجة يمكن تحديدها ، ولا يمكن أن يمثل في حقوق الانسان كما في العالم الرأسمالي ولكن ليس من الخارج كما في النظم الشيوعية ، ويمكن من الداخل أن ان الحرية تحدد نفسها ..

ان ذلك الانتاج من قبل المنتج يؤدي الى التوازن بين الحرية والضرورة ، الضرورة تتمثل في الحاجة الواقعية ، والحرية تتمثل في انتاج اشياء جديدة وبما ان الضرورة أو الحاجة الواقعية ليست في الأصل الا تطلعا فان الضرورة ليست الا الحرية وقد وضعت لتجاوز نفسها وتخلق بالتالي التقدم والازدهار ، ان غاية المجتمع الاشتراكي الجديد هي تكوين مجتمع سعيد لأنه حر ..

---

(١) الفصل الثاني ص ١٩ .

« اغلوطة في المقدمة »

الدكتور رشيد الخمليشي

« أغلوطة في المقدمة »

الدكتور رشيد الجميلي

قسم التاريخ

بعد أن كتب المقدمة لتاريخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) هو أحد الكتب المهمة في تراثنا العربي ، وتتجلى هذه الأهمية بصفة خاصة عند كل بحث يتعلق من الحضارة العربية الإسلامية ميدانا لبحثه ، وتأتي أهمية المقدمة من الموسوعات التي وردت فيها ، ومع ما لهذه المقدمة فإننا نرى أن مؤرخنا ابن خلدون ، قد تسرب إلى مقدمته بعض أغلوطة رأينا أن من واجبنا التنويه عنها ، أما موضوع هذه الأغلوطة فيتركز حول نفي ابن خلدون لكل ما قام به الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية في مجال رعايته لحركة الترجمة أولا واشتغاله بالعلوم ثانيا ، ولما كان واقع الأمر هو على نقيض ما ورد عند ابن خلدون فسنبين فيما يلي ونبرز ما بذله الأمير الأموي من جهود في سبيل تنشيط حركة الترجمة وما ترتب على ذلك من انتشاره إلى الربع العلمي وبخاصة في ميدان الكيمياء (الكيمياء القديمة) ، ثم نتطرق بعد ذلك لما ورد عند ابن خلدون بهذا الصدد موضحين في ذات الوقت كيف أن مؤرخنا قد جانبه الصواب تماما فيما ذهب إليه بهذا الصدد .

يعتبر الأمير الأموي خالد بن يزيد (المتوفى سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م) من أكبر الذين اهتموا بحركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، بل إن الأمير خالد كان أول شخصية في

الإسلام أمر ترجمة كتب الطب والكيمياء والهيئة إلى العربية ، كما انه كان أول عربي يبحث في العلوم العقلية ويظفر منها بمركز جدير بالنظر والاعتبار ، رغم ما خلفه من مؤلفات في هذا المجال — شهدت لها مصادرنا — هي أقوى دليل مادي على ذلك ، ولا يضع ان خالدا هذا لم يكن رجلا عاديا في تاريخ الأسرة الأموية ، وهذا هو ما نستشفه من خلال ما ذكره ابن النديم عن صاحبنا الأمير الأموي ، ففي هذا السياق يذكر المؤرخ أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم (المتوفى سنة ٣٨٤هـ/١٠٤٦م) : « أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي ، وكان من أعلم قريش بفنون العلم ، وهو الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وكان خالد شاعرا فصيحا حازما ذا رأي ، وهو أول من ترجم له كتب طب ونجوم وكتب الكيمياء ، وكان جوادا ، ويقال انه قيل له : لقد ضيعت أكثر شغلك في طلب الصنعة (علم الكيمياء) ، فقال خالد : ما تأملت علم أبد منها علما ولا أرى أبدع آخر هذه الصناعة فلا أخرج أحدا عرض عمل الصناعة ، وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت له — وتحديث هذا لابن النديم — نحو خمسمائة ورقة ، ورأيت من كتبه : كتاب الحرارات ، كتاب الصحيفة الكبير ، كتاب الصحيفة الصغير — العالم ساعد بن أحمد الأندلسي (المتوفى سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م) : « وكان خالد بن يزيد عصريا بالطب والكيمياء ، وله في الكيمياء رسائل وأشعار وارجوزة دالة على معرفته وبراعته فيها » [٢] ، وفي تاريخ اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) في ترجمة خالد بن يزيد : « ومنه إنه كان عالما شاعرا ينسب إليه شيء من علم الكيمياء وانه كانت له معرفة بشيء من علوم الطبيعة » [٣] ، وكان لخالد بن يزيد الأمير

الحكيم (فرفوريوس الحكمة في علم الكيمياء) منقوشة في قراءة محلله وبعد أياها أعلن وللاسالة رضيت عنه أولها السعيد فله أو احد الفرد الذي له العز والمجد ... الخ [٢٠] . وكان خالد يوصف بالعلم ، وقيل عنه قد سبق علماء العرب والعجم ، كان يقول : كتبعني بالكتب وما أنا من علماء ولا من الحكماء [٢١] . ومن الباحثين المحدثين الذين يؤيدون الامير الاموي في رعايته لحركة الترجمة واشتغاله بالعلوم ، الاستاذ دي بور ، حيث يقول بهذا الصدد : (وكان خالد بن يزيد قد اشتغل بالكيمياء بارشاد راهب نصراني ، وامر بترجمة كتب في الكيمياء من اللسان اليوناني الى اللسان العربي) [٢٢] . وفي هذا المجال ايضا يقول الاستاذ هولميارد : (كان خالد ابن يزيد أول من بحث في كتب المعمداء ، وهو أول من ترجمت له الكتب القديمة في الطب والتنجيم والكيمياء) [٢٣] . أما الباحثة الالمانية زيغرسد هونكه ، فقد أوردت تعليلا مريحا لاسباب ترجمة خالد للتراث الاجنبي ، فهي تقول بهذا الصدد : (ولم يشرح خالد لاصدقائه الاوفياء ، الكتب ، وهم يتحدثون معه بلغاتهم غريبة عنه ، فبدأ خالد — كأول خليفة في سلسلة عظيمة من رعاة الحركة العلمية — بدأ بدعوة لتعليم من الاغريق والعرب من الاسكندرية وعهد إليهم بترجمة أهم مؤلفات يونانية ومصرية الى اللغة العربية ، مشيرا بذلك على ان يتعامل مع اختلاف الخلفية بذكاء هو) [٢٤] . وحسن الباحثين مع بلغ إعجابه بالامير الاموي إلى حد السائل بهذا السؤال : هل هو واقع الطرف أو واقع ذكاء العرب الفطري أن تسمعوا به يشعر الاعجاب ؟ فقد أمر خالد بن يزيد بترجمة الكتب القديمة في الكيمياء الى اللغة العربية ، وهذه كانت الترجمات الاولى ، وقد مشى خلفها الآن الف وماثتا سنة ، لكن هذا العلم (الكيمياء) على الرغم من غموضه ، انتشر بسرعة في الشرق كله ، وكان الكيميائيون يكاثرون بسرعة عليه [٢٥] .

ان خالد بن يزيد كان أول من احياء شعلة العلم عند العرب ، وفي هذا

العلم ذاته عشق وأي تفاصيل، وكانت أول معرفة خالد بالعلم وخاصة الكيمياء في مصر حيث قام إليها بالسفارة فنيشة شغف خلالها بالكيمياء، والأسانيد التي كانت تكشف عن إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، فأمر بترجمة كتب الكيمياء التي كانت معروفة في مدرسة الإسكندرية، وكان آخر علماء الكيمياء أهمية في ذلك الوقت في الإسكندرية (٥١)، ويبدو لي من خلال ما ذكرته معظم المصادر التي ترجمت للأمير الأموي، أن بعضاً من مؤلفاته في مجال الكيمياء، قد بقيت معروفة فيما بعد وعرفة غوبله (٥٢).

لقد كان للأمير خالد بن يزيد — دون شك — أحد الذين تحدوا في العلوم في القرن الأول الهجري، ودل نحسه لعلم والمعرفة دفعه إلى الحصول على مصنفات لأغريق والسريان (٥٣).

ولأن ربما لن استعرضنا وبإيجاز شديد، الدور الذي لعبه الأمير الأموي في مجالي الترجمة والعلوم، وربما أن بيننا البعض من آراء الباحثين قديمها وحديثها، مصادرها ومراجعها، ناقشوا ما يمكن أن يثار من تساؤلات حول ما ذهبوا إليه آنفاً بخصوص دعاية خالد بن يزيد لحركة الترجمة أولاً وانشغاله بعلوم الأقدمين ثانياً، حيث يعد صاحب هذا الرأي الذي نبني كل ما ذكرناه عن الأمير الأموي بصفة خاصة والحركة العلمية في هذا الوقت بصفة عامة، الأب الروحي لكل من تابع الميلادي بصفة عامة، ونعني بذلك أننا نؤيد كل من ذهب هذا الرأي، ونؤكد أن صاحب الدراسة هذه من تشرفنا كثيراً، وقد كان موضوعاً هذا المصدر الوحيد الذي لم نجد له مثيلاً من جميع المصادر التي ترجمت الأمير الأموي، والذي ذكر على خالد بن يزيد أمر رغبته في الترجمة واشتغاله بالعلوم، فهو يقول بهذا الخصوص: "... ورسموا بعض الدواجب والأقاويل فيها (الكيمياء) لخالد بن يزيد بن معاوية ... ومن العلوم التي لم يخلوا من الجيل العربي بالإضافة إلى أدب فهو يعني عن العلوم والصنائع بجملة وكيف له بصناعة وهي التي مبنية على

معرفة بيان المركبات ومزجها وكتب الطارئين في ذلك من الطبيعيات
و لطب لم تظهر بعد ولم تترجم الهم الا ان يكون خالد بن يزيد كتب
أهل المدارك السامية تشد اليه فتكون ... ه (٨٠٣) ، ونحن نرى ان
من المناسب هنا ، وقبل أن نأتي على بيان رأينا في هذا الموضوع ، ان نرد
على مزاعم من يحاول أن يغمط حق سابقنا في هذا المضمار بدليل آخر
يضاف الى مجموعة الادلة التي تدعم قولنا بحق الامير الاموي في رعايته
لترجمة وانصرافه الى البحث في العلوم القديمة ، ودليلنا الجديد ليس هو
الدليل الاخير في هذا السياق ، ومن جهة ثانية فاننا لسنا بصدد ما قد الى أي
شيء من هذا القبيل ، وان ما أوردناه آنفا يفي بالغرض المطلوب ، وأكثر
من ذلك بكثير ، اما دليلنا هذه المرة فمبناه ابن النديم أيضا الذي يقول
بهذا الشأن : « وكان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان
فاضلا في نفسه وله هيبة ومعرفة بعلوم ، وهو الذي أمر بنقل الكتب في
الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل كان في
الاسلام من لغة الى لغة ... ه (٨٠٥) ، ولعلنا نرى ان الامر الاموي
ـ واستنادا الى ما أتينا على ذكره من مصادر ـ قد عاد في تراثنا
التاريخي الاسلامي ـ كان أول من رعى أمر الترجمة ، بل هو أول من بحث
في العلوم القديمة وبعثه الكتاب في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ،
وان أي رأي آخر ـ سواء أكان قديما أم حديثا ، معاصرا أم مرجعا ـ
يخرج عن هذا الرأي ، يتنافى تماما وحقيقة ذلك الاجماع الذي الشاهد
والمرجع في تأييد سابقنا التام والمطلق في كل ما ذهبنا اليه آنفا ، خاصة
وان الشكهن لا غير هو دليل من جاءنا بأنباء هذا ،

الهوامش

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ (ليبزك ، ١٨٧١) .

(٢) ساعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٦٢ (النجف الأشرف ، ١٩٦٧) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٨٠ (بيروت ، ١٩٦٦) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ٢ ، ص ١٩٥٤ (طهران ، ١٢٧٨ هـ) .

(٥) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٥٢ (القاهرة ، ١٩٦٥) .

(٦) De Boer : The History of Philosophy , P. 17 , London. 1954

(٧) Holmyard : Makers of Chemistry , P. 43 , Oxford. 1937 .

(٨) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩ (بيروت ، ١٩٦٦) .

(٩) جاك ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١٧٧ ، (القاهرة ، ١٩٦٠) .

(١٠) جلال مضر : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ١٦ ــ ١٧ (بيروت ، ١٩٦٧) .

(١١) انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٦ (بيروت ، ١٩٦٩) .

(١٢) A bohmer : Arabic Authors, P. 40 , London. 1890

(١٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٠٥ (القاهرة ، بدون تاريخ) .

(١٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٤ .

بحوث

« منهجية علم الانسان الاجتماعي »

دكتور : صبحي قنوص

منهجية علم الانسان الاجتماعي

دكتور : صبحي قنصوص

[illegible] من مفهوم كثير من المشتغلين بالدراسات الاجتماعية الا انه يجد كثير من المفكرين في علم الانسان الاجتماعي (الاثنولوجيا الاجتماعية) Social Anthropology كان ولا يزال اهتمامهم منصبا على دراسة النظم الوظيفي للمجتمع [illegible] وهذا الاهتمام كان مرجعه الى ان الدراسات البدائية المبكرة كانت مركزة على دراسة المجتمعات البدائية قليلة الحجم من الناحية السكانية ومحدودة الثقافة والتي تتصف بالبساطة في تكوينها وأنظمتها الاجتماعية . وقد رأى بعض من مفكري علم الانسان وعلى رأسهم راد كليف براون Radcliffe - Brown أنه يجب على المشتغل بعلم الانسان الاجتماعي أن يدرس المجتمع من خلال مقارنته بمجتمع آخر وخاصة فيما يتعلق بدراسة الوقائع والاحداث الموجودة في المجتمع المدروس . إلا أن وجهة نظر هذه التي أكد عليها راد كليف براون لا يمكن أن تسير لأنه لا يوجد سبب وظيفي في مثل هذه الوقائع ، حيث أن ما يوجد بالمجتمع البدائي حدثا أو واقعا بالنسبة للمجتمع الذي ينتمي بدراسته فيمثل بالنسبة لهذا المجتمع البدائي الآخر عبارة عن مجموعة من التصورات أو التصورات معينة ، ولهذا فانه يصعب مقارنة هذه الوقائع حتى وان كانت موجودة في بعض المجتمعات حيث أن درجة وجودها تتفاوت من مجتمع لآخر بين درجات حدوثها ووجودها في كثير من المجتمعات حتى وان كانت بدائية . ولا يمكن بأن نصل من الاحوال دراسة الاشياء

---

(1) راد كليف براون هو صاحب كتاب (النظرية البنائية في علم الانسان) وهو من رواد المدرسة البنائية

وبما أن المجتمعات لا تعتبر أشياء بالمفهوم المادي ، فإنه لا يمكن دراستها على هذا الأساس ؛ فمفهوم المجتمع مفهوم عقلي فكري وليس مادي حسي ولو غلبت عليه صفة عضوية في بعض ، لأن "الشيء" أو الكيان الوحيد الذي نحدده في أي موقف اجتماعي هو أفراد المجتمع ، وإن ما نشير إليه عند استعمالنا لمفهوم المجتمع هو أن أفراد المجتمع منتظمون بحكم أنهم يكونون هذا الأشكال قريبة Kin Relations ، فهم مرتبطون بطريق مختلف الأنظمة الموجودة في المجتمع ؛ سواء بطريق النظام الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الديني ، وإن وظيفة علم الاجتماع الاجتماعي وعالم الاجتماع هي محاولة التعرف وتفسير هذه الأنظمة والأشكال الاجتماعية المتدرجة معها ، والمجتمع إذن عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة التي هي مجال علم الاجتماع الاجتماعي .

إنه من الخطأ استعمال مفهوم الكل الوظيفي ، أو الكل الاجتماعي للدليل به على وحدة الاجتماعية التي قد نظن لدى فئة من فئات سكان المجتمع ، فالكل الاجتماعي هو مجموعة أفراد المجتمع الذين ترتبط أهداف وغايات معينة ، سواء كانت هذه الأهداف والغايات سياسية ، اقتصادية ، أو اجتماعية ، فإذا ارتبط واتفق مجموع أفراد المجتمع من أجل تحقيق هدف معين ، يمكننا أن نعتبر أن شيئا أو واقعا اجتماعيا قد حدث بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع [٢] ، ولكن بالرغم من حدوث عملية

---

(٢) إن خير دليل على هذا ما يجري الآن بين أفراد المجتمع العربي الذين لتحقيق أهداف وغايات معينة سواء كانت على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، فإننا نحقق ما يسعى إليه المجتمع الذي نكون ينتمي إليه ، لأن واقعا اجتماعيا قد حدث بالنسبة له ، أي أنه يعتبر واقعا اجتماعيا ، وصل إليه عن طريق التعاون الذي أدى إلى اتصال تحقيق أهداف معينة ، أو واقع اجتماعي معين ، بصرف النظر أي أداة من الوسائل استخدمت لهذا الهدف الذي وصل إليه الواقع الاجتماعي .

... بين أفراد المجتمع ، وبالرغم من أن شيئا ما قد تحقق ، إلا أنه لا يمكن للمتخصصين في العلوم الاجتماعية أن يدرسوا ذلك المجتمع ككل ، فإن ما يحدث في جزء من البناء الاجتماعي Social Structure يختلف جذريا من حدوثه في بقية الأجزاء ، وحيث إن درجة التجانس تتفاوت إلا أن منطقها قد يكون واحدا ، ولكن أهدافها تختلف وذلك حسب الإطار الذي حدث فيه التغير سواء كان سياسيا ، اقتصاديا ، أو اجتماعيا ، فإذا أخذنا مفهوم التحضير مثلا Urbanism نجد أن جوانبه المعنوية والمادية تتباين ، حيث إن ما يحدث من تحضر أو تقدم في الجانب المادي لا يعني نفس درجة الحدوث في الجانب المعنوي فأحدهما بطيء الحدوث عن الآخر ، وعادة ما يكون الجانب المادي كما هو ملاحظ في مجتمعنا العربي الغربي ودول العالم الثالث ، وتجدر الإشارة هنا إلى افتقار الدراسات العربية بالنسبة للبحث الاجتماعي سواء كان في مجال علم الإنسان الاجتماعي أو علم الاجتماع ، فبالرغم من تعدد فروع العلم إلا أن نصيبها ما زالت تدور في حلقة مفرغة ، حيث إن ما يدرسه المتخصص في فرع من هذه الفروع نراه مكررا بالنسبة لبقية المتخصصين في الفروع الأخرى ، وإن تعدد هذه الفروع ما هو إلا تدليل على نمو العلوم الإنسانية ولكن من وجهة نظرية بحتة ، حيث إن الواقع عكس ذلك تماما ، إن الهوة لا زالت كبيرة ، وتحطيمها أو التخلص منها لا يمكن أن يزول إلا بزوال العمومية المتعارف عليها في علماء الاجتماع وعلم الإنسان الاجتماعي وخاصة في دول أفريقيا وآسيا ، فإذا ما تمت التخصصية يمكننا بعدها أن نقول أو نتحدث لكل فرع من هذه الفروع أو لكل متخصص فيها درجته ومكانته وفائدته العلمية .

إن المجتمعات الإنسانية حتى ولو افترضنا أنها عبارة عن كل مجرد ، فإنه يتعذر على الباحث أن يدرسها ككل واحد ، وعليه سواء كانت دراسته وصفية أو تحليلية أن يركز على أحد الجوانب المتصلة بالبناء الاجتماعي كأن يقصر دراسته على الأنظمة الاجتماعية أو الاقتصادية أو

[illegible] إن قلة العدد ، لأحيانا هي التي تجعل بعض الباحثين يختارون المجتمع لدراسته والبحث فيه كأنا صغيرا . فإن حجم المجتمع مجال يجعله يمكننا أن نتوصل إلى فهم كل جوانبه الحياة بقدر كبير ، وهذا لا يأتي إلا عن طريق الدقة والتحديد والتخصيص . فالدارس يستطيع أن يدرس نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا متكاملا ، ولكن لا يمكنه أن يدرس هذا المجتمع بكامله أو شيئا آخر مختلفا عن المجتمعات بكامله ، لأن ما يقوم به عالم الإنسان الاجتماعي هو تجريد جوانب معينة في السلوك الاجتماعي المعقد وذلك بقصد التوصل إلى العوامل والمؤثرات التي تجعل هذه الجوانب في السلوك الاجتماعي تأخذ شكلا معينا تتفق عليه أفراد المجتمع في تطبيقها والتقيد بها ، ومقارنة هذه الأشكال المتشابهة في السلوك الاجتماعي بما لديهم من افتراضات أو نظريات معينة ، وهذه هي أحدث الطرق العلمية ومنهجية الدقة الآن في تحديد الأنظمة الاجتماعية ومن الأمثلة على ذلك دراسة العلاقات القرابية وأثرها على نظم الزواج والقواعد المتبعة التي تطبق بشكل متشابه ، [بصرف النظر كانت منطقة حضرية أو ريفية] من ذلك المجتمع ، فليس من السهل أن نتوقع قدرة الإنسان الاجتماعي بدراسته أثر العلاقات القرابية على نظم الزواج في المجتمع الواحد ، لأن هذا المجتمع بالرغم من أنه يدين بدين واحد ، ويتحدث لغة واحدة ، فلا يمكن لأي متخصص في علم الإنسان الاجتماعي أن يذكر أن سكان منطقة ما يختلفون عن سكان المنطقة الأخرى وذلك فيما يتعلق بنظم الزواج وما يندرج تحتها من العادات والتقاليد المتبعة في ذلك [1] ، فإذا أخذنا مثلا منطقة كمنطقة طرابلس ، وقارناها بمنطقة بنغازي ، فنلاحظ أن هناك اختلافات لا لم يكن كبيرا من حيث الشروطات التي يجب أن يوفرها أهل الزوج ، أو الزوج نفسه

1 - L. Peters, Aspects of Affinity in a Lebanese Maronite Village, 1975 ; PP. 50 — 53 .

والكنية التي تسمى بها الأم "زوجة رومي" هو صاحب الكلمة الأخيرة في تحديد هوية الطفل هل هو الأب ، أم العم ، أم الخال ، أو هو شخص ما ، وهذا راجع بطبيعة الحال الى نوع التركيبة الاجتماعية والايكولوجية لسكان منطقة تراليس وتلعازي ، ولا يثير الاختلاف في هذا الحد ، بل ان ما يجري داخل الحدود الادارية لمنطقة تراليس او تلعازي يختلف عما هو موجود في الاوراس لكلا المنطقتين .

ان موضوع علم الاجتماع الاجتماعي هو التركيز على دراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة وكيفية تنظيمها بين أفراد المجتمع المدروس ، وهذا لا يعني أن دراسة هذا النوع من العلاقات الاجتماعية أنها تمثل أو تنطبق على جميع سكان ذلك المجتمع ، ولا يمكن بأي حال من الاحوال اعتبارها كلا واحدا ، إن التعبير بالعلاقات الاجتماعية المستمرة أو المؤسسة Institutionlized هي العلاقات الدالة والثابتة بين أفراد المجتمع وتعتبر خاصة من خواصه ، وبالرغم من تعقيد العلاقات الاجتماعية الا أن بعضها أعقد من الاخرى من حيث درجة تنسيقها ، فهناك العلاقات الاجتماعية الاكثر سهولة من الاخرى ، وهناك العلاقات الاجتماعية القابلة للتغير والتعديل والتي تتأثر بدخول أي جديد عليها ، عكس بعض الطرق الاجتماعية الروتينية والتي لم يعتدها في أغلب الاحيان العامل الاقتصادي والعامل السياسي ، وهناك من العلاقات الاجتماعية التي تقاوم التغير كتغير العلاقات السائدة في الاوراس ، حتى ولا أثرت أي جديد ، فان درجة تأثرها بطيئة جدا مقارنة بنوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية الموجودة في المدن المتحضرة .

ان العلاقات الاجتماعية Social Relationship هي ذلك الاسلوب الذي يتعامل به الافراد ويتصرفون حيث يتقاسم بعض ، ويتفق

آخر ، هي تلك الارتباطات والالتزامات الاجتماعية التي تشد الافراد الى بعضهم ، والتي بصورها تحدد نوعية الشرف والتعامل الاجتماعي ، فعلاقة الاجتماعية بين الزوج وزوجته على سبيل المثال في مجتمع ما تعني الطريقة التي يتعامل بها الزوج حيال زوجته والعكس بناء على الرابطة الاجتماعية Social Bond الموجودة بينهما ، وبما يتماشى والنظم والاعراف الموجودة في ذلك المجتمع ، وعلى هذا المستوى لا بد من التأكيد على عاملين رئيسيين فيما يتعلق وطبيعة أية علاقة اجتماعية :

أولا : لكي توجد علاقة اجتماعية وتستمر لا بد من وجود مجموعة من الوحدات الاجتماعية ليتم تبادل العلاقات الاجتماعية وتتحدد تبعيتها وتابعيتها من خلال نظرية العامل الاجتماعي Social Factor .

ثانيا : لا بد من وجود أشياء أو موضوعات معينة ، كتوزيع الثروة ، والحاجة الى الاشراء والالتزام الاجتماعي ، والهدف المشترك ، التي تحدد بصورها نوعية العلاقة الاجتماعية ، والتي كثيرا ما يعبر عنها بطريق التمييز بين مكانة الفرد الاجتماعية كأب وكزوج وبالتالي تحديد أدواره الاجتماعية ومختلف [1] .

ويلاحظ بالرغم من أن جميع المكانات الاجتماعية لها أدوار اجتماعية ، إلا أنه ليس بالضرورة أن يشتمل كل مكانة الفرد الاجتماعية بطريق أفعاله وأعماله ، فبعض المكانات الاجتماعية كثيرا ما يشار إليها بعض علماء

---

[1] لقد تطرق الى هذا الجانب كثير من الشخصيين كالمك بارسونز في كتابه « النسق الاجتماعي » عندما تحدث عن دور المكانة الاجتماعية .
T. Parsons. The Social System . London . 1952 . PP. 18 - 19

الاجتماع بالكسب أو بالوراثة Ascriptive ، والبعض الآخر يأتي بطريق مساعي الفرد في المجتمع أي تكون مكانته بطريق ما حققه بالفعل بواسطة مساعيه التي تدل بالضرورة للمجتمع ، ويعتبر هذا النوع من المكانة الاجتماعية ذات صلاحية وقيمة أكثر من النوع الأول (المكتسبة) ، لأن مؤهلة وتزول بزوال الثروة التي ورثها الفرد عن أبويه أو أجداده ، أو سلطة عسكرية قد تسمو وتزول بقيام سلطة أخرى معاكسة لها ، أما النوع الثاني من المكانة الاجتماعية عادة ما يحتفظ تدريجيا بعكس النوع الأول ، مذ يحتفظ لصاحبه في كثير من الأحيان .

وهناك نوع ثالث من المكانات الاجتماعية وهو ما يسمى بالمكانة الاجتماعية الوظيفية ، فلكل له مكانة وظيفية حال أدائه ، وكذلك الإخوة تجاه بعضهم بعض ، وبينما اختلفت وتنوعت تصرفات الإباء تجاه الأبناء ذلك بمقتضى الوظيفة ثابتة لا تتغير ، وهذا النوع من المكانة الاجتماعية (الوظيفي) هي التي يهتم الباحثون بعلم الاجتماع بالدرجة الأولى عند دراستهم لشتى العلاقة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات ، في كل مجتمع من المجتمعات سواء كانت بدائية أو متطورة تكنولوجيا يوجد ما يعرف بعلاقة الأقارب Kin Relations إلا أن نوعية هذه العلاقة تختلف من مجتمع لآخر ، وذلك لاختلاف البيئة والثقافة .

وقد أصبح مؤكدا لدينا بطريق ما سبق ذكره أن العلاقة الاجتماعية لها خصوصية أكثر من ذلك الذي يشير إلى أفعال الأفراد وتصرفاتهم تجاه بعضهم بعض ، فالفرد في المجتمع أو الوسط الذي له لا يمكنه التعرف على مكانة الفرد الاجتماعية بطريق ما يلاحظه ، حيث أن المكانة الاجتماعية ليست شيئا ماديا ملموسا بقدر ما هي شيء معنوي ، وقد يرى الباحث

أن هناك أشياء عديدة تسهم في مكانة الفرد الاجتماعية وتحدد توجيهها ، حيث أنه ليس بالضرورة أن تكون الاشياء أو الخصائص الذاتية التي يمتلكها الفرد دليلا أو مدلولا لمكانته الاجتماعية Social Status . فقد لا يكون للفرد الثري مكانة اجتماعية في المجتمع ، بل أن المكانة الاجتماعية للفرد هي معامل واحد وبسيط وبسيط ، وهي ليست أن يستمر الفرد أو يستغل مكانته سواء كانت المادية (الثروة) أو الشهرة (الذكاء) الخاص وخدمة تلك الأفراد المجتمع أو على الأقل بعض منهم .

إن المكانة الاجتماعية من وجهة نظر علم الاجتماع الاجتماعي لا تتحقق للفرد إلا إذا اعترف به جماعة أفراد المجتمع أو على الأقل المجموعة التي يتعامل معها ، فمثلا المكانة الاجتماعية لمدرس جامعي تتوقف على جامعة مدى أن تحقق بعرفة حصوله على درجة علمية ما أو يحكم مستوى الدرجة العلمية التي يحصل على طبيعة وذلك من خلال التفاعل الاجتماعي والتعامل العلمي والعملي مستخدما معلوماته المكتوبة ، فإذا أعترف له جمهور مجتمعه المحلي (الجامعة) والمجتمع الذي يعيش فيه يمكننا أن نقول أن لديه مكانة اجتماعية يستحق عليه التقدير هذا ، وهذا الشيء يمكن أن نسميه المكانة الاجتماعية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر يستطيع أحد أن يمتلك أسم يحمل مؤهلات تؤهله لوظيفة معينة ، إلا أن هذه المؤهلات لا تمنح له مكانة اجتماعية بقدر الاعتراف الذي يحصل عليه من خلال ممارسة مهامه الوظيفية ، وتحصل على جمهور مرؤسيه ، فالمؤهل أو الدرجة العلمية التي يحملها الطبيب لا تزيد من كونها وسيلة تمنح الطبيب لجمهور مرؤسيه ، وبعد ممارسة التقدير هذه التي تتحقق أجراء العمليات الجراحية الناجحة والاكتشافات الطبية كأعظم نعمة للمرضى ، هي التي تؤهله للحصول على مكانة اجتماعية معينة ، والتي يعترف به جمهور مرضاه والمتخصصين

ن العلاقات الاجتماعية لا يمكن بأي حال من الأحوال التدليل عليها دون تحديد الأوضاع والمعايير وما يصحبها من قيم اجتماعية سائدة ومنظمة . ان مفكرين علم الانسان الاجتماعي مثلهم في ذلك مفكرين علم الاجتماع يهتمون بتصرفات الأفراد ومعاملاتهم في الحياة حيث يعتقد بعض ون ينتج عن ذلك من قيم اجتماعية تشير الى حد كبير نوعا من التنظيم للعلاقات الاجتماعية الاجتماعية القائمة . فالآراء المتعلقة بنوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية يمكن اعتبارها مجرد توقعات أو نوع من الاعتراف بالأداء المتبادل ، ومعنى آخر اعتراف بنوع المكانة الاجتماعية لفرد أو مجتمع كان قد حقق وضعا أو هدفا اجتماعيا لصالح جميع الأفراد دون خروج أو تمرد مجموعة من الأفراد عن هذا الوضع أو الهدف الاجتماعي . ومن هذا المنطلق يمكننا أن نميز بين نوعين من التفكير الاجتماعي : الأول هو وجود نوع من الافكار تتعلق بما يجب عمله وتطبيقه عمليا ، والكشف الى أي مدى يتم ذلك قبل النسق الاجتماعي Social System وطريقة الأداء ، والثاني تلك المعتقدات والقيم التي ترتبط بما يقوم به الأفراد من أعمال وتصرفات في حياتهم اليومية ، وتعتبر هذه الأفكار أفراد المجتمع عادة من الموروث من الشيء بل ربما تعتبر هذه الأفكار والقيم والتي قد تجسد جزءا في عملياتي الاجتماعية ومعاملاتهم في نجيده .

لا أن مفكرين علم الانسان الاجتماعي المعنون بدراسة العلاقات

---

(١) لقد طرق مالنوفسكي إلى هذا النوع من الاعتراف بالمكانة الاجتماعية من طريق الأخذ بالمعنى في كتابه : مقالات في النظرية الاجتماعية الصادر سنة ١٩٤٩ م .

T. Parsons, Essays in Sociological theory 1949 Chapter 3.

الإنسانية يتعاملون معها على مستويين : الأول مستوى التوقعات في المعاملات اليومية وما يصاحبها من تصرفات قد تتنافى مع قيم وإيديولوجية المجتمع ، والثاني موقف أفراد المجتمع من هذه التصرفات ، ويتسم المستوى الأخير عادة بما :

١ ـ موقف الأفراد من طبيعة الأشياء وكيفية حدوثها ،

٢ ـ ما ينبغي أن تكون عليه طبيعة الأشياء [٦] .

إن أغلب مفكرين علم الإنسان الاجتماعي المهتمين قديما بدراسات ميدانية لمجتمعات متعددة كثيرا ما يجدهم يطلقون بريا ليسقه للمتغيرات الدالة التي تتعلق بمفهوم العلاقات الاجتماعية ، إلا أنه نجدهم في بعض الأحيان يركزون أو يؤكدون مستوى دون الآخر ، وكثيرا ما يتصورون أو يعزلون عن التعبير عن هذه المتغيرات كل الصور التي سبق الإشارة إليها ، وضرورة التمييز بطبيعة الحال حتمية نظرا لتباين خلفية المجتمعات المختلفة بمرجعية معقدة ، هذا أخذه المستوى الأول على سبيل المثال وليكن ، ما رسم حدوده ، الفكرة ليست بالأمر الهين كما يتراءى لكثير من المتعاملين بهذا النوع من المستوى والتمعن بالفكر الاجتماعي ، فلا يوجد حتى الآن سوء بالنسبة لعلم الإنسان الاجتماعي أو أي علم من العلوم الإنسانية الأخرى أن قيم بدراسة وقائع أو حقائق تابعة دون تصورها وتحريرها وإسناد هذا التفسير والتعريف إلى طبيعة المتغيرات المحيطة بهذه الوقائع سواء كانت بيئية أو اجتماعية ، ويعتبر آخرون أن الإيكولوجيين الحضرية Human Ecology في وجود الحقائق والوقائع

---

(٦) المقصود بالتصور هنا : ما يحدد طبيعة العلاقة الاجتماعية بين فرد وآخر أو مجموعة وأخرى ، وقد تكون هذه التصورات اجتماعية ، أو تصورات فردية نتيجة من مجموعة من الأفراد تتابع عليها الخبرة .

الاجتماعية ، فمثلا تعدد الزوجات في مجتمع من المجتمعات قد يفسره بعض أو جميعه الى طبيعة التركيبة الاجتماعية للمجتمع ، فالدارس لمجتمع ريفي او زراعي قد يرجع ذلك الى اعتبارات الاسرة الريفية أو الزراعية الكثيرة الايدي العاملة والدارس لمجتمع اخر حضري Transitional قد يرجع ذلك الى ارتفاع مستوى دخل الفرد او انخفاضه أو الى الوضع الاجتماعي والاقتصادي السيئ للمرأة أو لعدم معرفتها في تفسيرها على ما تحققه وعلى أقوال الافراد المدروسين ، وبمفهوم تفسيري أكثر فان كل ظاهرة بسيطة في ذاتها معرفة ما تنزله الافراد وما يقومون به من أعمال داخل بنية اجتماعية تكونة من الاستنتاج Inference وللملاحظة Observation وذات مدلول اجتماعي يطلق عليه الوقائع او الحقائق Data ، والفكرة الاساسية التي يجب على مفكري علم الانسان الاجتماعي أخذها في الاعتبار عند دراسة مفهوم العلاقات الاجتماعية أن يحاسبوا على أنهم يتعاملون مع مستويات مختلفة من العلاقات الاجتماعية حتى بين أفراد المجتمع الواحد ، وان يراعوا أن الارتباطات أو الاستنتاجات التي يتوصلون اليها تختلف من فترة زمنية وأخرى وذلك نتيجة لتغاير الافراد وتبدلهم أو بعضهم من جديد كل يوم وتأثرهم بعوامل تؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية حتى بين أفراد الاسرة الواحدة الذين يربطهم صلة الدم Blood Connection .

ذكرت سابقا أن ما يعاني منه الباحث من وقائع ناقص من وضوحها والدليل عليه يعتبر في بعض الاحيان شيئا مرفوضا من قبل الملاحظ معتمدا على بعض المفاهيم المضللة ، وكثيرا ما يحاول أن يجد لنفسه طريقة يختلف بها عن بقية أفراد المجتمع في تفسير وتحليل بعض الوقائع أو حتى الاقل ما يحدث في الحياة اليومية ، وقد تكون أحيانا على درجة من السهولة وذلك استنادا الى بعض الآراء والنظريات التي يعتمد عليها الكثير حينما الشروع في التحليل للوقائع المدروسة ، وهذا التعارض بين أفكار الدارسين

المتخصصين ، وبين عامة افراد المجتمع ، مما يظهر جليا وبداية نتيجة لاجراء الدراسات الميدانية المختلفة التي وجدت الاختلافات المتعددة بين افراد المجتمع في تقبل الوقائع وفي تفسيرها وتحليلها ، كما تناولوا مفكرو علم الانسان الاجتماعي وعبروا عنه بطرق مختلفة أيضا ، وبذلك نجد المفكر الامريكي روبرت ردفيلد R. Redfield يطور فكرة او مفهوم ثقافة العامة Folk Culture والمفكر الفرنسي كلود ليفي ستراوس C. Levi Strauss يميز بين التدوج الاجتماعي والآلي (٥) ، فقد كان لاستعمال ليفي ستراوس مفهوم الاجتماعي معمولا علما حيث ذكر ان ، ما يحدث بالفعل ، يعرضنا لمعالجة كمية Quantitative او اجتماعية بطريقة تختلف عن معالجة بعض الظواهر الاخرى من القيم والمعتقدات التي تعتمد الوصف كاداة على البيانات النوعية Qualitative .

ان ما يجب مراعاته والاهتمام به هو محاولة الجمع بين ما يعتبر كميا وموضوعيا فيما يتعلق بسلوكيات الافراد وتصرفاتهم ، حيث ان الاتجاه السائد الان لدى مفكري العلوم الاجتماعية المعاصرين هو الاعتماد على الجوانب الكمية واعمال الكيفية في دراسة الوقائع والظواهر الاجتماعية ، وتجدر الاشارة هنا الى انه توجد اشياء كامنة تتعلق بتصرفات الافراد ، وهناك ايضا اشياء خاصة بالقيم والمعتقدات غير واضحة وغير مريحة ، على الباحث الاجتماعي معرفة كنهها واخراجها إلى حيز الوجود حيث انه لا يمكن الاعتماد على الوقائع الظاهرة واعمال الاشياء الكامنة في شرح وتفسير التصرف الاجتماعي ، ذلك لا ننكر اهمية البيانات الاحصائية

---

٥) R. Redfield , The Folk Society , In The American Journal of Sociology , 1937 : No. 52 PP. 293 — 308.

C. Levi — Strauss, Social Structure , In Anthropology To day , Chicago 1953 PP. 54 — 55

في دراسة بعض المشكلات الاجتماعية . وأكثر موضوعات مشكلات أخرى تتسم بشيوع الأهمية مثل دراسة العلاقة الاجتماعية بين الابن وأبيه وطبيعة الأدوار : تحيث تقوم كل من درجة الانطلاق والتحفظ والالتزام الى درجة الإفصاح وعدم الاستقلالية . وتشير دراسات لبعض المتخصصين في مختلف العلوم الاجتماعية بأن مثل هذه المشكلة تتأثر وتتغير وفقا لوجود متغيرات أخرى كالتعليم والاستقلالية وتفكك الأسرة الممتدة .

هذا الأمر يتطلب من الباحث دراسة لا يمكن حصرها كميا والاعتماد عليها في وصف أو تحديد نوعية العلاقة الاجتماعية السائدة بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين مجموعة من الأفراد . بل يجب على الباحث الاجتماعي أن يركز على الجوانب الوجدانية عند اهتمامه بالجوانب الكمية في شرح وتفسير الظاهرة الاجتماعية . وجدير بالذكر أن البيانات الإحصائية قد لا تتوازن وأهميتها على كل حال . فلو أن الباحث الاجتماعي يأخذ البيانات الإحصائية التي تم تجميعها وتبويبها وعرضها وفق الشكل الاجتماعي لجمهور البحث ، حتى يتسنى له تحليل بيانات الإحصائية في مجال بحثه ، لوجد أن أهم ما يواجه اليوم في عمل الباحث الاجتماعي هو تعامله مع البيانات الإحصائية الجاهزة التي يحصل عليها من بعض المؤسسات والسجلات الرسمية وغيرها ثم عرضها بصيغة تتعارض أحيانا مع البيانات الإحصائية دون الاهتمام بمجموعة الاعتبارات المتعلقة بالبيانات الإحصائية [1] . فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقدم الباحث نتائج دراسته ما لم يتعامل ويتفاعل مع جمهور البحث الخاص بالدراسة ، لأن معظم الأسئلة الاجتماعية التي يقوم بها ويلاحظ دون التعامل

---

[1] يرجع في الاستزادة الى موضوع تحليل البيانات الإحصائية :
Selltiz C. And others . Research Methods in Social Research 1959 PP. 317 — 343 .

والتفاعل بين الأفراد في مواقف ومستويات اجتماعية ، والتأكيد على البيانات الاجتماعية فيما يتعلق بقضايا مثل الزواج وعلاقات الجوار لا يعني أي تداول اجتماعي إلا إذا فهم الباحث المقصود من هذه القضايا ومعانيها وما تدلانها الاجتماعية في الإطار الثقافي للمجتمع ، حيث إن التداولات الاجتماعية لموضوعات قد تبدو بسيطة مثل قضايا الجلاق وغلاء المهور ، تختلف من منطقة لأخرى ، بل بين أفراد المجتمع الواحد ، كما تختلف من مجتمع لآخر .

إن مهمة تفكير عالم الانسان الاجتماعي لا تحصر فقط في تسجيل وملاحظة التصرف الاجتماعي للأفراد المجتمع بما ينتج عنه من أحداث وسلوكيات اجتماعية يقدر ما هي معايشة الأحداث والمواقف الاجتماعية ، وما يجدر الاشارة اليه أنه بالرغم من أن للتغير أهميته البالغة باعتباره من أهم مواضيع دراسة العلاقات الاجتماعية ، فإن الباحث الاجتماعي يهتم بالدرجة الأولى بهذه القيم قبل دراستها وتحديد المكونات والعناصر التي تجسد التغير الاجتماعي وصلتها بطبيعة العلاقات الاجتماعية ، فلا يمكن بطبيعة الحال مثلاً أن نتصور نوع المعتقدات التي يعتنقها مجتمع ما قبل دراسة وتحديد هذه المعتقدات وبنائها ، والأسس التي قامت عليها ، على الرغم أن بعض المستشرقين يعتبر الانسان الاجتماعي الذي قدم دراسات وقدموا كتابات عديدة تخص الأديان والمعتقدات البدائية ليس بمقدوره في إطار هذه الدراسات الجوانب الدينية والمعتقدات ومعانيها الاجتماعية ودورها في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع [1] ، فعلى سبيل المثال لا الحصر كتب المفكر ديل فورد D. Forde في مقدمته لمجموعة من المقالات لعدد

S. Ozmon , The Social Structure of Al - Aklyar Township (A) Unpublished Ph. D Thesis , Manchester University , Manchester 1973 - Chapter 6. PP. 261 — 263 .

من مشكلي علم الانسان الاجتماعي عن عديد من المجتمعات ، كانت أغلب هذه الدلالات والبحوث تدور في حلقة مفرغة ، حيث كان اهتمامهم منصبا على آثار البيئة المحيطة في تحديد المعتقدات الدينية ، غافلين الطرق عن الوظائف الاجتماعية لمعتقدات دينية وتركوا جل اهتمامهم عن المكونات الجوهرية لهذه المعتقدات بدلا من الاهتمام بالافراد الذين اعتنقوا هذه المعتقدات والطريقة التي ينظمهم الى ذلك [1] ، وهذا تأكيد ايفنز بريتشارد Evans - Pritchard في مقدمة كتابه : Nuer Religion

المعتقدات الدينية لقبائل النوير بجنوب السودان حيث كانت آراؤه صورة مثل للاعمال التي كتبوا في هذا المجال من قبله : هي أساس دراسة المعتقدات والاديان لشعوب التي اعتبروها بمثابة آدناك ، وليس على اعتبار المعتقد دالة من دوال في بناء المجتمعات والاديان والمعتقدات التي يعتنقونها [2] وبالرغم من وجود بعض الاستثناءات الهامة في هذا الكتاب من الوظيفية أو علاقة بين الفرد والمعتقدات التي يؤمنون بها ، إلا أن هذه التصورات لم ترد الا عرضا في بعض كتابات هذا الرجل .

من الانتقادات التي توجه على مثل هؤلاء الكتاب — بالرغم من تقديرهم رواد ومؤسسين علم الانسان الاجتماعي — هو دراستهم لهذه المعتقدات بصورة مظاهر أو جوانب في حد ذاتها ، وليست تنويعا للمجالات الاجتماعية ، فبرغم من أن الفرد في المجتمع له دور في تنظيم وتكييف نفسه مع افراد مجتمعه — إذا كان فردا سويا — يجب عليه ايجاد نظم معين وراءه ، إلا أنه كثيرا ما يخرج عن حدوده وجوهر الدين الذي يعتنقه .

---

[1] Evans — Pritchard : Nuer Religion , Oxford , 1956 , PP. 13 — 27

[2] D. Forde (Ed.) African Worlds , London, 1954 , PP. 1 — 2

رأينا سلفا أن مهمة علم الانسان الاجتماعي تتحدد في دراسة العلاقات الاجتماعية السوية ، وأنها ـ أي العلاقات الاجتماعية ـ تعبير مجرد يخرج بحد التعريف الاجتماعي للأفراد ، ويتسم هذا التعبير المجرد وفق السلوك الظاهري ـ أي الجوانب الملموسة في الحياة اليومية ، والجوانب التي تتعلق بالأفكار والقيم والأخلاق والالتزام ، وبالرغم من أن هذه الجوانب الأخيرة تعتبر جزءا لا يتجزأ من السلوك الاجتماعي ، الا أنها غير ملموسة ـ أي كامنة لا تظهر للعين المجردة إلا في صورة قيم وأفكار مثلى قد لا تتطابق مع وقائع الحياة الاجتماعية ، وهذا بلا شك ذات دلالة اجتماعية لأفراد المجتمع ، أما إذا انسجمت الجوانب المتعلقة بالقيم والأخلاق مع وقائع السلوك الظاهري يمكننا القول بأن نوعا من الأيديولوجية الاجتماعية قد تحققت للمجتمع ، وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال الا بتحول أصيل داخل المجتمع بهذا النوع من السلوك الاجتماعي حتى تكون الأيديولوجية المثالية ، وبمعنى آخر فان الحياة الاجتماعية هي مزيج من الأعمال (الوقائع) والأفكار (المثل) ، فالجانب الأول له نتائج ملموسة وظاهرة ، والجانب الثاني له معنى أو قيمة ، وهنا تتحدد مهمة مفكر علم الانسان الاجتماعي في التعامل مع كلا الجانبين اللذين بطريقها يستطيع أن يعرف ويحلل النظم والأنساق الاجتماعية الموجودة في المجتمع فنظام القرابة مثلا Kinship System يتمثل في مضمونه نوعا من المواقف والاتجاهات والالتزامات كالاحترام ، والسلطة ، والعصبية ، ويقوم بدور التنسيق الاجتماعي للعلاقات الاجتماعية بين أفراد العشيرة أو القبيلة ، بحيث إذا خرج أي فرد من الأفراد عن النسق المثالي يعتبر الأفراد العشيرة أو القبيلة أزال الطمأنينة عنه مأثما ومعنويا .

من الأمور الهامة التي يجب على المتخصص الاجتماعي دراستها عند

ضامه لأي دراسة مبدائية في أي مجال من المجالات أو لأي نظام من الأنظمة : أن يلم بالحقائق والوقائع المراد دراستها قبل القيام بعملية التحليل . وبالرغم من أن الوصف والتحليل متلازمان لأي دراسة مبدائية إلا أنهما قد تتوقان الباحث إلى مقاصات كثيرة وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية . وعليه — أي الباحث — أن يحدد الطريقة التي سيتبعها في تحليل بياناته ، وتحديد نوع الدراسة وصفية كانت أو تحليلية أو كليهما معا . فالدراسة الوصفية عادة ما تكون عبارة عن نظام من الأنظمة الاجتماعية في إطار عام ، بينما الدراسة التحليلية هي طريقة أو منهج يتخذه الباحث لتعامل مع الوقائع والحقائق الاجتماعية ، وتعتبر أكثر تحديدا وتعقيدا من الدراسة الوصفية . إلا أن الباحث قد لا يجد مفرا من تطبيق المدخل الوصفي على المجتمع البحوث وخاصة عندما يشير إلى الدراسات والمعلومات التي تخص المجتمع المدروس . وبالرغم من ذلك فإن الدراسات الوصفية لا تعتبر في حد ذاتها من عملية التحليل ، إلا أنها عادة ما تكون محدودة . وبإمكان الباحث تطبيق النظرية التي تتلاءم مع طبيعة ونوع الدراسة حتى وإن كانت وصفية Descriptive . فاستخدام النظرية يحدد للباحث نوع الوقائع والحقائق التي يؤكد عليها من خلال دراسته الوصفية لمجتمع البحث ، وأيضا تجعله يلتزم بطريقة معينة في ربط الوقائع والأحداث ببعضها البعض [٢٣] .

والجدير بالملاحظة هنا الإشارة إلى عملية التعميم التي يصل إليه من خلال دراسته لأي نظام من الأنظمة السائدة في المجتمع ، وأما الأهم من ذلك تحديد مجال وموضوع الدراسة والنظرية أو المدخل المراد تطبيقه . ومن الضروري بمكان أن يتقيد الباحث بقدر الإمكان على

---

[٢٣] ... et al., Research Methods in Social Relations, (New ... : pp. 480 — 491 .

العربية والوطنية ، حيث أن المجال الذي يحتاجه البحث الدراسة و البحث عادة ما يكون غير مألوف أو جديد ، وهذا يعني أن حكم الباحث ورأيه في هذه الموضوعات يعتبر مشتقا ضمنيا من ثقافة مجتمعه ، وبالتالي فقد تعوده نتائج البحث الى المغالطة وتشكيك الآخرين في نتائج هذه الدراسة ، وبما يدعم نتائج البحث الاعتماد على بعض المداخل النظرية الواضحة والصريحة وخاصة أثناء عملية تحليل البيانات ، بالاضافة الى وجود التوافق والتطابق بين نوع الأسئلة التي يقوم الباحث الاشرو بولوجي بتقديمها والاجوبة التي يقوم بتحليلها فيما بعد ، وان يتجنب التعارض بين نوع الأسئلة وطبيعة المواقف الميدانية .

تعددت الطرق المنهجية واختلفت في تحليل البيانات الميدانية ، كما تعددت المداخل النظرية وتطبيقاتها في مجال علم الانسان الاجتماعي ، ويرجع هذا الاختلاف الى طبيعة المجتمعات البشرية : فمنها المجتمعات المتحضرة ، ومنها البدائية أو الاستوائية ، ومنها المتقدمة صناعيا ، الا أن العامل الذي تميز به تحليل البيانات الميدانية هو طابع المغالطة ، ويرد ذلك الى التباين الثقافي الموجود بين الباحث وبين مجتمع البحث وعدم المام بثقافة المجتمع وألسنته ، ويرجع ذلك أيضا الى الصعوبة وعدم تحديد مجال الدراسة الميدانية ، فالبحث الميداني هدفه الاساسي دراسة المجتمع الذي حدد للدراسة من جميع الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية ، وقلما نجد في الدراسات الميدانية التي أجريت جوانب محددة للدراسة ، بل ما نلاحظه في كثير من الدراسات والمؤلفات هو شمولية الدراسة على الانظمة السائدة في المجتمع في فترة زمنية وجيزة جدا ، فبالرغم من تعدد عناوين المقالات والمؤلفات التي جاءت نتيجة لدراسات ميدانية كثيرة ، الا أن الدارس لمثل هذه المؤلفات يجد بين دفاتها نفس المجالات والموضوعات ، وبالرغم من تعدد فروع العلم وتنوعها ، الا أنه ما زالت للبحث الميداني

الاجتماعية ، أو السياسة بدلا من التركيز على الجانب الاجتماعي ، كما لاحظ أيضا أن هناك تعددا من بعض الفروع مثل علم الانسان الاقتصادي Economic Anthropology الذي نجده يهتم في كثير من الأحيان بدراسة الأنظمة الاجتماعية والسياسية والدينية ، في حين أن هذه المجالات هي مجال علم الاجتماع الاجتماعي ، وعلم الانسان السياسي ، وعلم الانسان الديني .

ولا ننكر أن دراسة الأنظمة يتطلب بعض التكوين ما يسمى بناء أو التركيب Structure ، كما لا يمكن أن ننكر ارتباط الفروع بعضها ببعض لتكون ما يسمى بعلم ، ولكن ليس بالدرجة التي أشرنا غليها ، فهناك علوم تتعدى مجالات الفروع الأخرى سوف لن تؤدي الى بناء تصور علم الانسان الاجتماعي بقدر ما تقوم به من عدد وتشكيك في كثير من فروع هذا العلم ، ومن الأمثلة التي توضح بعض هذه الفروع هو ما ورد في مقالة مترجمة لدائرة في ذهن شاتل الباريسي والمصرين بعض الأوراق البردية والأحاديث النبوية ، التي لم تكن لا اشتقاقا لبعضها بعض وأثرا بعضها ببعض ، ولا يمكن أن يعادل علم الانسان الاجتماعي بحسبه وجهه الخير الوجيهة البسيطة ، وأيضا يشركه في ذلك علم الاجتماع الديني ، والسياسي ، والاقتصادي ، وكثير من فروع العلوم الاجتماعية الأخرى[12] ، وقد أشار أحد مفكري علم الانسان الاجتماعي الى أن وظيفة

---

12 - [illegible] في تعدد هذه الفروع بالرغم من كونها تتداخل في كثير من المجالات ، الا أن البعض يعتبر هذه الدراسة تطورا لعلوم الاجتماع ، في حين أني أرى أن هذه الدراسة ما هي الا وسيلة لا غاية . أنظر ، محمد بدوي الدين ، دراسات في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بنغازي ، ص [illegible] .

التحليل في دراسة معاني حديثه الى ما هو موجود ، ويعني آخر تفسير تحليل الوقائع الاجتماعية والسلوك الاجتماعي بما يلائم وظروف البيئة والمجتمع ، ومحاولة اظهر هذه الوقائع الى شيء شبه محسوس كما هو الحال النسبة للعلوم الطبيعية التي تسير وفق قوانين علمية بدرجة من اليقين والتنبؤ عن المستوى العلمي والاجتماعي ، فنقد شيء ما ـ سواء كان هذا الشيء واقعة أو ظاهرة اجتماعية ـ معناه جعله في اطار محدد للعلاقات متبعدا كل البعد عن بقية العلاقات الاخرى التي تحيط بتلك الوقائع الاجتماعية الاخرى سواء بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي أو علم الاجتماع[1] .

تعتمد الطرق المنهجية بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع على ربط الاشياء بعضها ببعض بدلا من تجزئتها ودراستها كأشياء ذاتية بذاتها ، فقد درسنا مثلا نظام الزواج في مجتمع من المجتمعات فاننا بالضرورة سنتعرض الى مفهوم اسم Bridewealth وتعني : الثروة التي يدفعها اختيار الزوج أو أسرته والعدادات والقلائد الثمينة والنقود لهذا الغرض ومعلولاته الاجتماعية ، وقد أود أن أركد عليه هنا أن جميع التفسيرات لنظم ظاهرة أو واقعة اجتماعية تعتبر في حد ذاتها ـ غاية

---

[1] ـ ولقد حدث تحولات الدول العربية ودور العلماء الذين حضروا الى بعض قسول دراسية لفرع من الفروع ، أمر المتحمسون من أن تكون فروعا دقيقة بقدر ، حاولوا بشتى من ذلك في حدود العلم أن يحضروا لنا شرحات مبسطة لمبروث معقدة من خلال فكر إسلامي مستنير ، اكتسبوا بها تقدمية علمية غير مجدية بها دلال الأمثلة . وليتنا عند دراسات العلوم الاجتماعية نركز هائلا في تحقيق الأمرين من هذا السرد ، وعليه وتنبي أساء في أن تكون بعض أعمال الأكاديمية مستقبلا كتحليل ابن خلدون ، ومالنوفسكي ، وأدوارد إيفانز ، وجورج مندرس ، وإيان سوتر ، وجامعة في مجال النظريات الاجتماعية .

S. F. Nadel, The Foundations of Social Anthropology. (1) London, 1951 ; Chapter 2

على الاقل ـ ادراج هذا الشيء أو الواقعة الاجتماعية في اطار نظري محدد ، ومن المتفق عليه ان عملية التفسير تتضمن ذلك الاطار النظري الذي يحدده البحث وفق نظريات ومداخل اجتماعية متعارف عليها ، بعد أي عملية ادراج الخاص تحت اطار العام حتى يمكننا القول بأن الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية قد فسرت وحللت الى عناصرها في اطار كلي شامل يجب لا تخرج هذه التفسيرات والشروح عن ثقافة ونظم المجتمع الذي قام الباحث بدراسته ، فاذا خرج الباحث عن هذا الاطار (أي الاطار الكلي للثقافة المجتمع) فيجب أن يكون خروجه هذا من أجل المقارنة فقط Comparation ، وذلك بغرض التمييز بين ثقافة مجتمع وآخر ، أو بين نظام من الانظمة المدروسة حتى تتحدد عملية التماثل أو التباين من عدمه .

ان الامور التي يجب ان يأخذها باحث علم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع في الاعتبار ، عند القيام باي دراسة مقارنة ، هو مقارنة موضوع الدراسة بالانظمة المشابهة والتي لها علاقة بموضوع الدراسة سواء كانت ميدانية أو مكتبية بدلا من مقارنتها بالانظمة التي تختلف اختلافا جوهريا عن موضوع الدراسة الذي حدده البحث ، والتي قد تختلف الى حد كبير بمدلولاتها ودلالتها الاجتماعية ، فلا يمكن لاي باحث يجعل الدراسات المقارنة في ميدان البحوث الاجتماعية ، التي طريقتها يستطيع الباحث تحديد اكثر موجه تشبه الانظمة المشابهة والكشف عن العوامل والمسببات التي ادت الى مثل هذا التشابه ـ سواء كانت مادية ، معنوية ، أو بيئية ـ ليس بسبب تشابهها سطحيا أو عرضا ، ولكن لابد توجيهها والتي تعبر بالمفهوم الاجتماعي ذات أهمية بالغة قد تكون كامنة في النظام الاجتماعي والتي قد لا يستشعرها الباحث لا يجرى المقارنة ، ان اشياء كثيرة قد يستفيد منها البحث الاجتماعي عند دراسة لمفهوم القرابة Kinship ومدلولاته الاجتماعية في مجتمع بدائي مثلا ومقارنته بمفهوم القرابة ومدلولاته

الاجتماعية في منطقة خارج منطقة بنفاري ، وقد تكون الاستفادة أكثر عند مقارنته باحدى دول الوطن العربي بدلا من مقارنته بنظام القرابة الموجود في احدى دول أوربا أو الامريكيتين حيث ان الاختلاف في هذه الحالة يعتبر جوهريا ، سواء من حيث تركيب النظام ذاته أو مدلولاته الاجتماعية وتطبيقاتها ، وهذا بطبيعة الحال له اعتبارات جديرة بالاهتمام والتنبه لمفكري علم الانسان الاجتماعي ، فاذا قام الباحث بدراسة بعض الانظمة لمجتمعات تختلف ثقافتها كلية ، فان الشرط الاساسي لقيام بمثل هذه الدراسات هو إلمامه وفهمه لثقافات هذه المجتمعات في أطرها البيئية والاجتماعية ، وعليه أن يكون حذرا اثناء مقارنته لانظمة مختلفة اختلافا جوهريا ، وهذا لا يعني أنه يحظر عليه القيام بذلك ، أو ان مثل هذه الدراسة ستكون عقيمة النتائج أو مملوءة ، لكما ذكرت أن الشرط الاساسي لقيام بمثل هذه الدراسات هو توفر الاستعداد التام من حيث الالمام بثقافات المجتمعات الخاضعة للدراسة والمقارنة ، وفي مقدمتها نظم تلك المجتمعات ، فالالمام بلغة يعتبر اساسا ومدخلا لفهم الانساق الاجتماعية ، والتي تكون نتائج الدراسات الميدانية ذات فعالية وفائدة لا ينكرها أي متخصص اجتماعي .

ان الامر الذي دعاني الى التأكيد عن الالمام بلغة وثقافة المجتمع الخاضع لدراسة هو تلك الدراسات العقيمة التي قام بها بعض المفكرين من دول أوربا والامريكتين لبعض مجتمعات العالم الثالث ، والمطلع على مثل هذه الدراسات يشعر بالفارق الكبير للنظم أو الانساق الاجتماعية السائدة التي يمارسها المتخصص الملم بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه وتلك التي درست ووصفت عن طريق بعض الدارسين الاجتماعيين الذين أمضوا شهرا واحدا وجيزة لا تؤهلهم حتى للالمام بالحروف الابجدية للغة المجتمع ، وفي الوقت نفسه يتجرؤون على حساب العلم والانظمة التي اقترضوا أنهم يدرسونها دراسة علمية موضوعية ـ والتي لا تعدو في واقع الامر الملاحظة

[illegible] الكتاب في موضوعات ومشاكل اجتماعية هي في حقيقة الأمر بعيدة كل البعد عن الخصائص والصفات التي أضفاها بها أمثال هؤلاء. فهناك مرسومات وصور تكشف عن براعتها وتكاملها فيما يتعلق من قبل المتخصصين الذين درسوها في هذه الأشياء وأكسبوها الدقة العلمية التي تعتبر من أبرز مميزاتها. والعجب في الأمر أن نجد مثل هذه الدراسات والبحوث تجد رواجاً ولجاناً ومؤسسات علمية فاتحة أبوابها لتدريس ما جاء في هذه الكتب السقيمة بدلاً من تمحيصها وتصحيحها[15].

لقد ساد الجدل والاختلاف بين مفكري علم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عما إذا كان هناك نوع من القوانين التي تسيّر وتنظم الأنظمة والعلاقات الاجتماعية السائدة في مختلف المجتمعات البشرية، ومدى إمكانية الوصول إلى اكتشاف قوانين مسيرة وناظمة لمجتمعات البشرية من خلال الأنظمة السائدة فيها. وهناك بعض المفكرين المعاصرين يعتبر الانسان الاجتماعي من رأى أن هذا العلم يمكن مقارنته ببعض العلوم الطبيعية مثل علم الأحياء وعلم الكيمياء[16]، وبالتالي يمكن أن نتوصل إلى اكتشاف بعض القوانين الاجتماعية التي يجوز استخدامها في تنظيم العلاقات الاجتماعية. ومن المفكرين من ينظر إلى أن هذا العلم (علم الانسان الاجتماعي) هو عبارة عن علم يجمع مادته من التاريخ والفلسفة الاجتماعية.

---

(15) ليس القصد من ذلك التعصب لعقيدة الأمة، فجميع الدارسين والمختصين والمفكرين يؤكدون على عمومية الثقافة، وأن ليست مقتصرة على مجموعة دون الأخرى أو مجتمع دون الآخر، ولكن عمومية الثقافة لا تعني أن تأخذ جميع ما تكتسب على حساب العلم والمعرفة.

(16) C. Levi – Strauss, "The Structural Study of Kinship", 1950, PP. 4 – 7

[illegible] فكرة دراسة هذا النوع [illegible] والذين اكتشفوا [illegible] اكتشاف قوانين خاصة تحكم نظم الأسرة الإنسانية وتحدد [illegible] العلاقات الاجتماعية السائدة في شتى المجتمعات الانسانية . وسيستمر هؤلاء في محاولاتهم لاكتشاف القوانين الاجتماعية في عالم الانسان الاجتماعي فقد رأى بعضهم أن جميع العلوم الاجتماعية وفي مقدمتها علم الاجتماع[١٧] .

لقد رأى أصحاب الرأي المعارض لفكرة اكتشاف القوانين الاجتماعية وخاصة في دراسة الأنظمة والعلاقات الاجتماعية أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نجد وتعيين أي نوع من القوانين وضعه أيا يتمشى بدراسة العلاقات الاجتماعية لكونها معرضة وأنه يتعذر تطبيق أي قانون معين على نوع السلوك الاجتماعي Social Behaviour لأن هذا يحد من حرية واختيار الإرادي الفرد في التجربة وأكدوا بقولهم : أن الانسان الاجتماعي في كثير من الأحيان والمواقف يحدث تلقائيا منطلقا من القيود والنواحي الاجتماعية والأعراف حتى يرد أفراد المجموعة التي تربطه صلات قوية وقرابة . كما هو الحال عند تفسير تلقائية Propose واختيار الزوج أو الزوجة خارج حدود القرية حيث تكثر فيها زواج نظام الزواج المتبع في مناطق أو بيئات أخرى Principal Family أو العشيرة Clan في المجتمعات البدوية بالرغم من أن هذه الجماعات Blood — Money البدوية ذات اهتمامات اجتماعية مشتركة مثل دفع الدية

---

(١٧) إن هذا الاختلاف بين الرأيين [illegible] اختلافا جوهريا بين الباحثين في دراسة الظواهر الاجتماعية في المجتمعات المختلفة ، ويمكن أن نعزو فكرة اكتشاف القوانين وتطبيقها في مجتمعات كلا الرأيين لم يوضحا المقصود بمفهوم العلوم الاجتماعي من حيث دراسة وظيفتها ، وتصورات أنصارهم بأنها تسلك مسلك العلوم البحتة كل الدقة في مجال علم الانسان الاجتماعي الذي يتجه الى عد كثير من الموضوعات الاجتماعية تتشابه تماما مع الرأي في تفسير الأنظمة والعلاقات الاجتماعية .

تجرهم الى سوء فهم طبيعة المعرفة ، فالفكر يقف على أن التصرف الارادي ينبع من حرية التجربة ، فالفرد في المجتمع له حرية التصرف والاختيار ، وقد تحدى في كثير من الاحيان والمواقف تلك القوانين والانظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أوجدتها البيروقراطية النظم المنتمة ، ويقسوم واقعنا وجود أفعال قسرية يعتبرها البعض ضروريا من بيروقراطية النظم السائدة في المجتمع ، وبمجرد أن يوافق الفرد في تحديده لبيروقراطية الانظمة ـ التي لا تعتبر أو لا تزيد عن كونها ايديولوجيات ـ تعتمد على وجودها مجموعة من الافراد من خلال ممارستها للحكم أو سلطة بيروقراطية ـ تتضح بعد ذلك بيروقراطية الانظمة وتجسد حرية التصرف الارادي والاختيار[٩١] .

ان جميع الانظمة التي ابتدعت في الدول النامية والصناعية بحجة تنظيم العلاقات الاجتماعية والانسانية هي اهم مقتنيات ذات طابع سلطوي ، وهما وجدت من أنظمة بيروقراطية فحيثما تبدأ على فروض وتكهنات لا علاقة لها بالفكر الاجتماعي ، والتاريخي عبارة عن فروض حتمية مفروضة بحكم وجود السلطة الحاكمة أو طبقة الحكم ، والرغم من ذلك فان الفرد لا ينكر وجود بعض الانظمة التي تسير تصرفاته الاجتماعية وعلاقاته مع غيره من الافراد شريطة خلوها من البيروقراطية ، ويشترط في هذا النوع من الانظمة التي تمثل لا تتعارض مع طبيعة العلاقات الاجتماعية أو بمعنى آخر وضع حد اجتماعي لها ، ولكي تكون هذه الانظمة ذات

---

(٩١) لا يتأتى هذا التأثير الا بطريق مجموعة من الافراد تستمد سلطتها البيروقراطية على جميع مستوياتها هي قوة الدفع الوحيدة التي تحد من حرية التصرف الارادي ، ولكي يتم تحطيم بيروقراطية الانظمة ، لا بد أن تتسم هذه المجموعة من الافراد بالطابع القيادي بدورة الامر ، ومن ثم يمكن للجماعة القيادية من زوال بيروقراطية الانظمة ، بعد أن تحتكر وظائفها بعد ذلك في دور الاشراف والتوجيه .

دلالة اجتماعية معينة . يجب أن يشارك جميع أفراد المجتمع في معتقداته والالتزام بها ، حتى تستقيم عليه الرموز وتعمه الشهور .

ويرى أغلب مفكري علماء الاجتماع في دراستهم وأبحاثهم بأن مجتمعات الأفراد في المجتمعات البسيطة وذات الدرجة البدائية المتقدمة ، وكان من الأجدر أن يسموا بالقبائل تشرفت الأفراد الإرادية وتوجه العلاقات الاجتماعية بدلاً من تشجيع وتحليل التشرف الإرادي ، إذ وجد من خلال الأنشطة السائدة ، بين تركوا وهذا سلوكية الفرد وعلاقاته الاجتماعية بغيره ، وتعتبر الأسرة القبلية هي المحددة لسلوكية الفرد في المجتمع ، مثل انتمائهم بسلسلة نسبهم القبيلة ، وتلك الوثائق التي تؤكد على الزواج القبيلة ، ومفهوم القبيلة ، ومفهوم الشرف ومفهوم القبيلة وأن ذلك على العلاقات الاجتماعية ، وتدخلوا عليه لتقاليد الأسرة في تحديد العلاقات الاجتماعية مثل الزواج والطلاق ، والميراث ، واستغلال موارد الأرض ، درجة أنه في بعض المجتمعات البسيطة والثانية على عدد سواء جدان تشرفت الإرادي للفرد في المجتمع مكتفين بين عدد للأمر .

لقد كان ولا زال الدين القبيلة الدافع الكبير على تشريعات الإرادية للإرادة ، وهي تلعب في ذلك دور عدة تعرف الفرد في ماكينة يعيد إليها قبلية ، وأن القبيلة وحدة متجددة Social Unc لا تحيا ، ولو بقي الأمر عند هذا الحد ، بل توجد وثيقة تنظيرية قبلية تنص بتحديد الزواج داخل القبيلة التي سنها ، تاريخ القبيلة ومعاونته يستند على وجود رابطة السلف Ti Blood سواء كانت هذه الرابطة قريبة أو بعيدة Patrimo . ويدعن بأن هذه الوحدة الاجتماعية (القبيلة) هي كيان اجتماعي Social Entity لا يمكن تقسيمه ، ولا مكان لجماعة لأي تدخل معه ، والحقيقة هي تكمن ذلك تماماً ، والغرض من تحديد

الأدبي ، بل لغيرها قوانين وقواعد تنظيمية ، عديدة لا جدال فيها ، ولم يخطئ في الاعتبار أن الفرد في المجتمع عرضة لمسايرة كل جديد يطرأ عليه لكي يحدث عملية تكيف الاجتماعي Social Adaptation وذلك إذا أراد ، في كل يوم يحدث تغيرات اجتماعية في سيمة علاقاته مع غيره من الأفراد . فكما هو متعارف عليه أن الفرد يغير سلوكه في الحياة (Daily Life) . وأي طريقة أي مجتمع ما فإنه البيئة الجغرافية تتطور وتتغير وتتغير ، وعلى الفرد مسايرتها لكي يعيش ويتعايش معها .

من بين المفكرين الذين أصلوا حركة التغيير والتجديد راد كليف ـ براون (A. Brown) ، الذي أكد في كثير من كتاباته ومخططاته أن هذه المفاهيم مرتبطة بالمجتمعات الراقية (State) ، وأن هناك نوعا من الشيوعية في طبيعة الحياة الاجتماعية تجعلها مجموعة من الأنساق والنظم الاجتماعية ، واعتبره الكثيرون من المفكرين بأنه أول من حدد وجعل لعلم الأنساق الاجتماعي قوانين علمية[٢٠] ، إلا أن مجهودات راد كليف ـ براون وأتباعه لم تتعد مجرد الأحكام والآراء التجريدية التي توصلوا إليها نتيجة للمجادلة الفلسفية في النظرية الوظيفية ، التي لم تحاول تفسير أي شيء ـ بل عبروا عن تفسير النظرية الوظيفية نفسها ، فالقانون العلمي ليس هو مجرد عرض لأفكار تجريدية وإنما هو تلك التركيبة الخاصة التي تفسر بنفسها الأنشطة الموجودة في المجتمع ، وليس هو استدلال أو استنتاج لمجموعة من الآراء والأفكار الموجودة ، وليس استقراء للحقائق تجريدية وإنما هو ـ أي القانون العلمي ـ تقرير نظرية حسية أو مدخل علمي جديد . وما تعنيه النظرية أو المدخل النظري من تفسيرات

---

(٢٠) يرجع هذا الفكر لفكرة الفرد والشيوعية إلى الفيلسوف الهندي (لاوتسو) الذي أوجدها الاستعمار في المجتمعات البسيطة التي عاصرها راد كليف ـ براون وأتباعه الذين ساندوا وقاموا بدراستها .

والزواج علاقة لا يمكن تعميمها ، حيث إن هذه العلاقة Generalization تحتاج إلى مواقف وظروف اجتماعية معينة بزمان ومكان ، فالعلاقة الاجتماعية المشروعة ، والتعاقدية الكائنة بين الزوج والزوجة مثلاً في مجتمع ما لا يمكن تعميمها على كل المجتمعات ، حيث إنها تختلف باختلاف الأنظمة وسيد المجتمع ، ففي المجتمعات الشيوعية نجد أن عقد العلاقة غير منصوص عليه بالدرجة التي عليه في الوطن العربي وبدول العالم الثالث ، حيث إنها في الأولى علاقة مفتوحة ، بينما في الثانية تعتبر مقدسة إلى حد كبير ، ولتدارس لهذين النوعين من العلاقات الاجتماعية لا يمكنه بأي حال من الأحوال تطبيق مدخل نظري واحد ، لأن ذلك يطبق على نوعية العلاقة الاجتماعية الأولى لا ينطبق على الثانية ، وعليه تحديد مداخل نظرية تتعامل مع كلا النوعين من العلاقات الاجتماعية المشروعة وغير المشروعة حتى يمكنه الوصول إلى درجة المقارنة العلمية بين كلا النوعين من العلاقات الاجتماعية ، لأنه يتعامل مع مواقف اجتماعية مختلفة ، ونشأة قرابي مختلف ، وأنظمة اجتماعية متغايرة .

المراجع والمصادر :

Evans — Pritchard , E. E. 1956 , **Nuer Religion** Clarendon Press Oxford .

Forde , C. D. , (Ed.) 1950 **African Worlds** Oxford University Press for the International Journal of African Institute , London .

Fawcett , S. M. 1977 **The Social structure of Al — Abiyar Township** . Unpublished Ph. D Thesis , Manchester University , Manchester .

Leach , E. R. 1954 **Political Systems of Highland Burma** London .

Lévi — Strauss , C. 1963 , Social structure in L. Kroeber (ed) **In Anthropology To Day** , University of Chicago Press, Chicago .

Lévi — Strauss , C. 1969 **The Elementary Structure of Kinship** Aleen Press Oxford

Nadel , S. F. , 1951 **The Foundations of Social Anthropology** , The Free Press, Glencoe

Parsons , T. 1967 **Essays in Sociological Theory** , The Free Publication , Glencoe .

Parsons , T. 1952 **The Social System** , Tavistock Publications , Glencoe .

Pitt — Rivers , G. L. 1973 **Aspects of Change in a Kabylia Mountain Village** , Manchester University , Manchester

Redfield , R. , 1941 **The Folk Society** , The American Journal of Sociology No. 52 .

Selltiz , C. and others 1959 , **Research Methods in Social Relations** Henry Holt , New York .

نمو السكان في مصر ائه

د. منصور الكيخيا

ثسير الجمرانيا

نمو السكان في مدينة مصراته

د . منصور الكيخيا

تعتبر مدينة مصراته من أقدم المدن الليبية ، فتاريخها يرجع حسب جذوره الى العهد الروماني ، حيث ورد في بعض المراجع التاريخية القديمة ذكر ميناء (توباستيس) Tupastis ، وذكر ما يتمتع به في ذلك الوقت من نشاط تجاري متبادل مع بعض الموانيء الأخرى على ساحل البحر المتوسط ، كان ذلك الميناء يمثل مركزا من مراكز التبادل التجاري على ساحل الشمال الافريقي التي تعتمد في نشاطها التجاري على تصدير السلع الواردة من وسط القارة الافريقية وشمالها الى موانيء البحر المتوسط ، ويبدو أن ذلك الميناء اضمحل نشاطه كثيرا في العصور اللاحقة ، حيث لا نجد له ذكرا خلال الفترة التي اجتاح فيها المسلمون هذه البلاد ، والدكر اسم (توباستيس) نهائيا ليظهر في تلك المنطقة تجمع سكاني جديد على شكل مدينة تجارية أيضا لعبت دورا نشطا في التجارة مع داخل القارة الافريقية ومع بعض موانيء البحر المتوسط خاصة ميناء البندقية التي كانت تستورد منها كميات كبيرة من الزيت والصوف ، وتصدر اليها الأدوات الزجاجية والأسلحة والأقمشة وغيرها من الأدوات المصنعة .

ان نواة مدينة مصراته الحالية يرجع تاريخها الى تلك الحقبة من العصور الوسطى ، وكانت مدينة مصراته القديمة تضم تجمعا سكانيا هاما منذ ذلك التاريخ ولعبت دورا واضحا في أحداث ذلك العصر الاقتصادية والسياسية والثقافية ، وحتى عندما اضمحلت تجارة القوافل مع دواخل

افريقيا . وتدهورت التجارة البحرية مع موانيء البحر المتوسط بسبب نشاط القرصنة والحروب البحرية ، لم تندثر المدينة نهائيا بل استمرت جزيرة كمركز لنشاط التجاري الداخلي بين شرق ليبيا وغربها ، وكانت تمثل كذلك محطة هامة تقصدها قوافل الحجاج في ذهابها وعودتها بين مناطق الشمال الافريقي والحجاز .

ان هذا القدر من النشاط التجاري وبعض النشاط الزراعي الذي حول تلك المدينة لم يمكنها من تحقيق نمو كبير يمكنها من استيعاب أعداد كبيرة من السكان ، ولكنه مكنها على الاقل من الاحتفاظ لنفسها بكثافة لا بأس بها بين التجمعات السكانية الهامة في شمال ليبيا ، وقد عرفت خلال تلك الفترة من تاريخها وخلال الاحقاب التاريخية اللاحقة لها بأنها مصدر لتوزيع المهاجرين الى كثير من مناطق ليبيا ، خاصة المناطق الغربية ، فقد ظهر سكانها في الاعمال التجارية التي مولوها خلال تاريخهم التجاري العريق ، واشتهروا بين سكان المدن الليبية كافة بجهدهم المتميز في هذا المجال ، الشيء الذي حفزهم الى التزوج من مصراته والهجرة الى المدن الليبية الاخرى حيث كان لهم نصيب وافر في تنشيط الحركة التجارية في طرابلس ويسا ونالوت والبيضاء وغريان وغيرها ، هذه الهجرة يمكن اعتبارها أحد العوامل التي أدت الى الانخفاض النسبي في النمو السكاني بمنطقة مصراته خلال فترة طويلة امتد من العصر الاسلامي الاول وحتى منتصف القرن العشرين ولا زالت هذه الظاهرة موجودة حتى الآن وان لم تكن بنفس الحدة والقوة التي كانت عليها سابقا .

تحتل منطقة مصراته ـ حسب الحدود الادارية الجديدة ـ الشريط الساحلي الغربي من ساحل خليج سرت وتوجد في المنطقة شبه الجافة حتى وان الكثير من الواقع في الطرف الشمالي منطقة الجفارة ، وتعتبر مدينة

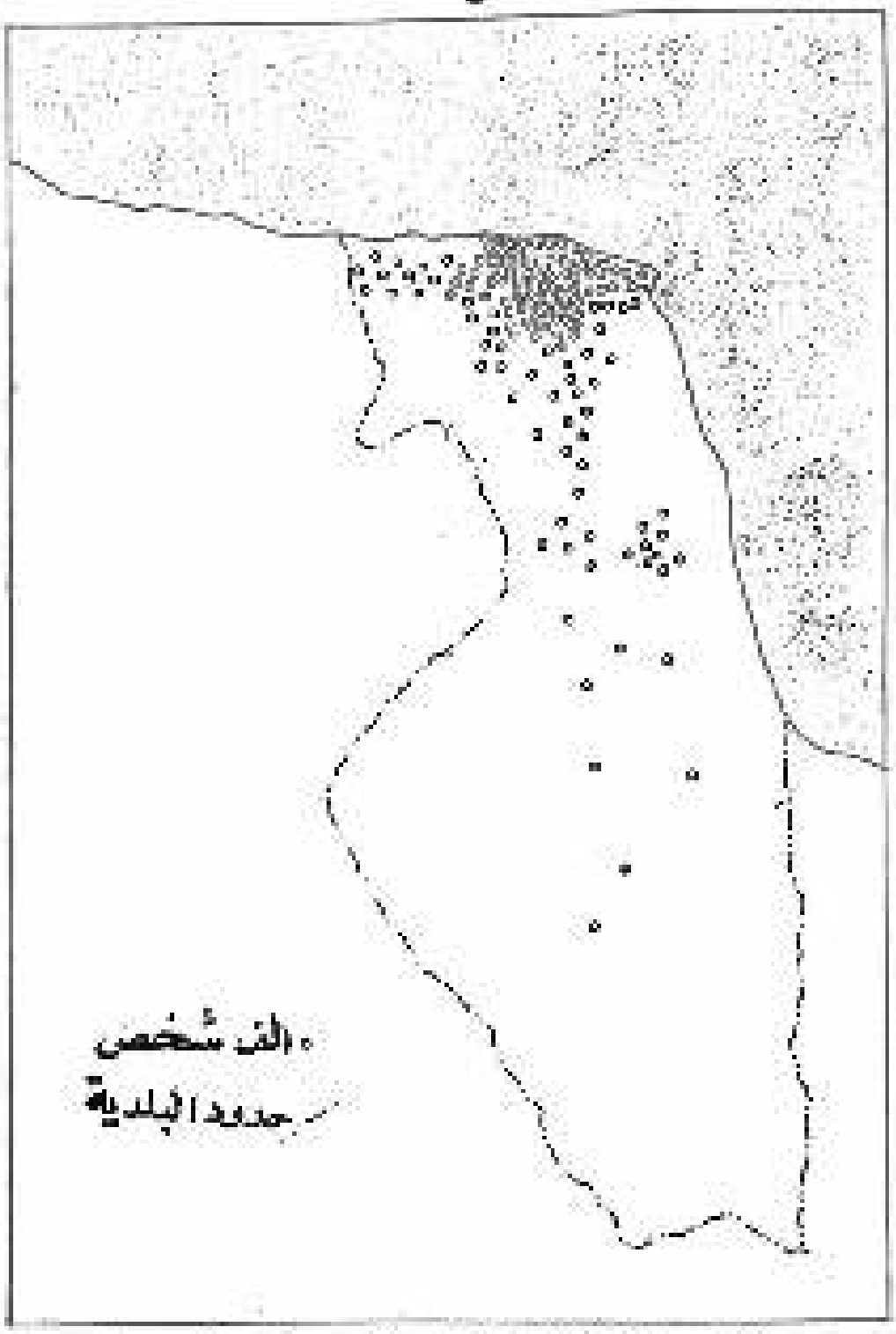
منبسط في أغلبه تتخلله بعض التلال قليلة الارتفاع وبعض مجاري الوديان الجافة ، وتغلب عليه التربة الرملية باستثناء بعض المنخفضات التي تغطيها السبخات في الجهة الشرقية بين ناورغه وقصر احمد ، وكذلك بعض المناطق التي تظهر فيها طبقات الصخور الجيرية على السطح وهي مسحات محدودة ومتفرقة . ويغلب على المنطقة المناخ شبه الصحراوي عدا الجزء الشمالي منها — والذي تقع فيه مصراته نفسها فانه يتأثر بمناخ البحر المتوسط حيث تهطل الأمطار الشتوية بمعدل متوسطه ٣٥٠ مم سنويا (شكل ١) .

وهكذا يتضح بأن غرب المدينة والمناطق المحيطة بها هي الجزء الأكثر ملاءمة لنشاط البشري في المنطقة كلها ، حيث تتوفر بها بعض المزارع المروية بمياه الآبار الارتوازية وكذلك الزراعة الجافة والرعي .

وتعتبر مدينة مصراته السوق الاقليمي الرئيسي لمنطقة الزراعية زيادة على كونها المركز الاداري والسياسي والثقافي والاقتصادي للمنطقة وفيها تتركز الخدمات بمختلف أنواعها ، هذا الدور الهام الذي تلعبه المدينة هو مصدر حيويتها السكانية وهو سبب تطورها كمركز لتجمع السكان واستقرارهم ونموهم ، وخريطة التوزيع الجغرافي للسكان (الشكل ٢) ، توضح هذا الثقل السكاني الذي تتميز به مدينة مصراته وضواحيها داخل المنطقة التابعة لها إداريا .

كنت أود أن تقتصر هذه الدراسة على سكان مدينة مصراته المركز ، أي دراسة المدينة وحدها دون أن تشمل المناطق التابعة لها اداريا والتي تضم جميعها مناطق ريفية ، غير أنني وجدت أن ذلك غير ممكن ، نظرا لأن الاحصائيات السكانية سواء تلك التي تضمنتها جداول التعداد العام للسكان أو تلك التي تضمنتها سجلات البلدية نفسها ، حيث كانت تلك الاحصائيات تحصر السكان حسب الحدود الادارية التي تضم المدينة مع بعض


منطقة حمراء قريبة



توزيع السكان في بلدية مصراته وفروعها

شكل ٢ — ٧١ —

الى من الريفية التابعة لها ، فعندما كانت مصراته مركز متصرفية كانت تدمج دائما مع مراكز المديريات التابعة لها ، وعندما أصبحت مركز بلدية كانت احصائياتها دائما تدمج مع فروع البلدية ، ولهذا ستغطي هذه الدراسة بلدية مصراته نفس المنطقة المحيطة بها من قصر احمد شرقا حتى الدافنية غربا ، ومن ساحل البحر شمالا حتى قرية الكراريم جنوبا ، وبهذا سوف يستثنى من هذه الدراسة منطقتا تاورغاء وأبو نجيم والمحلات التابعة لهما ، رغم من بعضها الادارية لبلدية مصراته وذلك حتى تنحصر هذه الدراسة في أقرب اطار جغرافي متكامل للمدينة .

ان الاحصائيات القديمة لعدد سكان هذه المدينة كان تحريها تقديريا تقريبا سواء في العهد العثماني أو خلال فترة الاستعمار الايطالي ، وهي في نظري تقديرات لا يمكن الاعتماد عليها ، بسبب الظروف السياسية والاجتماعية المضطربة في تلك الحقبة من تاريخ المدينة ، وبسبب عدم وجود امكانيات في ميدان الحصر والتعداد السكاني التي يمكن ان تعطينا تقديرات صحيحة أو حتى قريبة من الدقة (١) .

غير أن أول حصر لعدد سكان هذه المنطقة يمكن الاعتماد عليه نسبيا هو الحصر الذي تم في أواخر سنة ١٩٤٥ م ، أي خلال فترة الحرب العالمية الثانية وهو الحصر الذي قامت به السلطات العسكرية في ذلك الوقت تمهيدا لتقديم بطاقات موزع التموين على كل السكان ، وحسب هذا الحصر بلغ سكان المدينة الذين تمكنت السلطات المختصة من تسجيلهم واصدار البطاقات لهم ٣٠٠٠٠ نسمة منهم ١٢٠٠ من الايطاليين و ٨١٠٠ من المواطنين العرب مع قلة من اليهود ، ومن المفيد ان نلاحظ هنا بأن الفترة التي أجري

---

(١) كانت تلك التقديرات تعتمد على حصر السكان حسب القبائل بواسطة العاملين من أعضاء الموظفين في ادارة الحكم المحلي والمنتمي بعضها الآخر من شيوخ القبائل .

في هذا العصر لعدد السكان كانت فترة عدم استقرار حيث أن غالبية السكان كانوا قد هجروا المنطقة الساحلية بسبب الحروب العربية وتعادل أعدادهم في المناطق الصحراوية الداخلية تقريباً أكثر أهمية لتقسيم السجل . وهكذا يمكن القول بأن عدد السكان الذين سجلوا في تلك السنة هو في الواقع أقل بكثير من العدد الفعلي للسكان في الأوقات الاعتيادية أي قبل وبعد فترة الحرب .

وبما ثبت كذلك أن التعداد العام للسكان لسنة ١٩٥٤ م - وهو أول تعداد عام رسمي للسكان يجرى في ليبيا - أظهر بأن عدد السكان الأجانب بمدينة مصراتة[١٢] بلغ ٧٨٧٥ نسمة .

لا شك أن الفرق كبير جداً بين التعداد السابق الذي تم في سنة ١٩٤٠ وبين هذا التعداد ، ولا يمكن بأي حال تفسير هذا الارتفاع الكبير في عدد السكان تلقائياً بطريق الزيادة الطبيعية وحدها ، فهذا الفرق كبير جداً في السكان حدث في الواقع بسبب عودة الأسر التي كانت قد هجرت المنطقة خلال فترة الحرب أما من الزيادة الطبيعية في السكان فهي دون ذلك بكثير بالرغم من أن المنطقة بدأت تمر بمرحلة استقرار نسبي في سنة التعداد (١٩٥٤) بعد أن عانت الكثير من ويلات الحرب العالمية الثانية ومن الإدارة الاستثنائية البغيضة خلال السنوات التي تلت تلك الحرب مباشرة ، حيث عانت تلك الفترة بكثرة الهجرة من مصراته إلى البلدان المجاورة لها غرباً وجنوباً إلى بعارون ومن الممكن القول أن السكان لم يعودوا إلى مصراته حتى بعد سنة ١٩٥٢ أي حوالي فترة الخمسينات والستينات من هذا القرن ، ورغم من استقرار الحياة نسبياً في مدينة مصراته ، غير أن النشاط الاقتصادي وفي

---

(١٢) هذا الرقم وغيره من الأرقام الخاصة بسكان مصراته تشمل عدد السكان حسب المنطقة المحيطة بها أي مدينة مصراته وما حولها .

بدأت الهجرة على وجه الخصوص كان يحقق ازدهارا أكثر في طرابلس وبنغازي والبيضاء في تلك الفترة فجذب الكثيرين من سكان بصراته الذين نشروا نشاطهم التجاري وعملوا التعلم على أيديهم جزء من النشاط التجاري في أسواق طرابلس وبنغازي والبيضاء وغيرها . ويمكن أن نعتبر هذه الهجرة أحد الأسباب في انخفاض معدل النمو السكاني في منطقة بصراته خلال الفترة ما بين سنة التعداد الأول ١٩٥٤م وسنة التعداد الثاني ١٩٦٤م ، حيث بلغ عدد سكان بصراته ٦٠٥٦٣ نسمة أي بمعدل سنوي متدني بلغ ٢٫٦ فقط ، وهو معدل منخفض بالنسبة لإمكانيته في طرابلس وبنغازي والبيضاء(٣) .

إن بصراته شأنها شأن المناطق الليبية الأخرى عبرت خلال تلك الفترة عن الإرتفاع في معدلات المواليد ، غير أن ذلك الإرتفاع في معدلات المواليد كان يقابله ارتفاع آخر في معدلات الوفيات ، وارتفاع الأخير — مع مرحلة الخطورة أحيانا — في معدلات وفيات الأطفال تحت سن الخامسة من العمر ، وذلك نتيجة التخلف الاقتصادي وعدم توفر الرعاية الصحية وما كانت تعانيه البلاد من قلة توفر الخدمات الطبية في أغلب المناطق ، إن مثل هذه العوامل كانت تحد من ارتفاع معدلات النمو السكاني وكانت شاملة لكل المناطق الليبية تقريبا خلال تلك الفترة ، غير أن الكثير من المدن الليبية الأخرى وخاصة طرابلس وبنغازي والبيضاء حققت نموا للسكان في تلك الفترة تفوق أحيانا بكثير من معدل النمو السكاني في بصراته كما لاحظنا سابقا ، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن ظاهرة الهجرة من بصراته إلى المدن الليبية الكبيرة كانت من أهم العوامل التي

---

(٣) بلغ معدل النمو السكاني في طرابلس ٤٫٦٪ ، وفي بنغازي ٥٫٩٪ ، وفي البيضاء ٥٫١٦٪ سنويا وذلك خلال الفترة من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٦٤م .

ادت الى انخفاض معدل النمو السكاني به ، إننا للاسف لم نتمكن من الحصول على أرقام واضحة لاحصائية الهجرة من مصراته بسبب عدم انتظام العمل بقسم السجل المدني في بلديتها خلال تلك الفترة ، غير أن أحدا لا يستطيع أن ينكر الاعداد الكبيرة من مهاجري مصراته وما تميزوا به من عمل في مختلف الميادين وخاصة ميدان التجارة في أغلب المدن الليبية الهامة فمعظم أسواق طرابلس كبيرها ومعظم أسواق بنغازي والبيضاء انما اعتمد عليها في مجال تجارة الجملة وفي المحلات التجارية المشهورة على عهد رعيلهم الاول من مصراته واستقروا بها .

وعلى الرغم من احتفاظ مدينة مصراته بأهميتها الادارية في المنطقة كمركز متصرفية ثم كمتصرفية للمحافظة ، وتدعيمها بقيام اداري على صعيد الحكم المحلي حيث حظيت لاهمية الوظيفية عددا غير قليل من الاسر والاسر التي استقرت بمصراته ، غير أن هذا الشيء لم يصاحبه تطور كبير في توسع المدينة عمرانيا وفي زيادة الخدمات لان الدور الاقتصادي الذي حدث في البلاد كنتيجة للموارد البترولية العائدة من النفط كما ان لا يزال في بدايته ولم تظهر نتائجه بصورة فعالة خلال الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٥٥م وسنة ١٩٦٤م وان كانت بوادره توحي بالامكانيات التي ستتقبل افضل وتشجع الكثير من الافراد على البقاء في مصراته وعدم الهجرة الى مدن أخرى سعيا وراء رغد العيش الذي لا يرجى .

ذلك يمكن أن نعتبر السنوات الاولى من تلك الفترة سنوات ركود أدت الى قلة ارتفاع معدل النمو السكاني بالمدينة ، والسنوات الاخيرة من تلك الفترة تمثل بداية مرحلة الانتعاش الاقتصادي الذي بدأت بعض تأثيراته تظهر في الارتفاع النسبي لمعدل النمو السكاني ، وان كان المتوسط العام للنمو السكاني خلال تلك الفترة في مجموعه يعتبر منخفض اذا ما قورن بالمستوى الذي وصل اليه معدل النمو السكاني في المدن

الليبية الكبيرة خلال تلك الفترة نفسها ، ويعتبر منخفضا كذلك اذا ماقورن بمعدل النمو في سرابه نفسها من ارتفاع في معدلات النمو السكاني في الفترة اللاحقة كما سنرى .

خلال الفترة التي تقع بين سنة التعداد الثاني (١٩٦٤) وسنة التعداد الثالث (١٩٧٣) ارتفع العدد الاجمالي لسكان مدينة مصراته ارتفاعا ملحوظا حيث وصل الى ٨٦٩١٧ نسمة ، وبذلك ارتفع المعدل السنوي لنمو سكانها من ٣٪ خلال الفترة السابقة لسنة ١٩٦٤ م الى ٤,٣٪ خلال الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٦٤ وسنة ١٩٧٣ م ، مما يدل على أن المدينة استأنفت فترة النمو والرخاء الاقتصادي السابقة ودخلت فترة جديدة من الانتعاش الاقتصادي امتازت بفتح مجالات أوسع للعمل ، مكنت معظم سكان المدينة من الاستقرار فيها في وجود الايدي العاملة والخبرات الفنية من خارج المنطقة ، ويمكن ان نحدد أبرز العوامل التي أدت الى هذا الارتفاع في النمو السكاني بالآتي :

أولا : تحسين الوضع المعيشي لسكان وارتفاع الدخل الفردي وتحسن ظروف العمل داخل المدينة عنها في المناطق الريفية ، نتج عن هذا التغير فارق شاسع في مستوى الدخل وفرص العمل وفرص الكسب بين العمال في المراكز العمرانية داخل المدينة وبين العمال المشتغلين بالزراعة والرعي في الارياف والبوادي ، مما أغرى الكثيرين من سكان الريف بالنزوح الى المدينة .

ثانيا : انتشار التعليم في الارياف وعدم توفير التعليم الفني بصفة عامة والزراعة منه بصفة خاصة مما جعل الكثيرين من صغار السن والشباب الذين انهوا التعليم الابتدائي أو المتوسط في قراهم يتوجهون الى المدينة حيث تتوفر المدارس الداخلية لإتمام تعليمهم الثانوي والعالي في

مدارس التعليم العام التي تؤدي بخريجيها الى العمل الوظيفي الادارى او الفني سواء في الدوائر الرسمية أو في المؤسسات والشركات ، ولهذا يعتزم الغالبية العظمى من هؤلاء الطلبة الاستقرار بعد الانتهاء من دراستهم في هذه المدينة ليمارسوا الاعمال فيها .

رابعا - بداية التوسع العمراني بالمدينة متمثلا في المباني والمنشآت التي تشيدها الدولة أو الاشخاص ، وكذلك التوسع في تنفيذ المشاريع الاخرى داخل المدينة في مجال الخدمات المختلفة كالطرق والمدارس والمستشفيات والاسواق وغيرها من المرافق العامة ، هذا التوسع فتح مجالا جديدة بامكانيات أكبر جذبت الاعداد الكبيرة من الايدي العاملة من المناطق القريبة من مصراته ومن بعض المناطق البعيدة عنها ومن خارج المنطقة كلها .

رابعا - ارتفاع مستوى المعيشة وتطور أوضاع السكان المدينة في المسكن والمأكل والملبس وانتشار الخدمات الصحية وتطورها ، وتوفر العلاج والدواء والقضاء على الكثير من الامراض المتوطنة والاوبئة بعض انتشار خدمات المكتب الوقائي وخدمات التطعيم ضد هذه الامراض في المدارس والمعاهد والمدارس ، كل ذلك ادى إلى انخفاض واضح في معدل الوفيات ، بينما احتفظت معدلات المواليد بمستواها المرتفع ، وهكذا بدأت الزيادة الطبيعية للسكان ترتفع بمعدل كبير نسبيا تعود اسبابه الى الفوارق بين المواليد والوفيات تعود ايجابيا ، ويمكن القول من عدم توفر احصائيات دقيقة عن المواليد والوفيات في الفترات السابقة الا أن الارقام التي تملك من مصدرين هما من سجل الحالة المدني لبلدية مصراته توضح بأن معدلات الزيادة الطبيعية كانت كالآتي : ٣٠ في الالف سنة ١٩٧٠م ، ٣٤ في الالف سنة ١٩٧٣م ، ٣٦ في الالف سنة ١٩٧٦م ، حيث كانت معدلات المواليد

كالآتي : ٤٫٢ في الألف سنة ١٩٧٠ ، ٤٥ في الألف سنة ١٩٧٣ م ، ٤٧٫٥ في الألف سنة ١٩٧٥ م[1] ، وسواء كانت هذه الأرقام دقيقة وصحيحة أو ناقصها بدقة فانها تشير الى ما سبق أن أشرنا من ارتفاع معدل الزيادة الدائمة للسكان .

خامسا : كانت مدينة بصراته خلال تلك الحقبة من الزمن تمثل مركزا اداريا وسياسيا هاما باعتبارها دائمة لمحافظة بصراته التي كانت تضم منطقة بصراته وتضم تشمل منطقة زليطن ومنطقة الجفرة ، زيادة على المنطقة التي تشغلها الآن بلدية بصراته وغروبها . وبذلك ازداد حجم الاعمال الادارية الرسمية وحجم المرافق والخدمات بها وجذبت تلك الاعمال اعدادا من الموظفين والاداريين والفنيين الذين استقروا بمدينة بصراته بصفة مستمرة .

كل تلك العوامل تضافرت على توسيع مجالات الطلب البشري المختلفة بمدينة بصراته فاستوعبت المدينة اعدادا أكثر من السكان سواء عن طريق الزيادة الديموغرافية الطبيعية أو بطريق الهجرة الوافدة ، فارتفع معدل النمو السكاني بها الى ٤٫٦ سنويا .

واستوعبت مدينة بصراته تحضر وتتسع وتستوعب اعدادا أكبر من السكان خلال أواسط وأواخر السبعينات من هذا القرن ، واستمر معدل النمو السكاني بها يرتفع بسرعة مذهلة لم تشهدها مدينة بصراته في أي مرحلة من مراحل تاريخها الطويل ، فالاحصائيات الصادرة عن بلدية

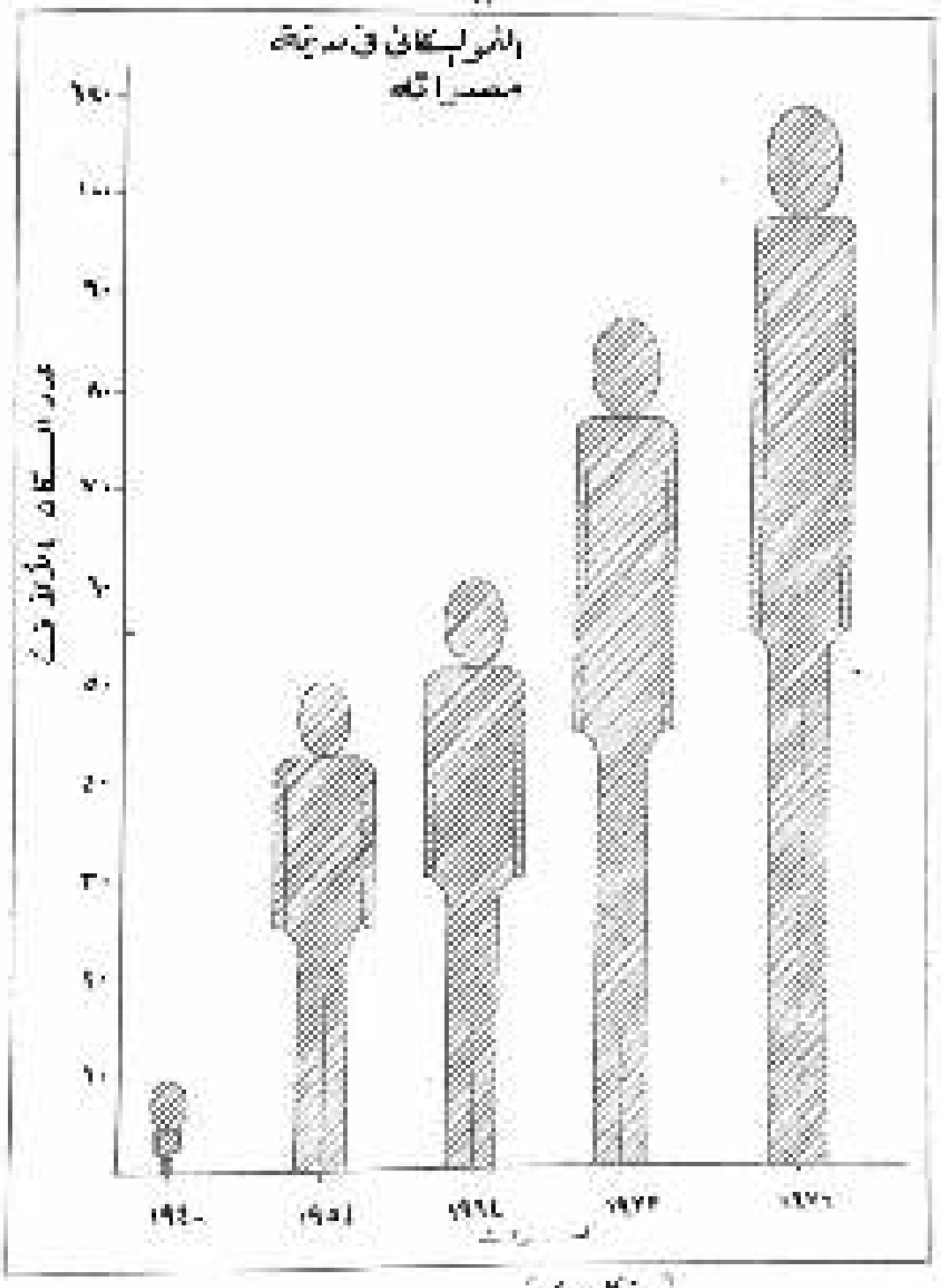
---

(١) تشمل هذه الارقام كل المنطقة الواقعة ضمن الحدود الادارية لبلدية بصراته وغروبها وليست خاصة بالمنطقة الضيقة من المدينة التي سبق تحديدها .

مدينة تبلغ أن عدد سكانها ـ حسب الحدود الادارية السابق تحديدها لهذه الدراسة ـ بلغ ١١٩٠٠٠ نسمة وذلك في ديسمبر سنة ١٩٧٦ م أي أن عدد سكان هذه المدينة ازداد حوالي ٣٣٠٠٠ نسمة في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات ونصف السنة (من يوليو ١٩٧٣ الى آخر ديسمبر ١٩٧٦ م) . وهذا يعني أن المعدل السنوي السكاني في مصراته خلال هذه الفترة الاخيرة وصل الى مستوى من الارتفاع لم يصل اليه في أية مرحلة من المراحل السابقة ، حيث كان عدد سكانها يتزايد بمعدل سنوي بلغ ٥٫٧٪ وهو معدل مرتفع جدا لا يمكن أن يتحقق بمجرد زيادة طبيعية عادية للسكان ، ويمكن تلخيص العوامل التي أدت الى هذا الارتفاع السريع في معدل النمو السكاني في مصراته بالآتي : ـ (شكل ٤)

أولا : استمرار التأثير الايجابي للعوامل الخمسة التي سبق ذكرها عند الحديث عن النمو السكاني للمدينة خلال الفترة الزمنية الواقعة بين سنة ١٩٦٤ م وسنة ١٩٧٣ م ، وهي ارتفاع مستوى المعيشة للسكان ، زيادة انتشار التعليم ، توسع المدينة عمرانيا ، ارتفاع الزيادة الطبيعية للسكان بالانخفاض الملحوظ في معدلات الوفيات وعدم انخفاض معدلات المواليد ، وأخيرا أهمية مدينة مصراته السياسية والادارية والاقتصادية في المنطقة .

ثانيا : السياسة التي اتبعت خلال تلك الفترة في توجيه السكان القاطنين في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية ، أي سكان بعض الواحات والتجمعات السكانية الصغيرة المعزولة وكذلك مجموعات السكان من البدو الرحل وشبه الرحل المنتشرين في مناطق الرعي الجائر ، نقل هؤلاء السكان الى المناطق الساحلية في المدن حيث تتوفر الخدمات في مجالات واسعة

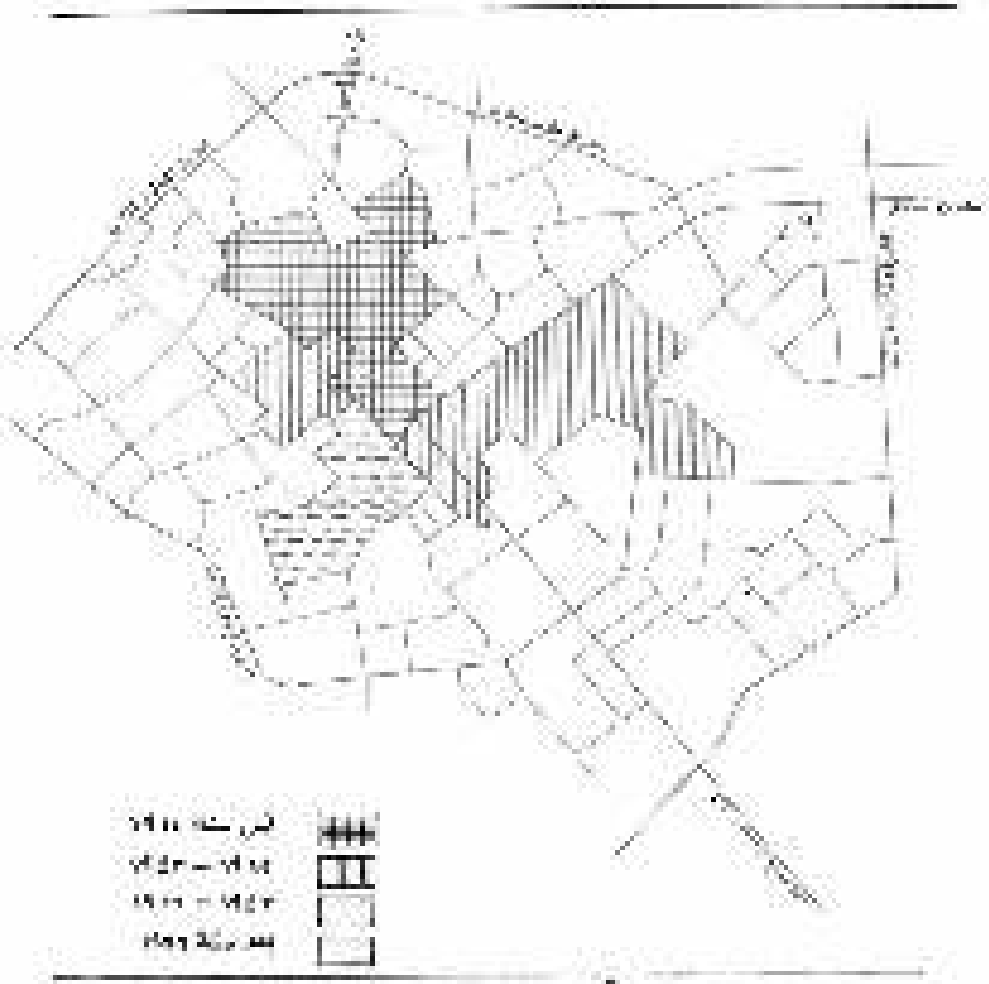

السكان في مدينة
معدلات النمو
عدد السكان بالألوف
١٠٠
٩٠
٨٠
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
١٩٤٠
١٩٥٠
١٩٦٠
١٩٧٠
١٩٨٠

(شكل ٤)

والتعليم والنقل والزراعة وغيرها ، والتي يشعب جدا ترصيدها البشري في مناطقهم الريفية الثانية ، وهكذا تم نقل العديد من العائلات من مناطق زراعة والفيوم وبرديات الصعيد وغيرها وتوطينهم في المناطق المحيطة بمدينة بدراته في المزارع والمشاتل التي كانت سكنها بعض الأسر الإيطالية في السابق وكذلك في بعض المزارع التي استصلحت حديثا في المنطقة الغربية من المدينة أو البيوت التي شيدت أخيرا داخل المدينة وخارجها .

(ز) إعادة تخطيط المدينة وترصيدها ، وقيام الدولة بتنفيذ العديد من المشاريع الإسكانية ومشاريع الخدمات العامة داخل المدينة . وقد أنفقت الدولة في هذه المشاريع مبالغ كبيرة وقامت بتنفيذها بعض الشركات الوطنية والأجنبية الكبيرة وبهذا تم استغراق تنفيذ تلك المشاريع الا سنوات معدودة . وهكذا تمكنت مدينة مصراته من أن تستوعب خلال فترة زمنية وجيزة جدا أعدادا كبيرة من السكان الوافدين اليها . (شكل ٥)

إن هذه الضرورات الإستراتيجية ، والتي تستوجب كل يوم وتستقبل أعدادا أكبر من السكان ، والتي يجعل تقدير أن معدل النمو السكاني سيزداد ارتفاعا خلال السنوات القليلة القادمة من أواخر الثمانينات ، أما في فترة اللاحقة أي خلال الثلاثينات من هذا القرن ، وبعد أن يتم انجاز المشاريع المخططة للمدينة في المستقبل ، مثل مشروع انشاء ميناء مصراته الجديد ، ومجمع مصانع الحديد والصلب الذي سيقام بالقرب من ذلك الميناء ، ومشروع خط سكة الحديد الذي سيصل بين مناجم خام الحديد في منطقة قارة الجنوب ومجمع مصانع الحديد والصلب في مراته ، فإن هذه المشاريع كان خريطة توزيع السكان بمنطقة مصراته ستتغير تغيرا شاملا ، وستصبح تلك المنطقة من أكثر مناطق ليبيا ازدحاما بالسكان ، وستشهد تلك المنطقة تغيرا شاملا في بنيتها السكانية الذي سيكون نموا سريعا وبمعدلات عالية جدا قد تفوق كل



توسع مدينة مصراتة

(شكل ٥)

التقديرات التي سبق أن وضعها بعض الخبراء والدارسين(٥٥) .

ان مدينة مصراته والمنطقة المحيطة بها تشهد اليوم نموا سكانيا سريعا وكبيرا ، وتتوفر فيها كل العوامل التي تدعم الى هذا النمو المتزايد ، ومعظم ضروف التطور الحضاري والعمراني الذي يتحقق في هذه المنطقة ، ستشهد خلال السنوات القادمة ارتفاعا اكثر في معدل نموها السكاني فهي تمر الآن بمرحلة تحول جذري من مرحلة تاريخية كانت فيها مدينة مصراته مجرد مدينة صغيرة ذات نشاط اداري وتجاري يغطي المنطقة الزراعية المحيطة بها والتي تضفي طابعها الريفي على المدينة نفسها الى مرحلة تاريخية جديدة تكتسب المدينة فيها طابع الحضري كمدينة من مدن ليبيا الكبيرة .

ان هذه المرحلة من التحول التي تعيشها المدينة اليوم يصاحبها الكثير من المشاكل المعقدة التي نتجت عن هذا التطور بصفة عامة وعن ظاهرة النمو السكاني السريع بصفة خاصة . فهذا النمو السريع المتواصل في عدد سكان المدينة يتطلب الكثير من الجهد والمال لتوفير الحاجيات الضرورية والخدمات والمرافق العامة التي يجب أن توجد وتطور كما وكيفا عند متطلبات السكان المتزايد يوما بعد يوم ، فمرافق الصحة والتعليم والاسكان والتنظيم وكذلك توفير السلع الاستهلاكية وغيرها ، تواجه الآن تزايد الكثير من الصعوبات في تلبية احتياجات سكان المدينة على الرغم

---

(٥٥) جاء في التقرير المقدم من شركة (مشاريع) مارشال مكلان وزملائه (سنة ١٩٦٩ م) في الجزء الخاص بمحافظة مصراته صفحة ٥٨ الفقرة (ب) : ان المعدل العام لنمو السكان في مدينتي الخمس والزاوية حيث تقع منطقة مصراته الدراسية ، خلال الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٨٨ م سيكون بمعدل سنوي قدره ٥٫٦٪ و ٥٫٨٪ على التوالي .

من كل ما يبذل من جهد ونفقات في هذا المجال .

هذا من جهة تأثير النمو السكاني السريع على المدينة نفسها ، أما من جهة تأثيره على المنطقة في مجموعها ، فهو يتطلب جهدا خاصا في التخطيط والتنفيذ في سياسة التنمية عامة وسياسة التخطيط السكاني للمنطقة بصفة خاصة . فنمو المدينة وخروجها بهذا الشكل السريع المرتفع والسريع جدا يشكل خطرا في المستقبل على المناطق الزراعية والريفية بالمنطقة إذ ربما كان جزء من هذا النمو السكاني السريع للمدينة يتم على حساب النمو السكاني للمناطق الريفية خاصة تلك التي تشملها الحدود الإدارية لبلدية مصراتة وتروسها . فالإحصائيات الصادرة عن بلدية مصراتة[1] توضح بأن الزيادة السنوية العامة لسكان المنطقة في مجموعها أي كل المناطق التي تشملها حدود البلدية خلال السنوات ١٩٦٣م ، ١٩٧٤م ، ١٩٧٥م ، كانت ٣٫٠٨٪ ، ٣٫٠٣٪ ، ٣٫٠٣٪ على التوالي ، بينما لاحظنا أن معدل الزيادة السنوية لسكان داخل منطقة المدينة وحدها خلال السنوات الأخيرة زاد في حدود بسيطة عن ٤٪ ، وهذا يدل بصفة الحال على أن سكان المدينة يتزايدون بمقدار وسرعة أكبر بكثير من بقية سكان المناطق الريفية من الإقليم .

لا بد من اتخاذ جانب الحيطة والحذر تجاه هذه الظاهرة التي قد لا تكون ظاهرة صحية في تكوين الهيكل السكاني لتوزيع توزيعا متكافئا ، وذلك بالبحث عن الوسائل التي تعمل على تقليل الهجرة من الريف إلى المدينة حتى تتمكن المناطق الريفية من الاحتفاظ بجزء هام من سكانها ، بل ولا بد من العمل الجاد في هذا الميدان لكي يحقق سكان الريف تقدما مذهلا يكافئ مستويات التقدم في ميدان الزراعة والإنتاج الريفي الذي تستهدفه خطة التنمية في البلاد .

---

١) نشرة الجداول الإحصائية لبلدية مصراتة ، ١٩٧٦م ، ص ١٩ .

ولا بد كذلك من التفكير في معالجة بعض السلوكيات المرورية الأخرى التي قد تنتج عن هذا السير السريع مثل ارتفاع الكثافة السكانية في بعض الأحياء بدرجة كبيرة ومثل الزيادة الكبيرة في حجم القوى العاملة في المدينة الناتجة عن هجرة الريفيين وما قد يترتب على ذلك من مشاكل إسكانية واقتصادية ومرورية. إن كل هذه الاحتمالات لا بد أن ينظر إليها بعين الاعتبار وتدرس جميع احتمالاتها سلبا وإيجابا حتى يوجه هذا السير التكنولوجي السريع في طريق سليم متجنبا مواقع الخلل والاختلال.

والله الموفق

* * *

المراجع :

اعتمدت في هذه الدراسة على البيانات والاحصائيات المستمدة من المصادر التالية :

١ ـ التعداد العام للسكان بليبيا سنة ١٩٥٤ م .

٢ ـ التعداد العام للسكان بليبيا سنة ١٩٦٤ .

٣ ـ التعداد العام للسكان بليبيا سنة ١٩٧٣ م .

٤ ـ تقرير البعثة لمعاينة مصراته ٥ ابريل ـ أغسطس ١٩٦٦ م المقدم من شركة ماك جي ماركال ، ماكدونالد وتوكاس ، ايطاليا ـ شركة محدودة المسؤولية ، مستشارون معماريون واستشاريون وخبراء في التخطيط .

٥ ـ النشرة الصادرة عن بلدية مصراته في سنة ١٩٧٦ م تحت عنوان « انجازات بلدية مصراته » من سنة ١٩٦٩ م الى سنة ١٩٧٥ م .

٦ ـ مجموعة احصائيات وبيانات غير منشورة تكرم بتزويدنا بها قسم السجل المدني ببلدية مصراته ، خلال الدراسة الحقلية التي قمت بها مع مجموعة من طلبة المرحلة النهائية بقسم الجغرافيا ، كلية الآداب ، جامعة قار يونس ، خلال شهر يناير من سنة ١٩٧٧ م .

السوسيولوجيا وأزمة المجتمع العربي

د. عبد القادر قرابي

قسم علم الاجتماع

السوسيولوجيا وازمة المجتمع العربي

الفصل الأول

١ ـ توطئة :

ان الغرض من هذا البحث هو دراسة العلاقة المتبادلة بين التفكير الاجتماعي عند العرب أو علم الاجتماع العربي ، وبين المجتمع العربي . فمن المعلوم أن العلوم الانسانية عموما وعلم الاجتماع خصوصا ، تعكس مدى التطور الحضاري والفكري للمجتمع . فهناك علاقة متبادلة بين الفكر والواقع ، وهذه العلاقة تكمن وراء أهمية دور السوسيولوجيا والمجتمع . ولا غرابة في ذلك ، اذ أن السوسيولوجيا تدرس النظم والظواهر الاجتماعية من زاوية أثرها على العلاقات الاجتماعية وعلى تكوين الانسان ووعيه وسلوكه ، كما تدرس السوسيولوجيا أشكال ووظائف الاجتماع الانساني ، وكذلك عوامل التماسك والرابطة الاجتماعي .

بيد أن اهتمام السوسيولوجيا لا يقتصر على دراسة الجوانب الاستاتيكية للمجتمع ، وانما يتجاوزه الى الجوانب الديناميكية ، آخذا بعين الاعتبار المجتمع المتكامل Totalité الخاضع للتطور التاريخي في عين الاعتبار ، ولذلك فان السوسيولوجيا تدرس قوانين التطور الاجتماعي ، بما في ذلك عملية التغير في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

هذا من ناحية الموضوع أما بخصوص الناحية المنهجية لعلم الاجتماع فان من المتعذر علينا تحديد ذلك بكلمة واحدة ، نظرا لتباين الآراء على الصعيد المنهجي من جهة ، وعلى صعيد مواضيع علم الاجتماع من جهة

أخرى ، ولذلك برزت توجهات وتيارات متعددة في علم الاجتماع ، تبعا لاختلاف المدرسة والاتجاه لعالم الاجتماع وموقفه من قضايا المجتمع .

وربما كانت المدرسة الاجتماعية (Emile Durkheim) أبرز هذه الاتجاهات المحددة لموضوع السوسيولوجيا ، ويرى (دوركيم) أن الظواهر الاجتماعية هي موضوع علم الاجتماع ، وأن « أهم القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية هي ملاحظتها على أنها أشياء » (١٤) وبالتالي فهي مستقلة عن الفرد ومحددة لسلوكه (١٥) . أما علم الاجتماع الوظيفي فيعتبر المؤسسات الاجتماعية هي العوامل المحددة المباشرة للسلوك الاجتماعي ، فهذا يفسر العادات والقيم ، التي تحدد بدورها أشكال السلوك والعلاقات الاجتماعية وبين فيما إذا كان السلوك قانونيا أم منحرفا للقانون (١٦) . وبهذه الصورة تبدو موجهات السلوك الاجتماعي كامنة في المؤسسات الاجتماعية ذاتها ، وهي التي تمارس الرقابة الاجتماعية على الأفراد ، وفي الحقيقة ، أن النظرية البنيوية الوظيفية لم تأت بجديد ، اللهم إلا محاولتها التوفيق بين أعمال دوركيم وفيبر وبارسونز (١٧) . هذا باختصار من ناحية موضوع السوسيولوجيا البرجوازية . أما نظرية ماركس الاجتماعية فتتميز من ناحية المنهج والموضوع عن السوسيولوجيا البرجوازية التي تفسر تطور البناء الاجتماعي بعد في ذلك التطور الاجتماعي من خلال التطور الاقتصادي ، كما ترى التاريخ الانساني عملية تطور مستمرة ، لها جذورها في تطور تقسيم العمل والتمايز الطبقي ، وتبحث في الظواهر الاجتماعية ، وأسبابها في المادية التاريخية ، بكلمة أخرى أن ماركس يفسر تطور البناء الاجتماعي من خلال تطور علاقات الانتاج ، أي البناء التحتي المادي للمجتمع .

على ضوء ما تقدم عرفت السوسيولوجيا اتجاهين متمايزين من حيث

المنهج والموضوع ، وهما السوسيولوجيا البرجوازية ، والسوسيولوجيا الماركسية ، ان هذا التقسيم ان دل على شيء فانما يدل على ان مزاعم Max Weber حول موضوعية المعرفة العلمية المزعومة وحياد القيم لا مكان لها ، فالسوسيولوجيا لها وظيفة ايديولوجية ، فهي إما أن تخدم مصالح البرجوازية أو مصالح الشعب ، أو مصالح الجنة .

ولكنه لما كان لكل مجتمع من المجتمعات مشاكله الاجتماعية ، وبيئته ومعاييره وقيمه ، وتاريخه ، وظروفه الاجتماعية المميزة ، وبنيته الاقتصادي والسياسي والاجتماعي فقد نتج عن ذلك ظهور سوسيولوجيات متميزة بتميز المجتمعات ، ومما لا شك فيه أن هذا التميز يعتبر ظاهرة صحية ، ولا يجعل السوسيولوجيا تخرج عن علم ، يقتصر على الأسس المنهجية العامة لدراسة المجتمع الانساني ، وإذا لم يكن كذلك فسنجد السوسيولوجيا الى عهد كونت بعيدة ، لا عالمة منه ، وعاجزة عن المساهمة في تغيير الواقع وخدمة الوجود الانساني ، عندئذ تفقد السوسيولوجيا ارتباطها بالواقع وتنحط الى مستوى الدين والتقليد الاعمى ، وهذا هو الثمن الذي يمكن الاصطلاح عليه بـ : « السوسيولوجيا العربية » .

على أن الأزمة ليست أزمة السوسيولوجيا بقدر ما هي أزمة اجتماعية وحضارية يعيشها المجتمع العربي ، فالمجتمع هو موضوع السوسيولوجيا ولما كان هذا المجتمع يعاني من الحرب والضياع والانهيار ، وفقدان الأمن ... الخ ، فقد كان ذلك كله سببا في أزمة السوسيولوجيا العربية ، التي تعبر عن أزمة اجتماعية بنيوية .

إن علاقة السوسيولوجيا العربية بالمجتمع العربي ليست علاقة سببية ، وإنما تعكس الواقع الموضوعي في الفكر الاجتماعي الذي يتموضع فيه الواقع الاجتماعي ، ولذلك فان موضوع بحثنا هو دراسة طبيعة هذه

العلاقة في مراحل تطورها المختلفة ؛ التي ترجع تشكلات مرحلة التفاعل الاستعماري الغربي في مطلع القرن التاسع عشر المناخ المناسب لرواجها ؛ على الرغم من الجذور التاريخية لهذه العلاقة التي تمتد إلى ذلك بكثير ؛ فهي ترجع إلى مرحلة انحسار الفكر الاجتماعي العربي قبل التدخل الاستعماري ، وعلى أية حال فقد وجدت الأفكار والفلسفات الاجتماعية الغربية في المجتمع العربي ، كما أن هذه التيارات ، ما عرف بالداروينية الاجتماعية والعامة ، والماركسية ، والوجودية ... الخ ، ولذلك فإننا سنبحث في القسم الأول أبرز التيارات السوسيولوجية ، كالنسق سبنسر، والداروينية الاجتماعية والماركسية ومدى تغلغلها في المجتمع العربي ؛ موضحين من خلال ذلك الأبعاد الغربية والحضارية للمجتمع العربي ؛ ومبينين أن أسس الفكرية والإيديولوجية التي خلفها الاستعمار ما زالت تلعب دورها في مجتمعنا . فهي تجسد نمطا من البنية الفكرية والحضارية والاقتصادية ، وتعبر عن أزمة بنيوية مستعصية ، تعكس ذاتها في ظواهر التخلف الفكري والاقتصادي والسياسي . أما القسم الثاني من البحث فيدور حول التوجهات والتصورات الأولية حول موضوع : السوسيولوجيا العربية ، وتحررها من التبعية الفكرية الغربية ، وتجييرها لمصلحة المجتمع العربي وحاجاته ، وهذا على جبهة والغربية ، هذا من ناحية الموضوع ، أما من ناحية المنهج التاريخي فيقوم على أساس الفكر القومي ، ويدرس عوامل الوحدة القومية والتراث القومي ، مفسرا الصراعات الاجتماعية في إطار هذه الصفة القومية .

* * *

٢ - التيارات الاجتماعية المؤثرة
في الفكر الاجتماعي العربي

أ - لسان سيمون واتباعه

ب - الاصول الفلسفية والاجتماعية
لفسان سيمونية

لما كانت فلسفة (سان سيمون) الاجتماعية قد تركت اثرا لا يستهان به على الفكر الاجتماعي العربي ، وخاصة بعد حملة نابليون عام ١٧٩٨ الى مصر ، مع كل ما انطوت عليه هذه الحملة من مظاهر الاستغلال الاقتصادي والسياسي والاستعمار الثقافي Albuhumeica فانه يتعين علينا عرضها عرضا موجزا ، وذلك بعد البحث في أصولها الفلسفية والاجتماعية .

ان الاصول الفلسفية لسان سيمونية ترجع الى فلسفة عصر التنوير ، التي ثارت على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، مطالبة بحدوث تغيير اجتماعي شامل لكافة نواحي الحياة ، على أن عملية التغيير الاجتماعي الثوري لم تؤت أكلها ، الا اذا خلصت الفكر الانساني من الفلسفة ، بمفاهيمها ، ومقاييسها لوجود ما هو وما ينبغي أن يكون ، وذلك وفقا لنظرية أخرى للفلسفة وهي المحافظة على الوضع القائم Status quo

وبمجرد أية عملية تغيير اجتماعي ، وبقدر ما كانت هذه الفلسفة على مكافحة السلطة لتغييرها ، بقدر ما شددت على أهمية الدراسة العلمية كأساس لعملية التحول الاجتماعي ، فاصلة بين الانسان فاسرا فكريا ،

وغير معتمد على ذاته ، وعلى عقله ، من توجيه سلوكه ، دون أية موجهات سلوكية اجتماعية ، فالعقل فريسة لكل موروثات فإن فلسفة عصر التنوير تميزت بطابع عقلاني ، هادف الى إحداث تغيير نوعي من سلوكية الانسان ونحو اتجاه التفكير وذلك من خلال تسليحه بالمعرفة الصحيحة ، إن الانسان المتسلح بالمعرفة الصحيحة والوعي الصحيح قادر على تمييز الحقيقة من الخطأ وزالت عن العين وغشاوة فإن ، التنوير حاجة ضرورية للعقل الانساني ، [1] وخاصة في ذلك العصر الذي تفشى فيه الجهل ، وأضحى ، التصحيح للفاهيم والمبادىء الخاطئة أمرا ، [2] هاما أساسيا لفلسفة التنوير ،

إن ، مقولات ، العقل ، حرية الفكر ، العقيدة الحرة ، والوعي السليم تعتبر مقولات وليب فلسفة التنوير ، وأهدافا منشودة ، وسلاح قاسيا موجها ضد الاستبداد والطغيان ، إن الأنظمة المستبدة الظالمة هي عدوة المعرفة ، والحقيقة ، وعدوة الفكر ، كما انها معادية لحرية الانسان ، وحقوقه وكرامته ، [3] ولما كانت هذه الحقوق طبيعية ، فان للانسان حق الثورة ضد من يغتصب هذه الحقوق [4] ، إن مسيرة الانسانية نحو الحرية والتقدم عملية حتمية قادمة لا ريب فيها ، فهي وليدة النظم الظالمة التي لا تحترم حقوق الانسان [5] ولذلك فان الثورة هي الرد الطبيعي على الظلم والطغيان ، وذلك حتى تستقر الحياة الانسانية ، وتصان كرامة الانسان ، [6] ،

إذن ان الثورة على الظلم ، وتحرير الانسان من العبودية حق طبيعي كما انها عملية تاريخية حتمية ، لأن الانسان لا يقبل الظلم ولا يمكن الا أن يثور على القيود الاجتماعية ، المخالفة للشريعة الطبيعية والانسانية ،

إن نظرية التقدم تمثل صلب الفلسفة التاريخية لعصر التنوير ، وقد يميز هذه الفلسفة أنها ، وان ركزت على نقد النظم السياسية [7] بادىء الأمر إلا أنها انصرفت البحث عن عوامل التقدم الاجتماعي في أنسنة

السياسية والاجتماعية ، معتبرة إياها صلة تاريخية ، ناتجة عن التفاعل الاجتماعي ، وهي جملة العوامل الاقتصادية والطبيعية والدينية ، ليس من صنع قوى غيبية ، كما يدعي نظرية الحق الإلهي .

إن المنهج التاريخي يعتمد على الأساس العلمي الوضعي وعلى دراسة وقائع العمران البشري بعيدا عن كافة المؤثرات الذاتية وربما كان (جوليان Volney) رائدا في هذا المجال إذ ميز بين عالمي الطبيعة والمجتمع ، الأول يحكمه قانون الثابت والمحدد ، أما الثاني فهو عالم لا متناهي ومتغير ، أما التقدم الدائم في العمران البشري فيخضع للعديد من العوامل الجغرافية والسياسية والدينية والاقتصادية ، [12] فعلى هذه العوامل يتوقف عملية التقدم الاجتماعي .

أما مونتسكيو (Montesquieu ١٦٨٩ - ١٧٥٥) فقد شرح نظرية التقدم في كتابه روح القوانين ، مؤكدا على أن التقدم الحضاري والاجتماعي يتعلق من العوامل البيولوجية ، كالمناخ ، وطبيعة التربة ، فعليهما يتوقف اتساع في العيش الاجتماعية ، وفي توزيع الثروة ، وهذه تتحكم بدورها على العادات والقوانين ، [13] ..... الخ كما أكد مونتسكيو على أن العقل الجمعي للمجتمع يتحدد من خلال تاريخه وطبيعته الخاصة ، فلكل مجتمع من المجتمعات طابعه المميز ، وعلى القوانين أن تتلائم مع ذلك .

أما كوندرسيه (Condorcet) فيرى أن على التاريخ أن يعمل في غاية الدقة حتى يتمكن بوساطة قوة العقل ، ومعرفة البدور الأولى للاستبداد ونشأته وتطوره في مهده ، إذا ما شاء وتطورت بعد ذلك [14] - ولا تؤدي الدراسة التاريخية هذه الوجهة إلا إذا وظفت لخدمة المعرفة الإنسانية وتحقيق الوعي السليم .

ومما لا شك فيه أن الدراسة الاجتماعية لعصر التنوير لعبت دورا لا يستهان به في تأكيد النظم السياسية الحديثة ، وعدت بمثابة سلطة العقل

بدلا على سلطة الباقرق وحكمه ، ولكن يؤس عليه الفلسفة يكمن في
كونه اعتبر العلم العقلي أساس التغير الاجتماعي ، متجاهلا دور
العوامل الاقتصادية والاجتماعية في هذه العملية .

ج ـ فلسفة سان سيمون الاجتماعية

تتكون فلسفة عصر التنوير الأوربية فكرية مسألة سيمون
الاجتماعية ، ولعل سان سيمون لم يأت بجديد من الناحية الفكرية ، فمعظم
أفكاره الفكرية ، كالتقدم ، ونقد النظم السياسية والاجتماعية ،
كانت من صلب الموضوعات التي تناولها D'Alembert و Diderot
و Condorcet و Turgot ... الخ ، ورغم أن كان أهم ما يميز فلسفته
الاجتماعية عن فلسفة التنوير كونه لم يكتف بنقد النظم السياسية فحسب ،
بل حاول التعرف على العلاقات الدائمة بين الظواهر السياسية والاجتماعية ،
مؤكدا على دور العامل الاقتصادي المتحكم في تحديد شكل الدولة
وطبيعتها .

إن دراسة سان سيمون للعلاقات بين الظواهر الاجتماعية والسياسية
لا يمكن تجزيئها عن الروح عصره ، ولا بد من التعبير الثوري ، الذي
ساد في الفترة الثورية ، ولكن سان سيمون لم ير في الثورة الفرنسية
تحقيقا لإرادة الإنسان الحرة ، والعقلانية للجماهير الشعبية ، بقدر ما
كان يرى فيها أزمة ثورية ، يمكن التغلب عليها من خلال إعادة تنظيم المجتمع
على أسس علمية وعقلية . فالتغير الثوري يبرز في نظره تعبيرا عن مشاكل
وأزمات عميقة اجتماعية متأصلة ، ولما كان مسألة تنظيم المجتمع على
أسس عقلية وعلمية ، لأن التغير الفكري أساس التغير الاجتماعي والأدبي ،
والدليل على أزمة مجتمع عصره هي أزمة فكرية ، ترجع أساسا إلى
الخلل في إنسان الاجتماعي والاقتصادي ، وإذا ما تغير إنسان الفكري فإنه

يؤدي الى تغيير النظم الخلقية والاجتماعية .

ويعتبر الانتاج أحد المقولات المركزية التي تقوم عليها فلسفة سان سيمون ونظريته الاجتماعية ، إذ العمل في نظره هو السعادة بذاتها ، فاسعد الشعوب أكثرها انتاجا وأتعس أقلها انتاجا (٢٦) . ولما لا يتحقق مجتمع الانتاج مجتمع الصناعة ، طالما تظل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قائمة .

أما الهدف الرئيسي لمجتمع الصناعة فهو تحقيق الرفاهية الاقتصادية وإشباع الحاجات الإنسانية ، وفي ذلك يقول سان سيمون :

« إن إشباع الحاجات المادية والمعنوية للانسان تعتبر بحسبه سعيدا ، بيد أن ذلك هو الهدف الرئيسي والمهمة المباشرة للعلم والفن والعمل اليدوي والمهن ، والى هذه الطوائف الثلاثة وحدها ترجع كافة الاعمال المفيدة والحضارية ، وخارجها يوجد المتطفلون والمعتدون للسلطة » (٢٧) .

« إن إعادة تنظيم المجتمع تقتضي تنظيم الحرية التي حققها الانسان في مجال العلم والفن والعمل اليدوي والمهني ، باعتبارها قطاعات تمثل الانتاج المادي والفكري .

وتمتلك الشعوب الانسانية المفيدة ، وانطلاقا من ذلك يجد سان سيمون أن مجتمع عصره منقسم الى طبقتين ، وهما طبقة المنتجين ، وطبقة غير منتجين ، أما الطبقة الاولى فتشمل كافة المشاركين بالانتاج المادي مباشرة ، وغير مباشرة ، أي الانتاج المادي والفكري ، وتضم هذه الطبقة : الفلاحين ، العمال ، المهنيين الصناعيين ، أرباب الاعمال ، التجار ، والفنانين ، أما طبقة غير المنتجين ، فتشمل الاشراف ، وكبار الملاك ، ورجال الحاكم ، والبيروقراطية العسكرية ، إن الطبقة الاخيرة كانت تتحكم آنذاك في طبقة

المنتجين ، وكان مركزها الاجتماعي موروثا وليس مكتسبا [١٩٥] ، إن الاقلية غير المنتجة تثري على حساب الغالبية المسحوقة .

إن القضاء على هذه الاوساع الاجتماعية الظالمة تستدعي إعادة تنظيم المجتمع على أسس فكرية سليمة ، وتحويل القوى غير المنتجة والطفيلية إلى قوى منتجة ، عندئذ تزول الصراعات الاجتماعية ، وينشأ استغلال الانسان للانسان ، ويحل محله الاستغلال الجماعي للطبيعة ، إن مجتمع صناعة كفيل في نظره بانهاء الحروب والازمات والصراعات الاجتماعية ، وجعل السلام عالمي والطبقي شرطا من شروط الوجود والتقدم [١٩٦] .

إن الثورة الصناعية تجعل العلاقة بين العلم والصناعة ذات أهمية خاصة ، حيث يستغل الانسان الطبيعة جيدا ، عليه الاعتماد على المعرفة العلمية ، وتوظيفها في خدمة الانتاج ، وربما كان اهتمام سان سيمون بالقضاء على الفوضى السائدة في النظام الاجتماعي دفعه ، جعله يعتبر اجتماعا خاصا للتخطيط والتنظيم العلمي للانتاج ، فعلى السياسة أن تكون مستقبلا علم ادارة الانتاج [١٩٧] ، إن الدولة اشبه ما تكون بمؤسسة صناعية ، همها توجيه الانتاج ، وترشيد التبادل ، وتحقيق الرفاه الاجتماعي [١٩٨] ، عندئذ يختفي العنف السياسي ويختفي معه استخدام العنف والقوة من جانب الدولة .

إن حل المشكل السياسي يتم في نظره من خلال عقلنة السلطة السياسية ، ولكن هذه التطورات تظل صورية ، لانها تتناول شكل الدولة ، متجاهلة طبيعة ، وماهية القوى التي تمثل مصالحها ، إن السلطة السياسية في فلسفة (سان سيمون) تظل سلطة طبقية ، لان المجتمع الذي كان (سان سيمون) يشيده ، هو مجتمع الصناعيين ، والكبار رجال والطبقة الصناعية والصغيرة الساسة ، انه مجتمع هرمي ، طبقي ، تتحكم فيه الصفوات

الديمقراطية والسياسية ، وتنعدم فيه المساواة الاجتماعية .

إن فشل سان سيمون في حل المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية تكمن في أنه رأى في مجتمع الصناعة عصا موسى السحرية « كل شيء من أجل الصناعة وكل شيء من خلال الصناعة »[٢٢٦] .

إن تصوره لمجتمع الصناعة يقوم على الاعتقاد الخاطئ، بأن مجتمع الانتاج سيحقق العلاقات الاجتماعية ، ويحل التفكك الاجتماعي من خلال تحويل التناقضات الفئوية المنتجة الى قوى منتجة ، وبذلك تزول الصراعات الفردية والاجتماعية ، وتتطابق المصالحة الشخصية والاجتماعية .

ومما يتجاهله سان سيمون أن عقلنة الانتاج شيء ، وأنسنة العلاقات الاجتماعية شيء آخر .

إن الخطأ الذي وقعت فيه النظريات السوسيولوجية البرجوازية ؛ ابتداء (سان سيمون) وانتهاء بـ Max Weber ، كونها اعتقدت أن دقعنة الانتاج ، وزيادته تؤدي حتما الى عقلنة علاقات الانتاج متجاهلة طبيعة النظم السياسية ودورها في ذلك . فطالما لا تحتكم كافة مظاهر الاستغلال القائمة ، سواء كانت مكتسبة أم موروثة ، وطالما لا تنال الشعوب المقهورة حريتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يظل الحديث عن المساواة والعدالة الاجتماعية نوعا من الثرثرة .

ولما كان (سان سيمون) رائدا من رواد الاشتراكية الطوباوية ، فانه ينبغي علينا إلقاء نظرة حول تطورها التاريخي ، ومن المعلوم أن القرن الثامن عشر شهد ظهور اتجاهين ، عرف أحدهما بالاتجاه الاصلاحي ، والثاني بالاتجاه الثوري ، الاتجاه الاصلاحي لم يهتم بازالة النظام الرأسمالي

و وانما الكنى بمعنى الترميمات في البنى الاجتماعيه والاقتصادي والسياسية (٢٣) ، وربما كان ما عرف باشتراكية المسيحية عند Owen في فرنسا و Kingsley في انجلترا ، أبرز هذه الاتجاهات .

وانطلق هذا الاتجاه من الكتاب المقدس ، مؤكدا على تحرر الفرد الانسانية مما علق به من شوائب .

نشأ عن الاشتراكية المسيحية فقد ظهر اتجاه اصلاحي آخر ، وهو الاتجاه Philantrope ، الذي خاطب متسامح الناس ، والحب والواجب الانسانية ، ومثل هذا الاتجاه كل من Cran - Bles في المانيا و Hanous في فرنسا ، ورغم شعاراتهم : المحبة الانسانية والتآخي ، كل هذه الاتجاهات الاصلاحية تشترك في نقطة واحدة : هي المحافظة على النظام الاجتماعي القائم مع اجراء بعض الترميمات (٢٤) .

وثمة اتجاه آخر يمثل الاتجاه الاصلاحي وهو الاتجاه الحربي ، ويتألف هذا النظام مبدئيا بإزالة النظم الرأسمالية الاستغلالية ، وإقامة المجتمع الاشتراكي على أنقاضه ، ويعرف هذا الاتجاه تاريخيا بالاشتراكية الطوباوية ، لأنهم انطلقوا في نقدهم للرأسمالية من مصلحة الفقراء ، فانتهوا إلى ازالة النظم الاستغلالية واقامة المجتمع الاشتراكي على أنقاضه ، وأبرز أعلام هذا الاتجاه Clerds Fourier ، Simon Robert Owe ... الخ .

ولكن السؤال المطروح يدور حول نشأة هذه الاشتراكية ولماذا عرفت بالاشتراكية الطوباوية ؟

وما تجدر الاشارة إليه ، ان اشتراكية سان سيمون تتميز بطابع تبريري ، حاول من خلاله تبرئة الرأسمالية بخصوص حق متلكات الطبقة العاملة ، بعيدا عن الحلول الثورية المبكرة : كالقاء القبض ، إزالة قوى الحكم

والعمل ... الخ لكافة افراد المجتمع ، التكامل الاجتماعي ، والرعاية الاجتماعية للعوقين ، وانطلاقا من ازالة الامتيازات الموروثة ... الخ[٢٥]

ويدعي أنه لاجدوى من هذه الفلسفة طالما لا تعلم أبناء الطبقة الاجتماعية ، وطالما لا يحارب الاستغلال بكافة مظاهره ، وهذا ما جعل (أ سان سيمون) ، الذي لم يؤكد على استئصال جذور الاستغلال وإنما انبرى بقيام مجتمع هرمي ، يقف على رأسه الملك ، يليه افراد المجتمع وفقا لتخصصهم وعبقريتهم ، مؤكدا على أهمية الصناع في توجيه المجتمع وعلى اهمية الصفوة الفكرية والتكنوقراطية بالنسبة لعملية الانتاج وزيادته، وبذلك فإن مجتمع سان سيمون مجتمع طبقي ، تتحكم فيه الطبقة الصناعية الجديدة[٢٦] .

وبذلك عرض هذه الاشتراكية الطوباوية ، لأن روادها مثاليون لكنهم يجهلون العوامل المحركة لتاريخ والمؤثرة في الحياة الاجتماعية . وقد انطلق هؤلاء العلماء من « فلسفة عصر التنوير »[٢٧] مؤكدين على أهمية المعرفة في عملية التغيير الاجتماعي الذي يرتكز على اختيار المفكرين ، فإذا ما صلح البنيان الفكري ، صلحت النظم الاخلاقية ، صلح المجتمع ، لقد كان هؤلاء العلماء على خطأ لعدة أسباب ، وأهمها أنهم لم يدركوا العوامل المؤثرة في تطور المجتمع ، كما أنهم لم يدركوا العلاقة القائمة بين الفكر والواقع الاجتماعي »[٢٨] حيث أرجعوا بؤس الانسان وشقاءه الى جهله وعدم معرفته ، وليس الى الواقع الاجتماعي ، كما أن مقالاتهم في تدبير الفلسفة عصر التنوير جعلهم ينظرون الى الصراعات الاجتماعية ، نظرة اخلاقية ، مثالية ، وهم وإن طالبوا بالغاء الامتيازات الموروثة والطبقية ، إلا أنهم اعتقدوا بوجود « عدم مساواة طبيعية »[٢٩] ، وحلت عندهم « ارستقراطية المواهب (أو التخصص) » بدلا عن ارستقراطية الوراثة[٣٠] ،

٢ ـ السان سيمونية في اطار النهضة الفكرية ، والاقتصادية ، والسياسية

ماهيتها :

هل هي كاصرة من مظاهر الاستعمار الثقافي والحضاري أو فاتحة عصر النهوض العربي ؟

إنه لا داعي لتكرار ، فيما لو عرضت الاتجاهات الاجتماعية المعروفة سابقا عرضا نقديا في إطار الفكر الاجتماعي العربي ، إذ ذلك ضروري ، لان العلوم الانسانية تتفاعل مع بعضها البعض ، وكذلك الحضارات ، وإن لم يكن هذا التفاعل يتم بصورة متكافئة [٣] ، وكلما خدمت المجتمعات حضاريا كلما زادت فعالية التفاعل العلمي والحضاري .

ولكن الآية تنعكس ، إذا حجرت المجتمعات عن العطاء الفكري ، وانتابها العقم الفكري ، وانصرفت بمفكريها للتقليد والترويج لمذاهب ونظريات اجتماعية غريبة عن مجتمعاتهم ، لا تخدم قضاياها وطابعها الحضاري المميز لها ، وكذلك اذا لم تكن الغرض من دراستها الاستفادة منها في عملية البحث الاجتماعي ، عندئذ تصبح الدراسة موضوع تبعية ثقافية ، وتؤسسة حضارية ، لها جذورها في التطور التاريخي للمجتمع .

إن ظاهرة التبعية بكافة مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي إحدى الظواهر المميزة للمجتمعات النامية [٣٦] ، وربما كان اول ما يتبادر الى ذهننا إذا أمعنا النظر في ظاهرة « التبعية » هو كون « المجتمعات

التابعة ، سلبت استقلالها الحضارية والاقتصادية والسياسية تبعية العلاقة غير المتكافئة القائمة بين مجتمعات استعمارية ، ومجتمعات مستعمرة ، والتي لها جذورها التاريخية في طبيعة هذه العلاقة الاستغلالية . ولما كانت هذه التي بين مجتمعات غير متكافئة من حيث التقدم الحضاري ، وكذلك في مراحل تاريخيه تميزت بسيطرة المجتمعات المسيطرة على اقتصاد المجتمعات التابعة [33] فقد أدت هذه العلاقة الى فرض حالة تبعيه على المجتمعات المتخلفة . هذه العلاقة عبرت عن ذاتها على جميع الأصعدة الاقتصادية والسياسية والحضارية ، وتمثلت ، التبعية الاقتصادية في توجيه الانتاج الاقتصادي للمجتمعات التابعة وفقا لحاجيات المجتمعات المتبوعة وذلك في اطار تقسيم العمل على الصعيد العالمي ، [34] ، فالانتاج الاقتصادي في هذه المجتمعات على ، تصدير المواد الأولية الغير المصنعة أو المنتوجات الزراعية في المجتمعات المتبوعة ، [35] ، على حين تمثل انتاج المجتمعات المتبوعة تصدير المواد المصنعة الى هذه المجتمعات التابعة .

ونعلل أن ما يترتب عن هذه العلاقة المتناقضة هو تحكم المجتمعات المتبوعة باقتصاديات المجتمعات التابعة ، والى التوزع والتبعية وتصديره ، في المجتمعات الرأسمالية ، وربط اقتصاده باقتصاد المجتمعات الرأسمالية ، مما يؤدي الى تشويه البنية الاقتصادية ، وجعلها أحادية الانتاج Mono Kulur ، معتمدة على انتاج مادة أولية واحدة كالقطن في مصر مثلا والسكر في كوبا والبترول في الدول العربية ... الخ إذن ان العلاقة المتناقضة بين هذه المجتمعات شوهت التطور الاقتصادي ببلدان نامية ، فبينما شهدت المجتمعات الاستعمارية في القرن التاسع عشر ثورات صناعية ، ساهمت في عملية التطور الاقتصادي ، وعرفت التراكم الاولي لرأس المال ، الناتج عن استغلال قوة عمل الفلاحين ، نجد أن المجتمعات الهامشية لم تعرف مثل هذا التطور ، نظرا لان فائض انتاجها لم يستغل فيها وانما في المجتمعات الرأسمالية .

وعليه ، فان تدوير البنية الاقتصادية للمجتمعات التقليدية هو عملية تاريخية وليس نتيجة لعمليات طبيعية [٣] ، وقد انعكست هذه الدينامية سلبا على البناء الاقتصادي لمجتمعات الدراسة ، ونجم عنه بعض مظاهر التخلف الاقتصادي ، ظاهرة تضخم قطاع الخدمات ، باعتباره قطاعا طفيليا ، وكذلك ظاهرة « الكومبرادور » المميزة لمجتمعات الدراسة ، إن هذا الكومبرادور تقوم بدور الوسيط التجاري بين المجتمعات الدراسة والمجتمعات الرأسمالية .

أما البنية الاجتماعية فتتمثل في أن التوجه التربوي للمجتمعات التقليدية قائم على الأسس التربوية والثقافية لمجتمعات الرأسمالية ، مدفوعا بذلك انماط هذه المجتمعات وقيمها ومعتقداتها الاجتماعية ، وتؤكدا على قيمها ومفاهيمها الحضارية .

اذا جاز القول أن المجتمع هو موضوع علم الاجتماع ، فانه يجوز القول ايضا أن علم الاجتماع هو نتاج المجتمع ، ولما كانت المجتمعات العربية تعيش حالة تبعية ، استتبع ذلك Akkulturation ، فانه من السهولة القول ان الفكر الاجتماعي العربي تكون الى حد ما على الدراسة التي تمثلت في استيراد مظاهر الحضارة الأوربية ، واضافة الثقافة الغربية ، وقيم ، ومعايير ، ومفاهيم المجتمعات الغربية وما ترتب عليها من اشاعة فكرية وثقافية حضارية في مجتمعنا العربي .

إن ازمة السوسيولوجيا العربية هي أزمة المجتمع العربي ، فالمفكر البرجوازي العربي الذي يعمل من السوسيولوجيا علما اكاديميا بحتا لا علاقة بتوظيفه وانه علم من أجل العلم وليس علما يخدم المجتمع ويدرس قضاياه ، بما ذات السوسيولوجيا وكذلك العلوم الانسانية مجردة وبعيدة عن النهج التقدمي ، وهو ملزم بتقصي المجتمع ، فانه لا يستطيع تحقيق ذلك المجتمع ولا في عملية التغير الاجتماعي ، وان تبقى علما معاديا لمصالح الجماهير .

تلك هي المعطيات التاريخية والاجتماعية لميزة مصر الذي ظهرت فيه فلسفة سان سيمون الاجتماعية : عصر البورجوازية ، والبعثة للطلبة للدراسة في أوربا ، وعصر الظلام والجهل في الوطن العربي من جهة أخرى ، إن عصر الرأسمالية الاستعمارية واقتسام خيرات الوطن العربي وخضوعه لحكم الاستبداد .

هذه هي وقائع التاريخ والصراع البشري ، أنها تحدد الاطار العام للفكر الاساسي ، وتدل هذه الوقائع على أن عصر نابليون ومحمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٠) تميز بالاستبداد الثقافي والاقتصادي والسياسي للمجتمع العربي ، فقول نابليون مشهور في هذا الصدد :

« لقد انهيت حرب (فاندي) واحتلالي الكاثلك ، واستولت على (مصر) باحتلالي الاسلام ، وسأقضي قريبا (بإيطاليا) باحتلالي مبادئ البابوية ، ولو ملكت شعبا يهوديا لاعدت هيكل سليمان [٣٧] .

إن سلوك نابليون بونابرت هو سلوك غاشم هدفه ، إنه سلوك عسكري يبرر باستخدام كافة الوسائل لتحقيق غايته : فاحتلال نابليون للاسلام يهدف الى استغلال مشاعر المسلمين الدينية ، واكتساب ثقتهم ، حتى يسهل عليه تحقيق غايته .

وبالرغم من لا نريد مقارنة سلوك نابليون بسلوك اتباع سان سيمون ولكننا لا نستطيع تجريد سلوكهم من المعطيات التاريخية والاجتماعية ، فالتبشير السوري في مصر هي ظاهرة من مظاهر الاستعمار الفكري والاجتماعي ، وقد انتشرت هذه ظاهرة في عهد الخديوي محمد علي ، الذي عرف بتقليده الاعمى لمظاهر الحضارة الغربية .

هذا هو الاطار العام والمحدد لتشبع فلسفة (سان سيمون) الاجتماعية

إنه منهج تاريخي قائم على تحليل وقائع التاريخ ووقائع العمران البشري ومستند عليها في تفسيره لظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، مخالفا في ذلك منهج الاتاريخي المتبع في دراسة المجتمع العربي ، وهكذا نجد بعض اساتذة العرب ، يرددون ان حملة نابليون في مصر كانت تهدف الى « تحقيق فكرة الامبراطورية العالمية » (٣) عن طريق شق قناة السويس وجعلها وسيلة للاحتكاك الثقافي والحضاري بين القارات ، كما ان جنودهم كانوا يرمون الى تطبيق فلسفتهم الاجتماعية هناك ولا سيما الصنع .

ان تطبيق التصنيع في مصر سوف يحد من انتشار الظواهر الاجتماعية المرضية المتربة على البطالة والكسل والخمول ، ويحول الفتحات العمر منتجة الى طاقات منتجة ، زيادة على ذلك ان ظروف العمل الصناعي تنمي من رابطة التعاون والتعاقد من العمال ، وتقضي على مخلفات العمر الاقطاعي ، وتجعل الانسان يحتل مكانه المناسب في البنيان الاجتماعي بعيدا عن وراثة الطوائف المميزة لعصر الاقطاع ، وذلك لان سان سيمون على حق في اعتبار العمل مصدر الاخلاق والفضائل ، هذا من الناحية الاقتصادية ، اما من الناحية السياسية فان دور السلطة السياسية لا يتعدى كونه دور توفيقية معقد توجه الانتاج ، ولذلك فان امل سان سيمون ان يحل الاقتصاد السياسي محل الحاكم في المجتمع الصناعي » (٣) لان عملية التصنيع تستخلق طرقا مساوية لسائر العمال ، ولا تجعل من الدولة أداة استغلال واحد أداة لتنظيم الاستغلال الجماعي للطبيعة .

ولذلك يرى سنت سيمون أن أخلاقيات العمل التي تميز بها المجتمع الصناعي سوف تخلصنا من الحواجز الكبرى ، وفي ذلك يقول :

« ولما كان انشاء مدرسة للطب ، ومدرسة للفرسان ، ومدرسة للمهندسين ، واقامة مزرعة نموذجية بشير الى جانب اعداد وتنفيذ مشروع قناة النيل ، تعد ادلة واضحة لمحاولات اتباع سان سيمون في تطبيق مذهبهم الاجتماعي رغم ما واجههم من صعوبات وعقبات ، فانه لا نستبعد النتائج السياسية المترتبة على هذه المحاولات ، فاذا كانت محاولاتهم لشق قناة السويس قد انتهت باستيلاء فرديناند ديليسبس على كافة المعلومات ... ثم تقريره للمشروعة السان سيمونية ، وانهيار المشروع صورة مبسطة لاستعمارية ، فان لا يحرم اتباع سان سيمون من تفكيرهم الانساني[٥٠] » .

ان الفكر المثالي التجريدي الاتاريخي ما زال مسيطرا على الفكر الاجتماعي العربي ، انه يتجاهل وقائع التاريخ والمجتمع ولا يتساءل عن الامكانيات الموضوعية لسان سيمونية وقدرتها على تحقيق عملية التحول الاجتماعي في مصر ، في حين ان السان سيمونية حركة بشيرية ظهرت في ذلك العصر ، ولامست بعض الشرائح التي حملت في نهاية المطاف الحركة الاستعمارية .

وعليه فان المنهج التاريخي غائبا ، ندعو هؤلاء الاساتذة الى احكام عقلانية ومقررات منهجية لا أساس لها ، فتارة يجعلون من حملة نابليون الى مصر فاتحة عصر التنوير العربي[٥١] وتارة يرجعون نشأة بعض النظم الاجتماعية العربية الى السان سيمونية وتارة الى الوضعية الفرنسية ، وفي حقيقة الامر ، انهم يعكسون بعض التربة والضياع الفكري لعلماء الاجتماع البرجوازي ، الذين استهوتهم دراسة السوسيولوجيا البرجوازية والابتعاد عن دراسة قضايا مجتمعاتهم وظواهره وازماته .

الفصل الثاني

1 ـ الداروينية الاجتماعية

[illegible] الجامعات الغربي في السوسيولوجيا تركت أثرا لا يستهان به على تطور الفكر الاجتماعي عند العرب، وربما كانت الداروينية الاجتماعية من أبرز هذه الاتجاهات: إذ كان دعاة وبشراء في العالم العربي مثل الجبلي شبيل وسلامة موسى ... الخ.

أما الداروينية الاجتماعية فترجع إلى Charles Darwin (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) الذي وضع عام ١٨٥٩ كتاب «أصل الأنواع» مؤكدا فيه على نظرية الانتقاء الطبيعي أو المحافظة على الجنس الأفضل من خلال الصراع حول الوجود، ويرى أن تنازع البقاء بين الكائنات يؤدي في نهاية المطاف إلى حفظ النوع الأفضل، إن البقاء لا يكتب إلا النوع الأفضل، أما الضعاف فهم محكوم عليهم بالفناء وقد أطلق «دارون» على ذلك «الانتقاء الطبيعي»، أما Spencer فأطلق عليه «البقاء للأكفاء».

إن الصراع من أجل البقاء سواء كان ذلك في عالم الحيوان، أم النبات، أم الإنسان يحسم الصراع دائما لصالح الكائنات القادرة على التلاؤم بشكل أفضل مع ظروف البيئة الطبيعية، وذلك من خلال حدوث التغير المطلوب في أجهزته، وتطوره تدريجيا، هذه التغيرات تتمثل في الميل بالوراثة من جيل إلى جيل، وهي تسهم عن طريق التغيرات في

الفيزيولوجيا العضوية تعتمد عملية الانتخاب الطبيعي ، وذلك من خلال الصراع حول البقاء .

على أن الداروينية الاجتماعية أخذت فيما بعد حركة سياسية واجتماعية تبناها المفكرون البرجوازيون الذين حاولوا تفسير التطور التاريخي والاجتماعي ، استنادا الى المعطيات البيولوجية ، مؤكدين على أن الظواهر الاجتماعية ذات طبيعة بيولوجية . وقد ذكر Limmow في كتابه « بحث حول العداء اساساً بين الاجناس البشرية » الذي وضعه عام ١٨٨٨ على العامل العنصري (العرقي) ، مبيناً أن « الجنس هو العامل الرئيسي المحرك للتاريخ[٢] » وان العامل خاص الجنس هو المحدد لكافة العوامل الاخرى ، كما بحث « جوبينو » خصائص كل شعب من الشعوب ، مؤكداً على أن العرق الآري يتسم بأفضل الخصائص ، وأن تفوقه الحضاري والاجتماعي يرجع الى الصفات البيولوجية المميزة عن غيره من الشعوب . « وفي الواقع توصل أنبياء المذهب العنصري في علم الاجتماع الى أن يجعلوا من العنصر ، أي ذلك المركب البيولوجي نوعاً من مخترعة آلية ، تتحكم في القدم البشري ، كما لو كانت قدراً لا مرد منه .... وعندما تجد علم الاجتماع مسرفاً في بيولوجيا ، فذلك هو المبدأ الذي صاغه (لابوج) حينما كتب في كتابه « منتجات اجتماعية » يقول : نفسر الظواهر الاجتماعية بالصراع بين العناصر الانثروبولوجية المختلفة ، وان التاريخ بأكمله ليس سوى عملية التطور البيولوجي[٣] » .

ومما يجدر الاشارة إليه أن النظرية العرقية أصبحت سلاحاً أيديولوجياً في يد النظم العالمية ، فمنذ ظهور الشعور العنصري النازي ، مارست هذه النظم الاستغلالية الرأسمالية قهرها[٤] واستغلالها للانسان ، ومن يومنا هذا ترجع النظم الرأسمالية ظاهرة التخلف في عالمنا

الظهور الى طبيعة الانسان وكسله وخموله ، متجاهلة طبيعة الاستغلالية الكامنة بين الجماعات الرأسمالية وبين المجتمعات النامية .

أما Gumplowicz (١٨٣٨ ـ ١٩٠٩) فقد أكد في كتابه « صراع الاجناس » ١٨٨٣ بأن الجنس هو العامل المحرك للتطور الاجتماعي ، ولكنه لا يفهم تحت الجنس (العرق) وحدة بيولوجية ، انثروبولوجية ، بل مفهوما تاريخيا واجتماعيا ، إن صراع الاجناس قانون اجتماعي ، أي أن كافة الحوادث الاجتماعية ترجع إلى الصراعات بين الاجناس المختلفة وبين الطبقات ، والجماعات ... الخ المتصارعة على السلطة ، لاستخدامها لاستغلال المقهورين ، إن صراع الاجناس يعتبر عاملا رئيسيا محركا للتاريخ ، وكما أشار Gumplowicz الى أن النظريات الاجتماعية أخفقت في تفسير أسباب انهيار الحضارات العظيمة والدول ويرجع في نظره الى اندماج الاجناس بعضها مع بعض وبسخط مطلق Gumplowicz ومن قبله Gobineau من النظرة الانثروبولوجية القائلة بأن الاجناس البشرية ظهرت مبكرا ، مستقلة عن بعضها البعض كما استخلص عن هذه النظرية إن تميز الاجناس أو اصطلح عليه عملية وراثية وثابتة ولكن مفهوم الجنس غير ثابت عنده ، فتارة يعني جماعات متميزة بيولوجيا ، وتارة اخرى يعني الجماعات المكتسبة لغة واحدة ، أو الجماعات المحددة سياسيا (الامة) ... الخ ولكن أثر محاولاته كان تهدف الى بيان التميز الحضاري للجنس الآري متجاهلا الحضارات الزنجية اليونانية والصينية والفارسية والعربية ... الخ .

لقد أصبحت النظرية الاجتماعية منهجا تاريخيا لتفسير التطور الاجتماعي وسلاح أيديولوجيا في يد البرجوازية الحاكمة ، تستخدمه لتبرير مصالحها وقهر الجماهير ، إن المعطيات البيولوجية والانثروبولوجية ، ليست العوامل التاريخية أو الاجتماعية هي المحركة للتاريخ ، إن شريحة

ارجع كثير من الطبيعة لا تعرف الشفقة والرأفة وكذلك فقد كثر الحديث في قواميس الداروينية الاجتماعية عن مقولات : الارادة القوية ، والبراعة الارادة الاجتماعية وعن فلسفة القوة ، وعن نظريات الانسان السامي التي تحدث عنها الفيلسوف الالماني Nietzsche [10] ، الذي تأثر بالداروينية الاجتماعية .

أما التمايز الخلقي والاجتماعي فلم يفسر ماديا ، ولا تاريخيا ، وانما بيولوجيا وهو أن الطبقات والفئات الاجتماعية المتهورة (طبقة العمال ، والنساء والمتخلفين ... الخ) هي جماعات غير مؤهلة بيولوجيا للبقاء وتحسين وضعها الاجتماعي ، ويدعي أن هذه النظريات العرقية لم تؤيد الديمقراطية والمساواة ، والثورات الاجتماعية [11] ، أما تفسيرهم للصراع القومي فيرجعه الى ان القوميات الآرية متفوقة على غيرها من القوميات وهي حاملة الحضارات العظيمة . اما القوميات الصغيرة المتهورة فهي مؤهلة للفناء ، إن عدد النظريات مائة وطبقية ولا تاريخية لانها تدافع عن مصالح الطبقات الرأسمالية وتبرر مصالحها على حساب الطبقات العاملة ، فهي من جهة ومن جهة أخرى تجاهلت الداروينية الاجتماعية أن الفلسفة الاشتراكية لا ترجع الى تحول الاجناس الآرية [illegible] الاستعمار والاستغلال الذي مارسته الرأسمالية الاوربية في آسيا وافريقيا [illegible]

[illegible]

٢ ـ الداروينيون الاجتماعيون العرب

كانت نظرية داروين في النشوء والارتقاء إحدى الايديولوجيات الاجتماعية التي أثرت على الفكر الاجتماعي العربي ، ومن أبرز دعاة الداروينية الاجتماعية شبلي شميل ، وسلامة موسى ، فقد اتخذ كل منهما من الداروينية الاجتماعية منهجا لتفسير التطور الاجتماعي والتاريخي ، وهي نظرية اجتماعية ، معتمدة على المسلمات الطبيعية والبيولوجية في تفسيرها الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ومعنى ان الداروينيين الاجتماعيين لا يهملون دور الانسان في التاريخ ، ولكنه يقل حيوانا بيولوجيا : وليس Homo Economicus (حيوانا اقتصاديا) أو حيوانا اجتماعيا Homo Sociologicus (٩) وليس كائنا خاضعا للمحددات الكيميائية والتكوينية للفيزيولوجية كعامل أساسي في تطوره وارتقائه ، وليس الانسان بهذا المفهوم الداروينية الاجتماعية هو العامل البشري بمعناه الواسع الذي يعني الجماعات البشرية والاجناس المختلفة التي تكون النوع الانساني ، أما الجماعات البشرية المحددة ، فتشير عند شبلي ، وفقا لمبدأي : التنازع والبقاء ، والانتخاب الطبيعي (١٠) .

إن الاشكالية الرئيسية التي تشغل الكثير في تطبيق مفاهيم الفيزيولوجيا المعروفة في الجسم الاجتماعي ، واعتبار الانسان كائنا بيولوجيا ، وفي اخضاع تطور وارتقاء العمران البشري لعملية قوانين بيولوجية غير مستندة الا الى مراقبة عشوائية ، وتبدأ أيضا في تشبيه رجال

وربطت المجتمع بين وظائف الكائن العضوي، تجعله الطبيعة الاجتماعية والتاريخية للإنسان .

واستنادا الى مقارنة تطور الجسم الاجتماعي بالكائن العضوي نجد الدارونيون الجدد، المفاهيم الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، والسلوك الاجتماعي، والصراعات الاجتماعية كذلك النظم الاجتماعية، إن الكائن العضوي يتألف من أعضاء مختلفة، لكل منها وظيفة خاصة وتعتبر الخدمة، والعدالة، فكل منها تعمل وتؤدي وظيفة تحفظ الشكل أو كافة الاعضاء تعمل بما تحتفظ على ذاتها وسواء أنها في مرتبطة مع بعضها ارتباط عضوية وظيفيا، وعلى غلب يتوقف الطور التدريجي Evolution الكائن العضوي .

إن مثل الاجتماع البشري العضوي في وظائفه الخاصة والعامة : إنه مركب من أعضاء مختلفة تعمل لعون وتعتمد فالزارع غير ما يعمل الصانع والصانع غير ما يعمل الزارع : وكل من الزارع والصانع والراعي لازم للآخر في هذا التعامل كالحي تماما، ولا تقتصر هذه التبادلية على الخدمة فقط، بل تتناول أيضا : فقد الجسم وتوله حتى إن القوى الكبرى من حيوان تم تركيب أعضاء وهي الغدة وتعالها حياة الضاء ... والشرة والمعالج تحصيل الغذاء ... والمعدة وتعالها توزيع الغذاء ... وإن القوى الكبرى في العمران ثلاث كذلك : وهي الصناعة ... والحكومة ... والتجارة[1] ... .

إن عملية التطور العضوي تقتضي تعاون وترابط الاعضاء مع بعضها البعض : وتماسكها الوظيفي، وكذلك المجتمع وأعضائه، فانه يتعين عليهم أن يقوموا بوظائفهم الاجتماعية حتى يتم الترابط والتماسك الاجتماعي، وأن تجري أمور وشؤون Description يتعكس على العلاقات

الاجتماعية . إن الصراعات الاجتماعية لا تعبر في نظر الداروينيين الاجتماعيين تعبيرا عن التناقضات الاجتماعية ، وانما عن خلل وظيفي . وفي هذا الصدد يقول شسل :

« إن ارتباط اعضاء الجسم الاجتماعي بعضها ببعض على الصورة التي ذكرناها يجعل التأثير الواقع على العضو الواحد يستدعي ضرره الى سائر الاعضاء . فالشرع (المقصود المشرع) كالطبيب يلزمه ان يكون حكيما في مداواة هذا الجسم الاجتماعي لئلا يداوي علة في عضو فيحدث علة في عضو آخر . فالالتفات الى طائفة من الناس وترك سواها ينمي الملكات فيها بما ترعاه الشركة وتفقد البقية من اعضاء الاجتماع ، إذ تصبح هذه على طرفي الضعف والقوة ، فيختل نظامه ويؤول به الحال الى السقوط والاضمحلال[٢٠] » .

إن الصراعات الاجتماعية ليست سوى تعبير عن الخلل الوظيفي في عضوية الكائن الاجتماعي ، انها ظاهرة مرضية وليست اجتماعية . ولما كانت الاجتماعات أجساما طبيعية وليست صناعية[٢١] فان التطور يأخذ مجراه الطبيعي ، وتدخل التوازن الاجتماعي فائدته ، فانه يوجب الا يكون التغير الحاصل في الجسم الاجتماعي فجائيا وطفرة ، بل تدريجا وتطورا ، موافقا لارادة الكائن الاجتماعي ومصلحته .

ويتضح للعيان ، أن الفلسفة الاجتماعية لشباي شسل تنطلق من مفهوم التطور التدريجي ورفض التغير النوعي والثوري ، فالتطور عملية تدريجية ومستمرة ، خاضعة لنواميس الطبيعة ، وعملية التنازع والبقاء ، والانتخاب الطبيعي وحول ذلك يقول شسل :

« فالنتيجة الكبرى للتحسينات في فسيولوجيا الاجتماعات انما هي

تفضل التطور أنما هو الاتفاق ، الذي لا يقر شيئا إلا تدريجيا ، وبعد أن يمر الزمني عليه [12] » .

وإن لم يستبعد فعل الثورة الفسيولوجية في بعض الأحيان ، إلا أنه يؤكد وأن التطور هو القاعدة وأما الثورة فأمر شاذ ردىء غالبا ، وإن كان نافعا أحيانا [13] » .

إن عملية التغير الاجتماعي تدور في فلك التطور العضوي ، وأي تغير وهي ، مهما كان مصدره ، يعود الى اختلال التوازن الاجتماعي ، إن مرجع التطور تخضع لمبدأي : تنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعي .

« من دقق النظر في تاريخ الاجتماع البشري رأى أن نصيب الأمم من تقدم وترقوف وارتقاء وانحطاط وانتشار وانقراض يتوقف على عوامل طبيعية تضمها ناموس عام يسمى « تنازع البقاء » يؤدي ضرورة الى ناموس آخر يسمى « الانتخاب الطبيعي » فما من أمة قامت أو انقرضت ، ارتقت أو انحطت ، إلا كانت عوامل هذين الناموسين هي الغالبة في ذلك ... فالتنازع سنة هذا الكون والانتخاب نتيجة هذا التنازع . هذا شأن الانسان في العمران منذ أول نشأته ، وما زال هذا شأنه ، حتى اليوم وإن يزال كذلك حتى انتهى ... والحكومات مظهران وهي تختلف باختلاف الأمم ، فكل أمة في العمارة يختص حكومتها كذلك وهو معنى قوله وكما تكونوا يول عليكم [14] » .

إن التحليل التاريخي لتطور المجتمع يبين لنا انه ليس ضروريا أن تعبر الحكومة عن واقع الشعب أو ارادته ، وطالما لا تجسد السلطة الارادة الشعبية وتعبر عن مصالح الشعب في ملكيته لوسائل الانتاج ، ومشاركته في صنع القرار السياسي ، فانها تبقى أداة قسر وقهر ، وسلاحا بيد

البرجوازية الحاكمة سلطة ضد الطبقات المقهورة ، إن ذلك ينطبق تماما على تركيا المعاصرة[1] التي تحدث عنها شين في هذا الصدد : فهي لم تكن تعبيرا عن مصالح الجماهير ، وانما اداة استبداد وقهر قومي واجتماعي ، قد عفا عليها الدهر ، لعدم توفر أسباب القوة فيها ، وتفشى فيها التفكك الاجتماعي والصراع السياسي .

ما أهم الدعائم الضرورية لوحدة المجتمع فيما يرى :

« وأسباب القوة في العمران كثيرة وترد الى أربعة كما قدمنا ، الدين طبيعيان وهما العدد والجنس والثلاثة أديان وهما الدين والعلم ، ولا ريب ان كل امة كثر عددها وتشعب جنسها ، واختلفت وتعددت دينها وبعد العهد فيها انقضى مبلغه في عمره لقدر من القوة يبلغ حتى لها الغور في استدراج الشارع والشد بالضد ، فوحدة الجنس ووحدة الدين لا يمكن لانحلال الكلية وإلا كان الاشتقاق ، وهو من دواعي الضعف ، والعلم وهو ضروري عند لاتقان الصناعة والزراعة وسائر الفنون التي تكثر منها الثروة والثروة حسب الاجتماع ، كما يقول ابن خلدون[2] » .

ولما كانت هذه الدعائم الاساسية للرابطة الاجتماعية والتماسك الاجتماعي غير متوفرة في الامة العثمانية ، فانه محتوم عليها بالفناء ، انها تفتقر الى مقومات الوجود ، فهناك قوميات مقهورة لا جنسها الا بقسوة الاستبداد ، وهناك الجهل والتخلف ، ان هذه العوامل تدين على ان الامة العثمانية اركانها الشخوخة ، وداءها المزمن ، فالامة العثمانية ... تعاني علة بحكم النواميس الاجتماعية ، التي هي في صرامتها كالنواميس الطبيعية بالتشدد والانفصال ، فقد ادركها الشيخوخة والهرم فهي تتأرجح على الموت ، فلا يقيها دعاة تركيا الفتاة ولا تحيط تركيا الفتاة بعد ، وتخبط لا يشفان الا بتعجيل الانحلال وبسرعة الاضمحلال »[3] .

ان دعاة الداروينية الاجتماعية الغرب يسيرون على دين آبائهم ، فهم من أنصار التطور التدريجي الطبيعي ، فالتغير الاجتماعي ينبغي أن يكون بديلا من القفزات النوعية والجذرية ، وبذلك فقد أعرضوا الصراعات حدث النظم الاجتماعي على أنها تعبر عن خلل وظيفي في التكيف الاجتماعي ، وليس تعبيرا عن المصالح والعلاقات الاجتماعية المتناقضة ان عجزهم عن فهم وتفسير تطور وقائع الصراع البشري يكمن في منهجهم اللاتاريخي ، وفي تنزيههم للمجتمع بالكائن العضوي ، وشتان بينهما . ان هذه القدرة ان دلت على شيء ، فانما تدل على جهل الداروينيين الغرب بوقائع الصراع البشري وتطوره .

مما سبق يبين لنا أن علم الاجتماع البرجوازي ذو طابع مثالي ، ويتمثل ذلك في ارجاعه العوامل المحركة للتاريخ الى الصفوة الاجتماعية او الى القائد الملهم أو الى الفكر ، متجاهلا لطبيعة النظم الرأسمالية القائمة على النمو الطبقي والظلم الاجتماعي ، ولذلك فان علم الاجتماع البرجوازي علم تجريدي ، لا يهتم بدراسة البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وأثرها على العلاقات الاجتماعية وأشكالها ، كما أنه لا ينطلق من تحليل الواقع ، وتفسيره ، وتغييره لصالح الانسان ، وانما من مقولات ومفاهيم مجتمعة ، كالنظام ، والمؤسسات ، والتدرج ، والقيم والحضارة ، مجردا إياها من أية علاقات تاريخية واجتماعية محددة .

وفي تقديرنا فانه مهما تمايزت مناهج السوسيولوجيا البرجوازية في تناولها للظواهر والنظم الاجتماعية الا انها تتفق ببعض السمات المميزة لها عموما ، وهي كونها لم توجه السوسيولوجيا لخدمة الوجود الانساني ، وتحرير الانسان من كافة أشكال الظلم الاجتماعي والطبقي والقومي ، وانما جعلت منه منهجا نظريا لا علاقة له بالوجود الانساني ، وبحتمية عملية التحرر الانساني ، ان ذلك ما يميز كافة الاتجاهات السوسيولوجية

البرجوازية كالنظرية الوضعية ، والسيكولوجية والاجتماعية والصورية ، ونظريات الحراك الاجتماعي الخ .

ان منهج السوسيولوجيا البرجوازية عاجز عن فهم البنية الاساسية كما أنه لا يهدف الى تحرير الانسان ، وخدمة قضاياه الوجودية ، وانما الى خدمة المصالح البرجوازية الضيقة ، ولهذا الظروف التاريخية التي واكبت نشأة علم الاجتماع البرجوازي خير دليل على ذلك ، فقد اتسمت هذه الظروف بتحولات بنيوية جذرية ، وبتهاوض البرجوازية الفرنسية وبزوغ عصر الثورة الصناعية في أوربا . ولذلك كانت محاولة A. Comte أوغست كونت من أسس السوسيولوجيا هي عادة تنظيم المجتمع على أسس علمية وسعيا بغية تجنيبه الأزمات والاختلالات على حد تعبيرهم ، ان الثورة الفرنسية لم تكن بالنسبة اليهم تعبيرا عن التناقضات الاجتماعية والطبقية ، وانما أزمة اجتماعية ، يمكن التغلب عليها ، اذا أعيد تنظيم المجتمع على أسس عقلية سليمة .

هذا هو النهج الذي تميز به كلاسيكيو السوسيولوجيا البرجوازية ومحدثوها كما أن كافة الاتجاهات الحديثة (مدرسة العلاقات والصراعات ومدرسة Parsons بارسونز وغيرهم الخ) تسير على نفس المنوال ، واذا كانت محاولات دور كهايم ودراسته للظاهرة الاجتماعية تشكل نسبيا قفزة الى الامام ، اذا ما قورنت بمثاليات أوجست كونت ، فان محاولات ماكس فيبر تشير بدلالاتها السياسية والاقتصادية ترمي الى بيان بقائية النظم والمؤسسات البرجوازية وتدعيمها ، واذا كان دور كهايم قد حصر الكل المجتمعي مصدرا للظواهر والنظم الاجتماعية فان ذلك لم يتخذ من عقلانية النظم البرجوازية مبررا لشرعيتها ، ولذلك فان السوسيولوجيا البرجوازية ليست حيادية وموضوعية في احكامها ومواقفها الاجتماعية ، كما يدعي اتباعها ، وانما تبني الايديولوجيا البرجوازية وتدافع عن مصالحها .

الفصل الثالث

اطروحات اولية حول السوسيولوجيا العربية

١ ـ توطئة :

ان التغيير الذي الذي أحدثه الاستعمار في المجتمع العربي من جراء تجزئته جغرافيا ، وتشويه بنيته الاقتصادية والحضارية ترك اثرا لايستهان به على البنية الفكرية ، وربما كانت ظاهرة الاستلاب الثقافي من أبرز واخطر ما خلفه الاستعمار في المجتمع العربي ، ومع أن الاستعمار قد رحل عن القسم الاعظم من مجتمعنا ، الا أنه ما زال يتولى على افكارنا ، وبحدد سلوكنا ، دون أن ندري ، وما لك الا أن تنظر الى واقعنا العربي ، حتى ترى الصراعات الاقليمية ، والطائفية ، تشل قدرتنا ، وتقف حائلا أمام تحقيق المجتمع القومي ، ان الاستعمار يحاول دائما فصل المجتمعات عن تاريخها ، وتشويهه ، ووضعها خارج التاريخ وفكر ما أن تتخلص هذه المجتمعات من الاستعمار ، حتى تعود لتبحث عن ذاتها واصالتها ، وتكوين شخصيتها القومية والحضارية ، ان عملية التكوين القومي والحضاري ، والبحث عن الذات والاصالة والقضاء على كل مظاهر الغربة الشعب العربي لم تأخذ ابعادها الحقيقية ، أما أسباب ذلك فترجع الى البنية السياسية والطبقية لنظم الحاكمة ، التي استولت على مقاليد السلطة في المجتمع العربي ، والتي لم تهتم بالمصالح القومية ، بقدر ما اهتمت بمصالح الحكم والسيطرة ، وليس هنا مكان للبحث في هذا الموضوع ، لان ذلك يحتاج الى دراسة متخصصة وشاملة ، ومع ذلك لا بد من الاشارة الى أن التغيير الاجتماعي الذي حدث في المجتمع العربي بعد الاستقلال كان شكليا وليس جذريا ، فلم تحطم كافة البنى الاقتصادية والسياسية ، والفكرية ،

والواقع الجديدة لتنظيم المجتمع العربي اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ، على أسس مستمدة من الذات والحضارة العربية ، وذلك وفق النظم الفكرية والاقتصادية والاجتماعية الموروثة هي السائدة . إن ذلك ان دل على شيء فانما يدل على طبيعة النظم السياسية العربية الاسلامية ، واخفاقها في احداث قفزة نوعية تستند كافة القيم والمعايير الغايبة التي خلفها الاستعمار ، ان تجاه هذا يتعلق على منهج السوسيولوجيا الانسانية عموما ، والاجتماعية خصوصا ، فالسوسيولوجيا العربية لم تأخذ دورها الاجتماعي الصحيح بل ما زالت تعاني من غربة اجتماعية ، ان نظرنا الى الواقع ما زالت مجرد تابع في ذلك شأن كافة العلوم التي لم تأخذ دورها في عملية التنمية الفكرية والقومية ، وكذلك في خدمة الانسان العربي وحريته .

وهنا تكمن أزمتها ، وتكون أزمتها هي ازمة الواقع الاجتماعي بمختلف الجسم موضوعها ، وهي تابعة ، فان نهاك علاقة بين السوسيولوجيا العربية وبين الجسم العربي ، فهي تعكس ازمة المجتمع والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ان السوسيولوجيا دورا انسانيا وهدفه خدمة الوجود الانساني وحرية الانسان ، وتتم ذلك من خلال دراسة مشاكل الوجود الاجتماعي وحلها ، وكذلك من خلال تنمية الانسان ، والمساهمة في التنمية القومية ، وكون السوسيولوجيا العربية ما زالت لم تساهم في عملية البناء الحضاري ، ان ذلك دليل على أزمتها الاجتماعية ، ان على السوسيولوجيا أن تدرس الأسباب التاريخية لظواهر التخلف السياسي والحضاري والاقتصادي ولا يجرد الوقائع الاجتماعية عن سياق التطور التاريخي كما أنه عليها المساهمة في عملية البناء القومي وتكوين الشخصية العربية المستقلة .

اذن ، ان بناء الانسان العربي حضاريا ، واجتماعيا ، والعودة الى الذات والتاريخ يقتضي ان تتحرر العلوم الانسانية من كافة المؤثرات التي لا تخدم وجود الانسان العربي وحريته ، فهي السوسيولوجيا العربية تلا وان مصلحة الانسان العربي وأهدافه القومية التحررية وذلك لان المسألة القومية هي مسألة الوجود أو العدم ،

ان تحقيق ذلك يتطلب اعادة النظر في السوسيولوجيا العربية ، من زاويتي المنهج والموضوع ، وكلاهما متصلان مع بعضهما البعض ، فالمنهج هو الأداة لتشريح الواقع وتفسير ظواهره ، وذلك حتى يتم تغييره بشكل يخدم مصلحة المجتمع والانسان ، فبينما تعتبر الماركسية المادة التاريخية اساسا نظريا ، ومنهجيا للسوسيولوجيا الماركسية ، فانه ينبغي على السوسيولوجيا العربية أن تنطلق من الفكر القومي ، متخذة منه أداة لتفسير وفهم التطور الاجتماعي والتاريخي ، ومعتبرة المبادىء القومية التحررية أساسا للفكر والسلوك الاجتماعي ، انه ينبغي ان يكون للسوسيولوجيا العربية أرضيتها النظرية والمنهجية ، اللازمة لدراسة قوانين تطور الحياة الاجتماعية ، هذه المنهجية ليست مجردة ونظرية ، وانما أداة لتحليل الواقع ، فلا يجوز تجريد النظرية عن الواقع وعن البحث العلمي ،

وعليه ينبغي على السوسيولوجيا العربية أن تكون أداة لمعرفة الحياة الاجتماعية وقوانين تطورها ، ومما يميز السوسيولوجيا العربية عن علم الاجتماع البرجوازي ، كون الاول يخدم مصالح الشعب العربي القومية التحررية ، بينما تنحصر وظيفة علم الاجتماع البرجوازي على خدمة مصالح طبقة واحدة ، وضمان سيادتها ومصالحها ،

هذا من الناحية المنهجية أما من ناحية الموضوع فانه ينبغي علينا أن ننظر الى المجتمعات العربية الاسلامية نظرة شاملة ، ونعتبرها وحدة مترابطة

فلا بد من العودة الى أصوله ، ولكي يسهل علينا فهمه ، يتوجب علينا تقسيمها الى مراحل ، وأهمها :

١ ـ الفكر الاجتماعي عند العرب قبل الاسلام ،

٢ ـ الفكر الاجتماعي عند العرب بعد الاسلام ،

٣ ـ الفكر الاجتماعي عند العرب في مرحلة النهضة ،

٤ ـ الفكر الاجتماعي عند العرب في العصر الحاضر ،

هذه أهم المراحل ، وسنكتفي في هذا البحث بالحديث عن :

٢ ـ الفكر الاجتماعي عند العرب قبل الاسلام :

انه من الصعوبة بمكان دراسة تطور الفكر الاجتماعي عند العرب في هذه المرحلة ، نظرا لقلة الوثائق والمخطوطات والدراسات حول هذه المرحلة ، لكن لو حاولنا دراسة جغرافية البيئة وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعي (المورفولوجيا الاجتماعية) عندئذ يتكون لدينا فهم البيئة الاجتماعية وتطورها ،

بما أن للبيئة الطبيعية أثر كبير في تحديد النشاط الاقتصادي ، فمعظم الصحراء الجافة جعلت العرب يعتمدون على الرعي وتربية المواشي في شتى مجالاتها الضرورية ، ولهم لم يعرفوا الزراعة الا في المناطق الساحلية وعلى ضفاف الأنهار ، حيث مارسوا النشاط الاقتصادي في الرعي ، وعرفوا السهول والروابي لتجمع مياه الأمطار لكي يستفيدوا منها في الزراعة والري ، بالرغم من أن القرآن الكريم اشارة واضحة الى الحضارة الزراعية عند العرب ، والى بساتينهم في قارة السعودية الحالية ، يعتقد أن النشاط الاقتصادي لسبأ الزراعة والري والتجارة ، والعرب عرفوا منذ

أقدم العصور التجارة الداخلية والخارجية ومسار زاد في تعاملهم التجاري هو الموقع الاستراتيجي الهام لجزيرة العربية بين آسيا وافريقيا وأوربا .

أما العلاقات الاجتماعية فكانت طبقية ونظامية ، ولقد كان المجتمع العربي يتألف من ثلاث طبقات : الاحرار ، وهم العرب الصرحاء أي وأما ، والمتمتعون بحريتهم ، والعبيد ، وهم الذين لا يملكون شيئا من الحرية الاجتماعية ، اذ غدوا تابعين لأسيادهم بحكم الأسر أو الشراء . والموالي وهم الذين استعادوا حريتهم من عؤلاء العبيد بفضل ما أدوه من خدمات وإذ بد سمح به أسيادهم من تحرير رقابهم . وتحرير العبد لا يقطع الصلة بينه وبين سيده ، بل تقوم بينهما على الأثر صلة ولاء تعمل على عقد الصداقة بين العصبية . أما الوحدة الاجتماعية فالأسرة ، وهي تضم ، فضلا عن افرادها ، الجواري والعبيد والاتباع . ولم يكن للعرب قبل الاسلام قانون مدون ، انما كانوا يحتكمون حسب التقاليد ويخضعون للعرف والعادة وقد جروا على تعدد الزوجات واقتناء الجواري ، وعرفوا النزوة ، وتاجروا بالمجاعة والكرم وعراقة النسب واشتدوا في طلب الثأر ، وساءه العرض ، وتلبية الاستغاثة ، وعشقوا في لهوهم — الى شرب الخمرة ، ولعب الميسر ، والسباق على ظهور الخيل »[1] .

ان الحياة البدوية في الصحراء تتميز بالتنقل وعدم الاستقرار ، والانسان في صراع دائم مع الطبيعة ، سعيا وراء اشباع حاجاته الضرورية أما الوحدة الاجتماعية الاساسية فهي القبيلة ، التي تعتبر كيانا سياسيا واجتماعيا ، فعليها تقع مسؤولية حماية أفرادها اذا ما تعرضوا لاعتداءات القبائل الاخرى ، وكانت تنتشر العلاقات الاجتماعية بين أفراد القبيلة ، وبينهم وبين أفراد القبائل الاخرى .

والنظام السياسي عند العرب يقوم على أساس القبيلة ، فالقبيلة

في الوحدة السياسية عندهم ، وهي في الأصل تتكون من جد واحد ، ثم تنقسم الى عدة عشائر تتكاثر بسرعة ، بما ينضم اليها عن طريق الحرب والولاء ، فتعدد قبائل مختلفة تعرف باسم الجد الذي استقل بها ، أما الرابطة التي تجمع بين أفراد القبيلة الواحدة ، أو بين العشائر التي تنسب الى قبيلة ما ، فتعرف بالعصبية ، وعلى أساسها — كما ذكرت — حدثت الحروب والتكتلات السياسية عندهم »[1] .

أما الصراعات القبلية فكانت تحركها العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من أجل القوة والمكانة الاجتماعية ، فالولاء القبلي كان قويا ، وهو شكل من أشكال الوعي الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية ، وكذلك العصبية فهي أيضا ظاهرة اجتماعية تحدد الرابطة القوية بين أفراد القبيلة .

وكانت هذه الظواهر الاجتماعية هي نتاج البيئة الطبيعية الصحراوية التي فرضت على الانسان العربي سلوكيات معينة ، اذ نمط حياته ، وعيشه في الصحراء ، والتجاوز في المؤسسات السياسية ، جعلته يعتمد على نفسه في مواجهة الصعوبات ويتميز بالشجاعة ، والكرم ، وحب الحماية ، وصدق الفراسة ، وأخذ الثأر ، وما اشبه ظاهرة النسب بالظاهرة الاجتماعية في رحلته وبعده في الصحراء حيث ظاهرة النسب تحدد هويته وشخصيته والتجاه الدموي ، أما ظاهرة الوثنية فكانت أيضا تعبيرا عن أثر البيئة الطبيعية الانسان ، كانت الظاهرات الدينية تشد ظاهرات السلوكي في الجاهلية ، فكل بعضية التجاه البشري المتفوق ، فحين كان النظام القبلي المثالي لا يزال سائدا في حياة الجاهليين ، ولا يزال يسود مجتمعاتهم القبلية على أساس من رابطة الدم والنسب الذي يحدودها ، كان الوثنية وجدت هي الأخرى لتساند ، وتدعم الأنساب التي تقوم في وجهها سدودا عالية ، وتحول دون اختراق العلاقات البشرية لأنساقها التاريخية وتكاملها بجزر ، وعدوا ، وهي — أي الوثنية — على ذلك من حيث

تجربة أولا تبسيطا ساذجا لعلاقة الإنسان بالشيء الشيئية وظواهرها ذات التأثير المباشر في حياته اليومية . فالرؤية تصور هذه العلاقة كعلاقة مسيطرة مطلقة قدرية ثابتة وتبدو على الإنسان (٣) لقد كان لتعامل البيئة الطبيعية مع البيئة البشرية أثر كبير في تحديد طبيعة النظم والظواهر الاجتماعية ، وبالتالي في تحديد التنظيم الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية . فكانة هذه الظواهر تعبر عن علاقة الإنسان بالطبيعة وصراعه معها ، وما تفاوت الأهرام الطبيعية إلا وجها من وجوه خضوع الإنسان للطبيعة ، وعجزه عن تغيير الظواهر الطبيعية . وكذلك الشعر الجاهلي فانه يكشف عن مكنونات الطبع البدوي ، وعن الخلق الأخلاقي للبدوي العربي ، والتي عبر عنها لغطة المروءة ، والمروءة عناصر تكوينها هي الشجاعة والوفاء والكرم ، (٤) فالشعر العربي هو تعبير صادق عن المجتمع الجاهلي البدوي وعن التركيبة القبلية .

* * *

٢ ـ الفكر الاجتماعي عند العرب بعد الاسلام

١ ـ الاسلام كثورة اجتماعية :

كان الاسلام ثورة اجتماعية بمعنى طبيعي على كافة مظاهر النظم الاجتماعي الجاهلي ، وقد وضع حدا لمجتمع الجاهلية والبداوة ، وانتقل بالعرب الى مجتمع الحضارة والاستقرار ، إذ مظهر النظم الاجتماعي المتمثلة في البنية الاجتماعية العربية ، وانقسام المجتمع الى أسياد وعبيد ، الى طبقات وقبائل متصارعة ومتنافسة فيما بينها من أجل القوة السياسي والاجتماعي ، وان كافة هذه العلاقات الاجتماعية القائمة مهدت السبيل لمقولة الشعر الثوري الديني الاسلامية .

ولم تقف الثورة الاسلامية عند حد من الحدود ، وان كانت ثورة اجتماعية بمعنى انها نسفت كافة النظم السائدة في العصر الجاهلي ، فعلى صعيد النظم الدينية ، حظر الاسلام كل مظاهر العنصرية والوثنية ، وألغاء الوحدة الدينية بين المسلمين التي تعتبر أساسا للوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية إن الرابطة الدينة كانت العامل الرئيسي في وحدة المجتمع الاسلامي ، فالعقيدة الاسلامية التي تسلح بها المسلمون ، اصبحت قوة مادية صانعة للتاريخ ومؤثرة في مسيرته ، وهذا ما نراه اليه جون جاك روسو في مجرى حديثه عن المجتمع العربي في كتابه العقل الاجتماعي [٥] مبينا ان الخصائص الخلقية والفكرية والاجتماعية التي تسلح بها المسلمون ، وابتعادهم عن كافة مظاهر الحضارة المادية الفاسدة ، جعلتهم ينتشرون حضارتهم الجديدة بسرعة فائقة وبخلاف نظريات علم الاجتماع الديني :

وخاصة نظريات Max Weber التي ترعم أن الإسلام دين العرب ، كان وشر الدعوة الإسلامية بقوة السيوف والرماح ، مجردة الإسلام بذلك من روحه الاجتماعية والانسانية ، يرى روسو Rousseau : أن أهم العوامل الساعدة على نشر الحضارة الإسلامية تكمن في أن الإسلام دين الفطرة ، انطلق ضد رفض الحضارة المادية التي بدأ ما استولت على نفوس قوم أذنبهم ، وفككت أواصرهم .

وسواء أكان (روسو) قد تعرف على فلسفة ابن خلدون أم لا ، فان موقفه من ظاهرتي البداوة والحضارة لا يختلف عن آراء ابن خلدون ، الذي رأى الحضارة المادية رفضا قاطعا ، فاذ استولت المادة على نفوس الناس ، أنسدت روابطهم الاجتماعية والدينية ، وانقلب الناس ذئابا على بعضهم البعض ، وكان ذلك ايذانا بهدم المجتمع وانهياره إن (روسو) متفق مع (ابن خلدون) في أن مجتمع البداوة مثالي ، قائم على الفطرة النقية ، وله مثله وقيمه ومعاييره المستمدة من الإسلام ، وهذه القيم هي التي حكمت سلوك المسلمين وجعلت الإسلام اداة محركة ومدفعة للتاريخ والحضارة ، وبذلك يؤكد (ابن خلدون) على أن الحضارة الإسلامية ، التي توفق بين الروح والجسد ، ولا يطغى أحدهما على الآخر ، فضلا عن ذلك فان مفهومه الحضاري مفهوم انساني ، فهو يرى في الحضارة رسالة وقيما انسانية ، وليس قيما مادية بحتة فعلى غاية التوازن بين جانبي الحضارة المادي والانساني يتوقف الرابط الاجتماعي ، ولما كانت الحضارة قيما ومعايير اجتماعية انسانية ، أكثر منها مادية ، فان المجتمعات المتحضرة هي المجتمعات المتماسكة ، والتي تسودها العلاقات الانسانية النقية ، وتسود فيها العلاقات الاجتماعية الانسانية اما المجتمعات المتحضرة ماديا ، فمحكوم عليها بالفناء والانهيار .

لقد جاء الإسلام ، مبشرا بالقيم الخلقية والانسانية ، داعيا

ثار والتجارة الخارجية .

ى الحرية والمساواة ، والى التكافل الاجتماعي ؛ ورافضا لسائر مظاهر الانقلابية الجاهلية ، واصبح القرآن شريعة المجتمع ودستوره . فمنه صدرت كافة التشريعات المنظمة لنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كتحريم الربا ، وتنظيم العلاقات الانتاجية وتحطيم العلاقات الاقطاعية القبلية ... الخ ؛ وبذلك أصبح الدين أساس الفكر والسلوك الاجتماعي ، ومصدرا للمثل العليا .

هذا على صعيد النظم الدينية ، أما على صعيد العلاقات والنظم الاجتماعية فان الدين الاسلامي دين اجتماعي ، وهو المصدر الاساسي لتنظيم المجتمع الاسلامي والعلاقات الاجتماعية ، وبما انه انطلق من الحقوق الطبيعية للانسان ، فقد حارب كافة مظاهر الاسترقاق والعبودية والظلم الاجتماعي وصان الحريات ، ونظم علاقة الفرد بالمجتمع ، كما نظم الزواج والطلاق ، وطالب بحقوق المرأة ، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات معززا بذلك الروابط الاسرية ، كما عنى بالتكافل الاجتماعي ورعاية الاجتماعية ، فالمجتمع هو المسؤول عن رعاية افراده وتقديم المساعدة لهم في حالة الحاجة ، فضلا عن ذلك وحد الاسلام الثقافة ، فالعرب مشتركون في لغة واحدة وهي اللغة العربية الاسلامية ، ولهم تاريخ وتراث حضاري واحد ، وديانة واحدة ، وهي لغة القرآن الكريم ، إن هذه الوقائع التاريخية والاجتماعية والحضارية أرست حجر الاساس للقومية العربية والشعور العربي المشترك الذي يربط بين العرب جميعا ، وعليه إن من الخطأ حقا أن نبحث عن جذور القومية في القرن التاسع عشر كما يفعل البعض ، معتبرين في ذلك حركة القوميات في أوربا ، متجاهلين مقومات القومية العربية ، التي أرسلها الاسلام ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فعلينا أن نعتبر وقائع التجزئة ، وقائع طارئة ، وليست حقائق تاريخية ثابتة ، فللقومية العربية أبعادها التاريخية والحضارية التي ترجع الى الحضارة الاسلامية .

٢ ـ النظم الاقتصادية

أ ـ النظم التجارية :

ساعدت الفتوحات الاسلامية في تطور التجارة الداخلية والخارجية وكان لاتساع رقعة الخلافة الاسلامية وتنوع منتجاتها الزراعية والصناعية أثر ايجابي في النشاط التجاري . ومن أهم العوامل المنشطة لتجارة الخارجية الموقع الاستراتيجي للجزيرة العربية بين القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوربا . الأمر الذي جعل المدن العربية تجني أرباحا طائلة من تجارة الترانزيت والتجارة الخارجية .

وبعد فتح الاندلس (٧١٤ ـ ١٤٩٢) صار البحر الابيض المتوسط بحيرة عربية داخلية ، فعلى جزيره سردينيا ، وكورسيكا أقام العرب قواعد بحرية[٤٧] ، كما انهم في عام ١٠١٦ م عاملوا تجارية هامة من الهند الى الخلافة الاسلامية[٤٨] . ووصل نشاط العرب التجاري الى الصين والى بقاع أخرى من العالم ، وحتى يسهلوا عملية التبادل التجاري قاموا بصك العملة . كما تخلوا عن استعمال العملة البيزنطية والفارسية ، كما أوجدوا نظام للصرف وطوروا نظام المعاملات المصرفية .

وبذلك الوقت أصبح للمدن العربية مكانتها في ميدان التجارة ، وانتشر فيها الناحية التجارية في تخطيط المدن الجديدة كالكوفة والبصرة ، وهذه المدن تستند الى ثلاثة مراكز ، المسجد ، الجامع وهو المركز الاجتماعي ـ السياسي ، ودار الامارة وهي المركز الاداري ، والسوق وهو المركز الاقتصادي ، وقد جعل وسط المدينة جنب المسجد[٤٩]

ولذلك كان العرب مراعاة العوامل الاقتصادية في تخطيط المدن ، فغالبا ما كانت هذه المدن تقع على مراكز تجمع الطرق التجارية الهامة ، أما اهم البضائع التي كانت تصل الى اسواق دمشق وبغداد وغيرهما من المدن الحرف والحرير والمسك من الصين ، والعسل والشموع والفرو من روسيا والعاج والاصباغ ، وكذلك ارسلت الامصار عواصم مناطقها بحرا وبرا في القوافل ، فالازر والحنطة والكتان من مصر ، والزجاج والاقمشة الصوفية والفواكه من الشام ، والقماش الحريري والقصب والفولاذ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرير والعطور والبقل من فارس والهند .

إن تطور البنية التجارية جعل طبقة التجار وبخاصة أهل الحرف المختلفة تحتل مكانة مرموقة في العصر العباسي .

كما اهتم العرب المسلمون بالصناعة ، ولا سيما بصناعة الاسلحة والآلات الحربية كالسيوف والرماح والدروع ، إن براعة المسلمين في الصناعة الحربية يرجع الى طبيعة حياتهم الفترة سياسية والى الفتوحات الاسلامية ، اذ كان على العرب ان يبرعوا في هذا الميدان حتى يغلبوا عدوهم ويقهروهم ، ولكن ذلك لا يعني ابدا أنهم لم يهتموا بالصناعات الاخرى ، ولا سيما صناعة الازياء والحلي والآلات : كالنسيج ، والاصباغ والورق والزجاج والفخار ، وكذلك ادوات الزينة للنساء ، والآلات الفلكية وأهمها الاسطرلاب لقياس ارتفاع النجوم ، فضلا عن ذلك عرف العرب صناعة السفن ، والتوابيت .. الخ .

ب ـ النظم الزراعية :

مما لا شك فيه أن البيئة الطبيعية أثرت في تطور البيئة الاجتماعية عند العرب بعد الإسلام ، ولكن العوامل الاجتماعية (الدين) تتميز بأهمية خاصة بالنسبة لتطور الظواهر الاقتصادية ، لقد أصبحت إرادة المجتمع أقوى من إرادة البيئة ، وانتقل المجتمع العربي بفضل الإسلام من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة ، إن ذلك يتعلق التأثير الذي أحدثه الإسلام في التنظيم الاجتماعي العربي ، وفي التحولات البدوية ، الناجمة عن ذلك ، إن متطلبات المرحلة الجديدة ، الناجمة عن اتساع رقعة الخلافة الإسلامية ، والحاجة إلى جيش دائم ، وتأمين احتياجاته دفعت بالبدو إلى الاستقرار ، والعمل في ميدان الانتاج الزراعي والحرفي ، وعليه فقد كان الدين الإسلامي ذا تأثير خاص بالنسبة لانتشار ظاهرة البداوة وانتشار ظاهرة التحضر [٩١] ، فضلا عن ذلك فقد كان للعامل الديموغرافي أهمية خاصة بالنسبة لتطور عملية الانتاج ، إذ أدى زيادة الكثافة السكانية بعض الدول الإسلامية على اهتمامها بتزايد الانتاج الزراعي ، ولا سيما للزراعة المكثفة ، القائمة على نظام الري الدائم ، وهي الري الاصطناعي والطبيعي ، ولذلك فقد شهد الانتاج الزراعي في العصرين الأموي والعباسي تطورا حثيثا ، وعمت وسائل الري الاصطناعي والطبيعي كافة أنحاء الخلافة الإسلامية ،

أما الملكية فكانت متنوعة ، فالأرض ملك للمسلمين ووقف عليهم ، وبعد فتح الشام والعراق ظلت الأراضي الواسعة ، التي جلا عنها أهلها ، هي بيت المال ، ولكن الخلفاء قطعوها لمن شهدها بالزراعة والغراسة ، وأشبه عرف بالقطائع ، وكان على مستغليها أن يسددوا الضرائب إلى بيت المال ، وحول ذلك كتب فيليب حتي يقول :

، إلى الأرض وما يجبى من أهلها ليست غنيمة بين فيلما يصرف في مصالح الجماعة الإسلامية ، كذلك فإن من يقوم بحراثة ما هو في يده من البلاد فعليه أن يؤدي خراجا لا يسقط بالإسلام ، وكان كل ما أصابه المسلمون من موارد البلدان التي فتحوها يجب أن يودع في بيت المال ويصرف في مصالح المسلمين كأداة الحكومة وشؤون الحرب بما فيها الجيش وما زاد على ذلك تقسمه بين المؤمنين » (١٢٠) .

إذن لعب الإسلام دورا أساسيا في تطور عملية الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري ، كما نظم العلاقات الانتاجية ، وأقامها على أساس المساواة والعدالة في التوزيع وحارب كافة مظاهر الاستغلال والقهر الاجتماعي والطبقي ، كما صهر كافة المسلمين في بوتقة واحدة ، بحيث أن المسلم بغض النظر عن جنسيته القديمة أصبح حين اعتنق الإسلام وتعلم العربية وكثيرا يعتبر من أبناء العربية » (١٢١) ، أما أهل الذمة فقد حفظ لهم الإسلام حقوقهم وتعهد على تنظيماتهم الاجتماعية ومؤسساتهم الدينية ، وقوانينهم وأعرافهم ، كما نظم الإسلام علاقاتهم مع العرب ، وحفظ حرياتهم العامة ، وحرية العقيدة والملك ، نظير جزية يدفعونها الى بيت المال ، وكان للذمي نفس حقوق المسلمين .

وهكذا تكونت الهيئة الاجتماعية من العرب المسلمين ، والموالي ، وأهل الذمة .

ج ـ النظم الدينية والقضائية :

وعلى الصعيدين الديني والتشريعي كانت للخلافة سلطة دينية وزمنية إن الخليفة هو إمام المسلمين وهو الذي ينظر في الشؤون السياسية والدينية والقضائية .

« والخليفة هو حامي الدين والمدن المأهولة ... يفرض عنه تسع أهل الزيغ والإلحاد والمارقين ، ومحاربة البدع ، وتوسيع حدود دار الإسلام »

وكان يستند في تنفيذ هذه الامور الى سلطته الزمنية » (١٤) .

هذا ما كان عليه الحال في العصر الاموي ، ولكن تطور الحياة الاجتماعية في العصر العباسي جعل مهمة التشريع تصبح من اختصاص فقهاء ، شأنهم في ذلك شأن الادارة التي اشرف عليها المتخصصون في السلك الاداري ويذكر العالم الالماني Johannes Heuri في كتابه « الاسلام وأثره على حياة اتباعه أن هذا التطور اقتضى ظهور المتخصصين في الشريعة والقانون » (١٥) وأن وحدة السلطتين الدينية والقضائية لم تعد كما كانت عليه في العصر الاموي ، بل خضعت لمقتضيات التطور الاجتماعي والاقتصادي ، إذ اتساع رقعة الخلافة الاسلامية ، والتفاعل الثقافي والاجتماعي للشعب العربي مع شعوب البلاد المفتوحة دفع العرب لوضع نظم التشريعية ، القائمة على طريقة الاجتهاد بالرأي ، وعلى منهج المعرفة العقلانية ، اذ ان مسألة المعرفة في الاسلام تعتمد على مصدرين ، المصدر الالهي ، والمصدر العقلاني .

« إن اصول العقيدة وقواعد الشريعة هي جزء من اشكال المعرفة ، واذا كانت هذه المعرفة إلهية المصدر ، وحيدة المصدر ، فالمؤدى اللازم عن ذلك هو أن كل ما يتعلق بمعرفة أصل العالم ومسائل الوجود وقوانين الطبيعة والمجتمع والفكر ، مرجعه ومصدره غير الجهاز الادراكي الذي يتمتع به الانسان ، وغير علاقات هذا الجهاز مع العالم المحسوس ، وإذا كان الامر كذلك ، فان مقتضى الايمان بالدعوة الاسلامية ، اذن ، أن نتلقى هذه المعرفة بالتسليم المطلق ، اي دون ان يكون لنا الحق ولا القدرة على الجدل في شيء من ذلك ، لان الجدل يتضمن الشك ، والايمان يتناقض مع الشك (١٦) » .

ومما تجدر الاشارة إليه ان نظرية المعرفة الاسلامية مستمدة من

القرآن والسنة ، بيد أن نظرية المعرفة الإسلامية فسحت مجالا كبيرا للاجتهاد بالرأي وللمعرفة العقلانية .

إذن لقد تميزت الفلسفة الاجتماعية الإسلامية بطابع عقلاني لم تعد غرضها البحث عن ماهية الوجود وطبيعته ، ولا عن الحقيقة المطلقة ، لأن العرب عرفوا ذلك بواسطة الوحي الإلهي كما أبعد المسلمون الأوائل عن التفلسف ، لأنهم أخذوا عن القرآن ما ينبغي أن نعرفه عن الوجود والله والإنسان ، وعن هذا التصور ظهرت بوادر تفكير اجتماعي عند العرب ، كان أبرزها : الفارابي ، ابن سينا ، وابن خلدون ، وهذا ما ميز الفلسفة الاجتماعية الإسلامية عن غيرها ، فخلاف الفلسفة الأوروبية ، التي كانت ذات طابع مثالي لاهوتي ، وظلت قارصة سلطانها على المجتمع حتى القرن التاسع عشر ، والى ان قامت الثورة الفرنسية ، وحطمت النظم الإقطاعية المستبدة وتمخضت عنها تحولات بنوية لمجتمعات حديثة ، أجهضت على الفلسفة وأنهت دورها الاجتماعي ، وعوضا عن الفلسفة ، التي كانت تعبر عن مرحلة اجتماعية معينة ، ظهر علم الاجتماع الذي انصرف لدراسة قوانين المجتمع ونظمه وتطوره ... الخ ، بخلاف ذلك كله لم يكن موضوع المعرفة في الفلسفة الاجتماعية الإسلامية ، يدور حول الفكر المثالي ، وانما حول فلسفة المجتمع وتطوره ، إن الفرق بين الفلسفة الاجتماعية الأوروبية من جهة وبين الفلسفة العربية من جهة أخرى جلي وواضح ، فبينما ، كان علم الاجتماع الأوروبي يجسد مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي وهي مرحلة النهوض البرجوازي وانهيار نظام الاقطاع ، فان السوسيولوجيا العربية استمدت نفسها وقواعدها من الإسلام ، وعلى أساس هذه القواعد ، أقام عمالقة الفارابي وابن خلدون صرح تصوراتهم الاجتماعية حول المدينة الفاضلة .

٤ ـ الفارابي والمدينة الفاضلة

بعد الإسلام تكونت العلوم العربية مما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكذلك من التعاليم الدينية ، ومما اقتبسه العرب عن الأمم الأخرى من علوم وفنون ، وكان لحركة الترجمة أثر لا يستهان به في تنشيط العلوم الاجتماعية عند العرب ، حيث ترجم العرب العلوم المختلفة عن اليونانية والفارسية .. الخ ، ونتج عن هذه الحركة العلمية تغيير في الحياة الاجتماعية والفكرية أدى الى ظهور بوادر فلسفية اجتماعية تمثلت في محاولات الفارابي وابن سينا وابن خلدون ، ومع أن الفارابي قد تأثر بمنهج أرسطو ولقب بالمعلم الثاني ، نسبة الى أرسطو المعلم الأول ، إلا أن هذا التأثر لم يكبله ولم يتمكن على الفلسفة الاجتماعية للمدينة الفاضلة ، فحين نقارن مدينة الفارابي بجمهورية أفلاطون نلاحظ كثرة الفوارق بينهما ، كالفارق بين مجتمع الفارابي الذي يشمل جميع أمم الأرض والذي هو ـ عند الفارابي ـ أكمل أنواع الاجتماع البشري ، ودولته الكبرى الجامعة أفضل دولة تنال به السعادة ، وبين مجتمع أفلاطون الذي يقتصر على مدينة صغيرة كاليونان وإسبارطة ، ولا شك أن لهذه الفوارق جذورها الدينية والتاريخية ، فالعامل الديني قد شكل هذه الفلسفة الفارابي الاجتماعية ، كما أن الظروف التاريخية انعكست على هذه الفلسفة وأعطتها طابعا مميزا لها عن الفلسفة اليونانية ، وهذا ينطبق على الفرق ما بين نظرة الفارابي الى المجتمع الكبير الواسع ونظرة أفلاطون الى المجتمع الصغير الضيق ، فإن الظروف التاريخية لفلسفة أفلاطون هي ظروف العلاقات العبودية وتفرق مدن اليونانيين بعضها عن بعض كأشكال مجتمعات غير متكاملة وغير مترابطة ، فضلا عن كونها متحاربة ، فهي ـ لذلك ـ

كانت مجتمعات مغلقة ، وكان العمل فيها منحصراً في طبقة الأسياد دون العمل اليدوي (عملية الانتاج المادي) كان منحصراً في طبقة العبيد ، لتكون الفلسفة اذن تعبيراً عن وجهات نظر الأسياد وحدها .

من هنا حصر أفلاطون قيادة الجمهورية بالفلاسفة ووقف الفلسفة على طبقة من الشعب ، هي وحدها المؤهلة لقيادة الجمهورية . وبالرغم من أن أفلاطون عاش في عهد سيطرة الديمقراطية العبودية ، كان عدواً لهذه الديمقراطية ذاتها وكان كتابه « الجمهورية » و « القوانين » رفضاً لهذا الشكل من الديمقراطية ، ولكن حتى مفهوم الديمقراطية في عصر أفلاطون كان يتسم بالطابع الارستقراطي العبودي ، اذ كانوا يفهمون الديمقراطية كسلطة منتجة من قبل الفئة التي هي الأكثرية في المجتمع (٨٠٪) ليس على الديمقراطية في أثينا ديمقراطية شعبية ، وانما عبودية ، حيث ان أكثر من نصف سكان أثينا كانوا عبيداً محرومين من كافة الحقوق ، بالاضافة الى فئة العبيد نجد الطبقة الوسطى ، التي عملت في قطاع الانتاج الحرفي ، وفي الملاحة البحرية ، أو كسبت قوتها من الأعمال الموسمية ومن المكافآت التي كانت تقاضاها لقاء مشاركتها في الاجتماعات الشعبية (٥) . أما الطبقة الحاكمة فهي طبقة الأسياد ، المكونة من الملاك العقاريين الذين سيطروا على الانتاج التجاري والزراعي ، لقد كانت الصفوة العليا في الديمقراطية اليونانية حكراً على الفئة الحاكمة ، وهي طبقة الأسياد ، أما الطبقات الأخرى ، ولا سيما طبقة العبيد والنساء ، فكانت محرومة منها .

إن جملة النظريات التاريخية والاجتماعية انعكست على ملامحهم الاجتماعية ، بيد أن اختلافهم في الرؤية السياسية والاجتماعية لا ينفي ابداً أن الفارابي لم يتأثر بالفكر الأفلاطوني ، ولا سيما بأفكار أفلاطون وارسطو ، وفي كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » يتناول الفارابي هيكلة المجتمع وطبقاته المختلفة ، وأشكاله وتطوره ، أما غاية المجتمع الفاضل فهو تحقيق السعادة

وهو ينطلق من مقولة أرسطو «إن الانسان مدني بالطبع» ، والمدنية تعني هنا التعاون وضرورة الاجتماع للانسان ؛ فحياته لا تستقيم إلا بالتعاون ، كما ان السعادة لا تنال إلا بالتعاون .

وكما يتضح فان الفارابي لا ينطلق في فلسفته الاجتماعية من الفرد وانما من الجماعة ، فلا وجود للفرد خارج الجماعة ، وهذا ما تتضمنه عبارة «مدنية الانسان» ، ان وجود الانسان مرتبط بالجماعة (الاسرة ، القرية ، المدينة ، الامة ، المنطقة ، الخ) ، أما تعليل ذلك فهو أن اشباع الحاجات الانسانية لا يتم إلا بالتعاون ، وإذا كانت هذه الحاجات تتطور كلما تطور المجتمع البشري ، فان اشباعها يقتضي تعاون الجماعات البشرية وزيادة اعتمادها على بعضها البعض ، فكلما ازدادت الكثافة السكانية ، كلما تطورت الحاجات الانسانية ، وكلما تعددت الوظائف الاجتماعية ، وتطور تقسيم العمل ، واصبح اعتماد الوحدات الاجتماعية على بعضها البعض ضرورة وجودية .

«وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه وفي ان يبلغ افضل كمالاته إلى اشياء كثيرة لا يمكنه ان يقوم بها كلها هو وحده بل يحتاج الى قوم ليقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج اليه» (٣٠) .

ان الانسان كائن اجتماعي يشارك الكائنات الاخرى في ظاهرة «المدنية» ولكنه ينفرد عنها لكونه هو المخلوق الوحيد ، الذي يبدع الحضارة ، فهناك اذن فرق بين السلوك الاجتماعي والسلوك الحضاري وذلك لان الاول فطري ، بينما الثاني مكتسب ، فالانسان بفضل حواسه قادر على الاستفادة من تجارب وخبرات الاجيال السابقة ، بينما يظل سلوك الكائنات الاخرى الاجتماعية رتيبا ، مقتصرا على رديد الفعل . ان الفارابي لا يتناول هذا الموضوع بالتفصيل ، ويكتفي بالاشارة الى ضرورة الاجتماع للانسان .

وانطلاقا من ذلك بحث الفارابي في أشكال التجمع الانساني منقسما إياه الى مجتمعات ، يعتبرها كاملة ، وأخرى غير كاملة ، والكاملة يقسمها إلى ثلاثة اقسام ، عظمى ووسطى وصغرى ، فالعظمى تشتمل على سكان المعمورة ، والوسطى على سكان الامة ، والصغرى على سكان المدينة ، وأما المجتمعات الغير كاملة فهي أيضا ثلاثة أنواع ، اجتماع أهل المحلة أو القرية ، واجتماع أهل السكة واجتماع أهل الاسرة .

ان دراسة الفارابي لاشكال التجمع الانساني خضعت لعاملين ، أولهما العامل الديني ، حيث تحدث الفارابي عن مجتمع المعمورة ، الذي يتخذ من الاسلام دينا ، يقتضي طاعة ولي الامر ، طالما لم يخرجوا عن الشريعة ، والعامل الثاني هو العامل الاقتصادي ، ان المجتمع العالمي الاسلامي ينبغي أن يكون قادرا على الاكتفاء الاقتصادي وعلى اشباع حاجات الرعايا المسلمين ، ولما كان الاسلام سلطة روحية ودينية ، فانه يعتبر مصدرا لكافة النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتشريعية الخ ، وعليه فالمعمورة هان المجتمع الكامل هو الذي تخضع نظمه المختلفة لموجهات السلوك الديني ، وتنظيم شؤونه بمقتضى ذلك ، فالسلوك الاجتماعي لا يخضع إلا للقيم والمعايير الدينية ، وهي وحدها المحددة لسلوك الانسان .

ويتناول الفارابي البنية الاجتماعية لمدينة الفاضلة من وجهة نظر مشابهة للنظرة المتطرفة ، منطلقا في ذلك من الحديث الشريف ، مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر » .

ان الجسم الاجتماعي أشبه ما يكون بالكائن العضوي ، الذي يتكون من مجموعة من الاعضاء المترابطة والمتعاونة ، ولكل عضو أهميته ودوره في حياة الكائن العضوي ، كما أن أعضاء الجسم العضوي متعاونة في

أعضائها ، ويصير القلب أبرزها ، فكذلك شأن رئيس المدينة الفاضلة ، فهو أساس سعادتها ، ومصدر سلامتها ، فمنزلته من سائر الأفراد كمنزلة القلب من أعضاء الجسم . ولما كان رئيس المدينة الفاضلة إذا كان هذا شأنه ، كان لا بد من توفر خصال فيه ، يستحيل توفرها في شخص عادي .

« وكذلك ينبغي أن تكون المدينة الفاضلة ومن اجتمعوا كلها ينبغي أن تحتذي بأفعاله حذو مقصد رئيسها الأول على الترتيب ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن ان يكون أي انسان اتفق ، لان الرئاسة انما تكون بشيئين ، أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معدا لها ، والثاني بالهيئة والملكة الإرادية » [٢١] .

ان رئيس المدينة الفاضلة لا يستمد سلطته من العرف ولا من الشريعة المتلائمة ولا من مؤهلاته القيادية ، وانما يستمدها ويستحقها اذا توفرت فيه شروط الكمال الروحي والمادي والجسمي والخلقي والنفسي ، وإلا فانه غير معد لهذا المقام ، عليه ان يكون حكيما ، فقيها ، عالما ، ومثلا يحتذى به ، واذا لم تجتمع هذه الصفات في شخص واحد ، جاز ان يلي المدينة الفاضلة اكثر من شخص واحد ، على ان لا تعطى الرياسة المثلى إلا لشخص توافرت فيه بعض الشروط ، أهمها ان يكون حكيما وعالما .

اما غاية السلطة فيرجعها الفارابي الى حاجة المجتمع الى القانون الاجتماعي ، لتنظيم شؤونه ، وإقامة العدل ، وتهذيب السلوك الانساني ، لان النفوس الانسانية تتغالب وتتصارع ، فالناس يتغلبون أحيانا على بعضهم البعض ، اذا انعدمت القوانين والضوابط الاجتماعية .

« والأشياء التي يكون عليها التغالب هي السلامة والكرامة واليسار والملذات وكل ما يوصل به الى هذه » [٢٢] .

ولا نعلم فيما اذا كان الفارابي يرى بأن الانسان شرير بطبيعته ، وبذلك يتفق مع الفيلسوف الانجليزي Hobbes ، لانه يؤكد على ان افراد المجتمع يتغالبون ويتنازعون فيما بينهم من أجل سلامة أبدانهم ، وكرامتهم ، وملذاتهم ، ان العلاقات الاجتماعية تحكمها صراعات بين الافراد انفسهم ، وبينهم وبين المجتمعات ، وعليه فان التكامل الاجتماعي ذو دلالة حتمية للمحافظة على السلام الاجتماعي .

وكما نرى فان الفارابي يرى بأن وحدة الجماعة وترابطها تفترض الترابط والتكامل الاجتماعيين ، وقيام النظم الشريعة ، فضلا عن دلالة هناك عوامل أخرى لابد منها لوحدة المجتمع ، ولعلها الرابطتين الدينية والقومية ، وحول ذلك يكتب الفارابي :

« وقوم رأوا أن الارتباط هو بالايمان والتحاف والتعاهد على كل ما يعطيه كل انسان من نفسه ولا ينافر الباقين ولا يخالفهم وتكون ايديهم واحدة في ان يعاونوا غيرهم وان يدفعوا عن انفسهم غلبة غيرهم لهم ، وآخرون رأوا ان الارتباط هو بتشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة واللسان وان التباين بأبين هذه ، وهذا هو لكل امة ، فينبغي ان تكون فيما بينهم متجانبين ومتنافرين عن سواهم ، فان الامم انما تتباين بهذه الثلاث » (١٣) .

ان عاطفي الدين والقومية هما من اهم العوامل للمحافظة على وحدة المجتمع وترابطه ، وتباينهما تباين للمجتمعات ، ان تباين التباين بين المجتمعات ليس اقتصاديا ، وانما دينيا وقوميا ، وحضور الصراعات الاجتماعية بين المدينة الفاضلة والمدن الضادة للمدينة الفاضلة والمتخلفة عن النظم السليمة للمدينة الفاضلة ، تكمن في العصبين الديني والقومي .

خلاصة القول : لقد تناول الفارابي النظم الشريعة والاجتماعية

والسياسية للمدينة الفاضلة ، ولكنه لم ينطلق من دراسة الواقع الاجتماعي ، وقوانينه ، وتطوره ، وانما انطلق من تصوراته المثالية القائمة على « يجب ان يكون » وليس على ما هو كائن ، ولكي وان كانت مدينة الفارابي الفاضلة لا تعكس الواقع الاجتماعي ولا تمكننا من الوقوف على تطور النفس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، (لان هناك علاقة متبادلة بين الفكر والواقع ، ولا يجوز تجريد الفكر عن الواقع) فانها تظل معبرة عن بعض الاتجاهات الفكرية لذلك العصر .

* * *

المراجـع :

الفصل الاول

السوسيولوجيا وازمةالمجتمع الغربي

1 – Emile Durkeim : Die Regeln dersoziologischen Methode. Berlin 1965 . ص ١١٢ .

٢ – نفس المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

3 – Michel Dion : Soziologie und Ideologie. Frankfurt 1975 . ص ٦٦ .

٤ – نفس المصدر السابق ، ص ٦٦ .

5 – H Schoeck : Geschichte der Soziologie. Freiburg 1974 . ص ٣٦٢ .

6 – Was ist Aufklaerung. Stuttgart : Reclamausgabe 1975 . ص ٢٩ .

٧ – نفس المصدر السابق ، ص ٣٢ .

٨ – نفس المصدر السابق ، ص ٣٧ .

٩ – انظر المصدر السابق ، ص ٤٦ .

١٠ – انظر نفس المصدر السابق ، ص ٤٧ .

١١ – انظر نفس المصدر السابق ، ص ٥١ .

انظر

12 Denis Diderot : Enzyklopaedie. Philosophie und gelehrsamkeit. Deuc, Muenchen 1958 . ص ٣٠ .

13 — Franz Lehrecht : Der Fortschrittsgedanke, Wiesbaden 1974 ,
ص ٧٠ .

١٤ — نفس المصدر السابق ، ص ٧٧ .

١٥ — نفس المرجع السابق ، ص ٧٨ .

16 — J. Hoeppner : Von Babauf bis Blanqui, Leipzig 1975, Bd. II,
انظر ص ٩٥ .

١٧ — نفس المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

١٨ — انظر نفس المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

١٩ — انظر نفس المرجع السابق ، ص ١٣١ .

٢٠ — نفس المرجع السابق ، ص ١٣١ .

٢١ — نفس المرجع السابق ، ص ١٣١ .

22 — W. Hoffmann : Ideengeschichte der sozialen Bewegung,
ص ٤٨ .

23 — Werner Sombart : Sozialismus und sozial Bewegung in 1
٢٤ — نفس المرجع السابق ، ص ٢٧ .

— ٢٣ —

25 — J. Hoppner : Von Babeuf bis Blanqui, Leipzig, Bd. II,
ص ١٢٢ .

٢٦ — انظر نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

27 — Werner Sombart : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢ .

٢٨ — نفس المرجع السابق ، ص ٣٢ .

29 — J. Hoppner : Von Babeuf bis Blanqui, Bd. II ,
مرجع سبق ذكره ص ١٦٠ .

33 - W. Hoffman : Ideengeschichte der sozialen Bewegung.

مرجع سبق ذكره ص ٥٢ .

٣٤ـ انظر كتاب عبد الله العروي : الايديولوجية العربية المعاصرة ، بيروت ١٩٧٠ .

٣٥ـ يعالج هذا الموضوع في اطار ما يعرف باسم « Dependenztheorie » انظر حول ذلك

Andre Frank : Kapitalismus und Unterentwicklung in Lateinamerika, Frankfurt 1975 .

٣٦ـ يطلق تعبير مجتمعات « متبوعة » على المجتمعات الرأسمالية ، ومجتمعات تابعة او حاشية على المجتمعات الثانية .

36 — Handbuch 2: Unterentwicklung, Hrsg. VonVolkhard Brandes u. a., Frankfurt 1975 .

ص ١٢٧ .

٣٧ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

٣٨ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

٣٩ـ أخذ عن كتاب غوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر) دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص ٩٢ .

٤٠ـ محمد علت عيسى ، اتباع سان سيمون في مصر ، فلسفتهم الاجتماعية وسيرتها في مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١١١ .

٤١ـ نفس المرجع السابق ، ص ١١٨ .

٤٢ـ محمد علت عيسى : سان سيمون ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص ٩٤ .

٤٣ـ انظر فاروق ابو زيد : عصر التنوير الغربي ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٦ .

الفصل الثاني

الداروينية الاجتماعية

1 — Charles Darwin : Die Entstehung der Arten, Stuttgart 1872 (Reclamausgabe) , ص ١٧٦ .

2 — Fausto Squillace : Die soziologischen Theorien, Leipzig 1911 ص ٨٢ .

٣ — ارمان كوفليه : مقدمة في علم الاجتماع (ترجمة السيد محمد بدوي) دار المعرفة بمصر ، ص ١٧٥ .

4 — Gabor Kiss : Einführung in die soziologischen Theorien II, Opladen 1975 , ص ١١ .

5 — Paul Barth : Philosophie der Geschichte als Soziologie, Leipzig 1915 , ص ٢٦٦ .

6 — Rahn Dahrendorf : Die angewandte Aufklärung, München 1968 , ص ١٢١ .

٧ — يرجع هذا الظهور الى العالم الالماني R Dahrendorf

٨ — ليلي شميل : كتاب فلسفة النشوء والارتقاء ، الجزآن الاول والثاني مصر ١٩١٠ ص ٢٤٨ .

٩ — نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ٣٦ .

١٠ — نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ٥٠ .

١١ــ نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ٤٠ .

١٢ــ نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ٤١ .

١٣ــ نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ٤٢ .

١٤ــ نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ١٩٠ .

١٥ــ نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ١٩٠ .

١٦ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٩١ .

١٧ــ نفس المرجع السابق ص ١٩٤ .

الفصل الثالث

اطروحات اولية حول السوسيولوجيا العربية

١ ــ كمال اليازجي : معالم الفكر العربي في العصر الوسيط ، بيروت ١٩٦٩ ص ١٨ .

٢ ــ نفس المرجع السابق ص ١١ .

٣ ــ حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ، بيروت ١٩٧٨ ص ٣٢٥ .

٤ ــ فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ، بيروت ١٩٦٥ ، الجزء الاول ص ١٣١ .

5 — Jean Jacques Rousseau : Der Gesellschaftsvertrag, Frankfurt/M (Taschenbuchausgabe) 1978 . ص ١٥٧ .

ينظر

6 — Max Weber : Wirtschaft und Gesellschaft, Berlin 1964, erster Halbband . ص ٨٠ ــ ٨٢ .

7 — G. E. von Grunebaum : Der Islam in seiner klassischen Epoche (632 — 1258), Stuttgart 1969 . ص ١٧٠ .

8 — A. Mez : Die Renaissance des Islam, Hildesheim 1968 . ص ٤٤٤ .

٩ ــ عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ١٩٦٠ ص ٨١ .

١٠ــ فيليب حتي : تاريخ العرب ، مرجع سبق ذكره ص ٣٦٩ .

11 — Abdelkader Izahi : Sozialgeschichte Palestinas . Basel 1938,

انظر كتاب مازلف ص ٩٨ .

١٢ــ فيليب حتي : تاريخ العرب ، مرجع سبق ذكره ص ٣٢٩ .

١٣ــ نفس المرجع السابق : ص ٣٦٨ .

١٤ــ نفس المرجع السابق : ص ٣٤٥ .

15 — Johannes Hazri : Der Islam in seinem Einfluss auf das Leben seiner Bekenner, Leiden 1881 . ص ٧٣ .

١٦ ــ حسين مروه : النزعات المادية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٩ .

١٧ــ نفس المرجع السابق ، ص ٩٣ .

١٨ــ نفس المرجع السابق ، ص ٩٣ .

انظر

19 — Politikwissenschaft, Einführung in ihre Probleme, Hrsg von Gisela Kress u. D. Senghaas, Frankfurt/M. 1969. S. 46.

٢٠ــ الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، القاهرة ، ص ٧٨ (تاريخ النشر غير مذكور) .

٢١ــ نفس المرجع السابق ، ص ٧٦ .

٢٢ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

٢٣ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

أحمد رفيق المهدوي

شاعر الوطنية الإنسان المحب

د - عبد القادر أحمد رمضان

قسم اللغة العربية

احمد رفيق المهدوي

شاعر الوطنية الانسان المحب

بقلم الدكتور : عبد القادر احمد رمضان

الشاعر المرحوم د احمد رفيق احمد المهدوي شاعر فحل من شعراء لبنة الضاد العظام في أدبنا العربي الحديث ، أدب اليقظة والوعي القومي لامتنا الجديدة المناضلة التي تأبى الضيم وتناضل عن عروبتها وعزة أوطانها مستمدة بقوة إيمانها بدينها وحقها في العزة والسيادة على الوطن العربي الكبير الذي ورثت سيادته عن آبائها العظام الذين حملوا لواء المعرفة والأخوة الانسانية للبشرية جمعاء .

وهو شاعر قد فرض الملكة الشعرية ، بمرك الحياة وبلا أحدثها منذ صباه ظفرد ما إن تفتحت عيناه على جمال الوطن الحبيب الى نفسه في قمة من أعز بقاعه وأسمها في بلدة بالجبل الغربي حيث كان أبوه يشغل رتبة قائمقام تلك البلدة وهي مرتبة رفيعة في ذلك العهد التركي المتداعي المؤذن بالزوال ، حتى أذاق من حلو مرارة الدهر الوردي الجميل على ثغري شاطئ البحيرة الايطالية الرشيقة تلك حواضر وطنه الغالية مثل طرابلس وبنغازي ودرنة ومصراتة سيداه بها لإزال جنودهم لاحتلال ليبيا ولتجعل منها جزءاً عزيزاً من امبراطورية شرقيه تشمل ايطاليا وليبيا والحبشة وجزءاً كبيراً من الصومال في فترة لكونس الامبراطوريات الاستعمارية الطلقة بعد عصر تكوين الدويلات الأوروبية عقب عصر الانقلاب الصناعي الأوروبي الذي خلق نظام الاقطاع في أوروبا في حين كانت الأوطان العربية تعاني من التخلف بسبب وقوعها تحت الحكم التركي الشاعي وحيث كان

فالعرب الناهض بلقب الدولة التركية الرجل المريض ويفتعل أوهى الأسباب لانقضاض على أملاكها الشرقية يقتطعه جزءا إثر جزء حيث قد مايزيد من استقلال ما سبقت عليه في أوروبا مثل شبه جزيرة البلقان والبوسفور والدردنيل في عقر دارها في ولايات عربية السلطنة في شمال غربية والشرق الأوسط إلى أن هزمها نهائيا في الحرب العالمية الأولى وتقلص امتدادها عربيا في الأناضول ولا تزال آثار من أبنائنا داوده بسالة وحب خالصا مدخورا .

ولد أحمد رفيق المهدوي في بلدة مساوة الحمادي في الجبل الغربي جبل نفوسة سنة ١٨٨٨م حيث كان والده مقيما هناك البلدة كما كان جده أحمد المهدوي عميد بلديه بنغازي فهو من أسرة ممتدة أوراقه الأثنة والعريقة التي دفعته الى أن يتمتع بما يراه حقا ومحمولا به وهي المساواة في حقوق ربه وتحمله على رفض أسباب الخمول وتجنب أسباب وكوب الصعب الذي خرجنا وهي قبول ما يمس كرامته ويزري بسيادة وطنه .

فإن أم السنة السادسة من تعليمه حتى كان الاحتلال الإيطالي البغيض فهاجر الى مصر رهو في الثالثة عشرة من عمره حيث أكمل فيها تعليمه الإبتدائي والثانوي حيث رحلت أسرته الى الإسكندرية وما يفتأ عام على الغزو الإيطالي ليبيا الذي وقع في صيف عام ١٩١١م فأحدث أثرا عظيما وألما للبلاد .

وفي رحاب عروس البحر وعلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط التي شهدت الأمجاد البحرية العربية أسعد عبد الله بن أبي السرح وطارق بن زياد ويوسف الرداني استأنف أحمد رفيق تعليمه الذي ابتدأه في

درس في مدرسة تركية فالتحق بمدارس المصرية وجلس الى الحلقات العلمية التي تعقد في المساجد وكان يحرص على دراسة ما تخرجه المطبعة من كتب الأدب فقد ذكر رحمه الله أنه قرأ مع المرحوم بيرم التونسي رسالة الغفران وقد انتحيا ركنا من جامع الأباصيري .

أمضى رفيق في الاسكندرية نحو عشرة سنوات دارسا قارئا متأملا اختزل خلالها من العمر تلك مرحلة الشباب وتكونت فيها اتجاهاته الأدبية وتفتحت فيها وجدانه وشهد فيها المجتمع المصري إبان الحرب العالمية الأولى وما تمخضه عليه من تبعات وما يعانيه من عنت للمستعمر الانجليزي وعارسته وعرف الوطنية في الثورة المصرية وهو يستحضر في ذهنه أحداث ومنه العصام وتضحيات أبنائه الجسام وبطولات مجاهديه في دفع غائلة تتوقهم عددا وعتادا سلاحهم الايمان بعصبية العربية التي تأبى أن يهان الوطن وتستباح مقدساته .

فكان كل ذلك مما أيقظ الشاعرية في نفس رفيق وكانت أول قصيدة له في رثاء محمد فريد رمز الوطنية آنذاك[1] .

عاد رفيق الى الوطن في أكتوبر سنة ١٩٢٠ عشرين وتسعمائة وألف ميلادية بعد اشتاق الرجعة وكان وضع ليبيا أشبه بالاستقرار بعد الذي عانته البلاد من سني الحرب والمجاعة والأوبئة .

فقد وجد في البلاد قانونا أساسيا وبرلمانا رسياسة مبنية على التفاهم كما وجد على رأس بلدية بنغازي أحد أصهاره وهو الأخ محمد الحبشي معينه في إحدى وظائفها . ولكن هذا الهدوء كان يخفي وراءه غليانا شديدا وتوره توشك أن تندلع .

---

(١) مذكرة لصاحب البحث في الأدب الحديث في الغرب العربي قررت على السنة الرابعة بكلية اللغة العربية والدراسات الاسلامية ١٩٧٢/١٩٧٦ .

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

ولم تمنعه الوظيفة أو صلته برئيس البلدية صغره من نقد الأوضاع في قطعتين أحدهما في نقد الحزب الدستوري الحر، والأخرى في نقد صحيفة برقة.

لقد كانت فكرة الطليان كغيرهم من الاستعماريين تعزيز الوحدة الوطنية بين أبناء الوطن الذي يبغون به سبيل مثل الاستعماري القديم «فرق تسد». كانت فكرتهم أن يثيروا هذا الحزب بمنشوراته العرب على الترك، وأن يشيع اضطهاده في الناس أن الطليان قد جاءوا ليحرروا العرب من الأتراك وهو بدأ يكون أداة استعمارية، فقال يفيق مهاجم سياسة هذا الحزب التي لا تخدم الوطن والقومية وإن كانت من شعر صباه حيث لا نضج لملكة التعريض ولا كمال التجارب الإنسانية والأدبية إلا أنها تدل على نزعة فنية صادقة وروحية حادة تسمو بمصلحة الوطن فوق كل اعتبار وهي:

الحزب الدستوري العربي ... بنبوع الباطل والكذب
قد ضل أعثر فرصة ... ليسيء بتصرفه إلا الذئب
قالوا إن قوم جئتنا ... لنداوي من مجد العرب
كذب كذب ثم كذب ... هذا من سوء الأدب
ما أنت يا لطيار مدري ... غير مضغة لا الحلق
وكذاب ليس له أمل ... إلا في الرتب والرتب(1)

(1) مذكرة الأدب الحديث في العرب العربي ص 1. لم تنشر هذه القطعة في ديوان الشعر بجزئه لعلاته مع رصدها في سفر الأدب العربية التي أرخت نضاله ومع شهادتها على الشعب الجهاد الوطني.

والشاعر يهاجم أعضاء الحزب مهاجمة عنيفة إذ يصفهم بالكذب وحقارة الشأن والبذاء عندما يحاولون خداع الشعب عن نواياهم الخبيثة وبكذبهم ويجردهم من أخلاق الوطنيين الصالح ويدعمهم بأنهم ليسوا إلا أدوات حقيرة للمستعمرة لا ترتقي إلى مستوى الحيوانات التي تتخذ لديها وانما هم يقومون بخدمة تتنافى في تحرك بن أقل شأناً من بقر الخدمة التي كلاب رعاتها أوطن تظير فداء مؤلاء المستعمر ، وليس لهم من شرف الوطنيين السلام نصيب .

أما جريدة برقة فهي تمثل أداة أخرى من أدوات الاستعمار تدعو إلى الصداقة والتزلف للمستعمر وترى الذكاء في مسالمته والنزول عند مشيئته فيجيب وفيق برغم الصلة التي تربطه بمديرها بقصيدة داعت بين أبناء الشعب رغم وسائل الصمع والكذب آنذاك فمن تلك القصيدة قوله : ـ

ألم يبلغك ما قال البريد ؟ عبراء لا يطمئن ولا يفيد
مبلبلة الجرائد ما تبين وزاد تبينه تفسير جديد
تملق كي يسائل رضاء قوم فما رضي الإله ولا العبيد
فما ربحت تجارته فتيلا ولا عرفت مساعيه حميد

ومنها :

متى تأتي لنا البشرى بأن قد أفاق من شاذته الوليد
لعمرك جاهل من يشتريه بمرام ذلك الثمن الزهيد

أرأيت أسلوبه وفيق الساخر بالبريد وجعل اسم جريدة برقة تربطه التي حاول أن تنفذ إلى عقول قرائها وتحبب إليهم مهادنة المستعمر الدخيل وتدعوهم إلى إلقاء السلاح وتركه يعبث في خيرات الوطن ويرضي مطامعه بإفناء أهله .

فأين تلك الجريدة البائسة تحت حراب المستعمر الكافرة عبراء

لا تستطيع لتقرير بمراض وهي في الجزائر تسمية الكذاب لا تكتب إلا
بخلا ولا يصدر عنها إلا أثر بحقوق الوطن فكرات لأنها على إبائه نفسا
ذلك راء وعلاه للمستعمر الدخيل فتعصب عليها الحاكم والناس وهي من ثم
خاسرة في معيشها عالة من الرشاد خسيسة في نظر الأحرار ثم تكون
سخرية الشعوب بها عندما يشتد نوتها قبل أن يشتد لها ساعد وهو يصدر
من جانبه على الاستراح بالثناء بها عندما يصبح القراء بعد شراك تتزين
ستريا بالجميل وتنفه البشير بنفع شيء لأن ما فيها من كراه لا يعادل شيئا
ازهيد قيمة .

وبعد يكون الأمر فإن هذه المجاهرة بالعداوة للمستعمر والسعاة
مشكورة قد مرت حياة الشاعر معروفة بخطر فلم يكن له من الهجرة
بد حيث تعذر على مغادرة الوطن إلى تركيا عام ١٩٢٠ م وكان أبوه وأخوه
قد سبقاه إليها واقاما في مدينة صغيرة قرب سوريا تسمى جيجون فأقام
الشعر معهما شاركهما تجارة صغيرة اضطلعا معا بها ، وكان يقرأ
ما يقع تحت يده من كتب العربية مثل كتاب الأغاني وكان جذوة الشعر
ما زال تومض في صدره .

ثم رحل إلى مهجره بتركيا بعد سنين انخلت فيها وطنيته مدة
الحبر أن وكله برفاق صباه فكان يذيع آيات القريض مصورا بها مدى
ما يجد من شوق وما يضطرم في صدره من هيام مصور بالطبع ما يجد
لابتعاده عن ربوع الوطن الحبيب وما يتذرعه من حب صادق ورغبة أكيدة
في الرجوع وما يصدوه من ثني وصدر الحاج في بيته الجديد لأن نواله
رخيص ، ولكن زلاسدقاء لا يدع مناسبة تمر القريض إلا ويسجل فيها
قصيدة بديعة صادقة معانيه الأصيلة العربية فهو يذكر دائما على الحول من

(١) آثار الشاعر ج ١ ص ٢٦ من مقدمة الجلسة سنة ربيع الأول ١٣٥٦ ص ١١

يجده على تركه وفقد شعوره الذي لم يلم به مسرة تخفف مما يجده ويجده فهو الظروف التي أرغمته على الهجرة لما عاناه من صغار وارهاب في وطنه فلم أن يجد في هجرته العزة والمسرة فكان الأمر على عكس ما رجا فكانت هجرة خاسرة أوحت له بشؤم الغراب الذي أضاع غرابة سفاته بجهل وعدم اتقان ما أضاع أصحابه لقديمه وذكر أن الدموع بإضافة من وضع الأجفان لا تزيد حرقته إلا ضراما كما يضيف الماء بحجر الحي الذي يزيد الجمر مع برودته تأججا واشتعالا .

يقول الشاعر من قصيدة ضاع أكثرها كما ذكر الشاعر نفسه :

(١) تذكرت حولا منذ فارقت أوطاني	فما لي في اتيانه غير أحزان
وما فت زمت ركابي ولم تزل	تنقلني بي حيث أنت أرمي بعنان
فأقفر عني السير في كل بقعة	فأقل بي أرجاءها غير سكان
تركت بلادي إذ تنكرت بأنني	بأنفي سفارا انه يأنف الجاني
وسرت لأرض غير أرضي مؤملا	لعز فكانت في الغريبة هوان
فيا خيبة المسعى الذي غير موئل	من النجح مدموع بأعظم خسران
فقدت بلادي وهي عندي عزيزة	ولم أزدها آنست في بعد ثاني
كأني غراب البين خيم مشيمة	ولم يكتسب علما بإتقان
حنينا وشوقا يا بلادي فانني	وان كان ذاك البعد أنبت بغوان
فيا ليت بعدي عنك إلا ترفعا	عن الضيم لا ابتغاء لا تنعم بحران
وإني لأكبي في الجوانح لوعة	بحبك يزيد على البعد تحنان
إذا خفف الدمع الأسى فمدامعي	لها وقدة زادت أساي واشجاني
كما كان عذب الماء في الجمر منشأ	على خطر فيه حرارة بركان

(١) الديوان الغزة الثالثة ص ٧ ـ ٨

عاد رفيق لوطنه الذي يحبه ولا يحس بالسعادة والطمأنينة إلا في رحابه سنة ١٩٣٣م عاد اليه مرة أخرى من مهجره بتركيا إلا أن الإيطاليين الغزاة ضاقوا بمقامه فأجبروه على مفارقته لتركيا مرة أخرى ثم عاد اليه مرة ثالثة في عام ١٩٤٦م وشارك مع غيره من المثقفين في الحركة الوطنية الداعية الى الاستقلال التام والوحدة الوطنية والتخلص من عهد الامارات ودخل السجن مع مجموعة منهم وقد سجل ذلك في قصيدة منها قوله :

إن تدخل السجن ما في السجن من باس فيه الكرام وفيه أفضل الناس

كما قال يصور ذلك في قصيدة أخرى منها قوله :

إن تدخل السجن ما في السجن من عار تدعو المقام لأبطال وأحرار
السجن أهون شيء عند محتقر الموت في شرف في عز جبار
والطاهر النفس من وخز الضمير وإن لم يدخل السجن في سجن وفي نار
يعد الخيانة حتف الشرع تبعثه حتى لقد دقطعت في ربع دياره
فمن مشت روحه مما يدنسه فليس في موته في السجن من عار
والصبر أنشل لخلاق الرجال ولا يكون إلا لقلب غير خوار [1]

ولقد كان الشاعر أحد أعضاء جمعية عمر المختار البارزين وقصائده وطنية التي يزخر بها ديوانه تصور بجلاء رأيه في القضايا الوطنية ودعوته الصادقة وصوته الجهوري المدوي بنداء الحرية التامة وعدم قبول انصاف

---

(١) الثقافة العربية العدد الثاني السنة الخامسة ص ٦١
(٢) الديوان الشعر في الوطنية والاغتراب ص ٦١ ـ ٦٦

العلول وحثه على وحدة الوطن والتنديد بدعاة الانفصال والعصبيات البغيضة .

وقد كرم رفيق بعد عودته الأخيرة لربوع الوطن وانتخب أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقد أدركه الوفاة في اليونان عام ١٩٦١ م بعد عمر يناهز الثمانين والذي قضاه في البلاد عن ثلاث وستين سنة وقد أعلن جهاده من هناك ودفن في أرض الوطن الذي أحبه وأخلص في الدفاع عنه والحنين إليه[٣] .

---

(٣) الثقافة العربية ص ٦٦

الوطنية في شعر احمد رفيق المهدوي

لعل ابرز الاغراض التي قال فيها الشاعر روائع قريضه هي الوطنية وإذا كانت الوطنية من أبرز سمات شعرائنا في العصر الحديث لأن الشاعر ابن بيئته وشعره طبيعية للظروف التي يعيشها هذا الوطن وإذا كان ابناء العربي الكبير قد تعرض الظروف قاسية تنحط بسببها وقوعه تحت الحكم التركي الذي كان سببا في ضعفه وطمع الغرب فيه منذ ان استيقظ الغرب على حملة نابليون بونابرت ، فليس غريبا أن يتفوق أحمد رفيق في هذا الغرض الرئيسي من أغراض الشعر في العصر الحديث فقد اعتز على دون قتال العدو تلك مدن وهذه الجزر الآمن سنة ١٩١١م احدى عشرة وتسعمائة وأنف للبلاد وأجير على الرحيل عن مراتع صباه ومواطن ذكريات سعده واحلامه الوردية قبل أن يكتمل عام على يد الغزو الايطالي ويعود الشاعر ليرى الوطن الحبيب بعد أن اشتد ساعده وأصبح قادرا على النضال والمنافحة بالكلمة الحرة والفكرة الهدية والجنان الثابت فيجده استعمر العاشر على مقاومة الوطن للمرة الثانية والثالثة ثم يعود ليعمل سجينا في عهد الادارات واثقة يستمر قائما برسالته الشعر الجليلة لكنه يكثر من تحدثه نفسه بالتنكب عن مدرسة الوطن العليا او الهاون في السعي الشواصل الدؤوب اليها الى أن يشهد بأم عينه ثمرات جهده وجهاد المخلصين من ابناء الوطن الحبيب وقد أتيحت نصرا وعزيزة للابناء فيتبع ايطاليا الذليلة ناجزة بمصدمة الرائعة الزاخرة بالسخرية يمتاز بها من موجوده بتركيا إذ يقول منها :

قد ائتلف الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

أسى بين المقر وحيث ألفت يرحل حوله ساحته الدمار

دعت مصحوبة بلقاء (ثمر) يكسره ثمانات واحتقار

كما شهده وقد تحققت ارادة الوطن في وحدة وطنية ضمت ولاياته برقة وطرابلس وفزان وما زال المخلصون من أبنائه يعملون على تحرير هذه الارادة مما تبقى من آثار الاستعمار البغيض ماثلة فيما خلف على بعض ربوعه من قواعد وجاليات ايطالية مستغلة حتى تحققت أحلامه في ثورته المجيدة الرائدة التي تفجرت صباح التاسع الاغر من سبتمبر عام ١٩٦٩ م تحطم الشعب قيوده وانطلق يحقق المعجزات ويقهر المستحيل وينادي بحرية الشعوب الثائرة لتحقيق حريتها وحقق تجربة عصر الجماهيرية وتجربتها الرائدة في مجال الحرية والسيادة الوطنية فكانت سلطة الشعب ووضعت السلطة والثروة والسلاح بيده وحررت طاقاته لبنائه .

وقد تجلت وطنية رفيق في كثير من المواقف التي دعته لقول الشعر في اثناء اقامته بالوطن أو إبّان غربته فقد خلد دلائل الوطنية في تأكيد حبه للوطن وندمه على مرارته واشتياقه للعودة اليه وعنيه للذكريات الجميلة في رحابه ونقمته لاعدائه والوالين لهم وتنديده بالمتعرفين ودعوته للتمسك بوحدة الوطن وحثه على الاخذ بأسباب الاصلاح والنهوض لرعاية الاسلام من جهة ضدهم المستعمر بقتل آبائهم وذويهم .

ها هو الشاعر يتكلم على نفسه بالخطأ وعدم اصابته كبد الحقيقة وسداد الرأي عندما خرج من الوطن ويتعجب كيف سمح لنفسه بفراق وطن فيه كل ما يحب في الوجود فيه الحبيب ومسقط رأسه وفيه الاهل والاصدقاء الاوفياء ويلح الشاعر في تخطئة نفسه والتعجب من أن يجانبه

التوفيق في الاجتهاد لا لان أنه يستكنه ان يكون اكثر حرية وأقدر على خدمة قضية وطنه من خروجه وأنه بهذا يخفف من شدة حنينه اليه فلم يكن له ما أمل .

كما يؤكد ان الاغتراب مصحاة للحزن والعزلة النفسية وانحطاط المنزلة الاجتماعية في ديار الغربة فلا يملك المغترب والحال تلك سوى تذرف الدموع ومعاناة الحسرات والتقلب في الفراش عندما ينام المقيمون بأوطانهم ويتساءل الشاعر ان بغي آملا لان يحفظ الحبيب عهده والشاعر هو الذي اختار النوى وبعد الزار خصوصا والحبيب من أبناء الوطن المولعين به من شاعره عوض راي عوض ويبدي الشاعر ويعيد فعل هذا الوشيح الرائع الذي هو خوب العاطفة الصادقة وفيض تجربة قوية اصيلة ملكت الشاعر عفوية محببة للعروس ومست من وجدان متلقيها وترا رنانا هتوفا فاحدث مواقعه فلم يكن له به من مشاركة الشاعر صادق عواطفه ومنه سمة الامانة في الشعر يقول احمد رفيق من قصيدته « وطني » :

لم اكن يوم خروجي من بلادي بمغيب
حبها لي وتركي وطني فيه حبي

وطني فيه أنسي
وبه مسقط رأسي
ليت ما حلت بنفسي

لذة العيش الخصيب
بين أهل وقريب
وصديق وحبيب

---

(1) الديوان ج ١/١٩ ـ ٢٠

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمغيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

عجبا يا بلادي
كيف ضيعت رشادي
لم أوفق في اجتهادي
حين فارقت حماك
ونوهت سواك
بأن لي قدر الغريب

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمغيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

لا مر عاش غريبا
عاش لا ملك كئيبا
وإذا كان أديبا
عاش مجهولا مضاعا
ينفق العمر التياعا
بين حزن ونحيب

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمغيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

لم تزدني ذكرياتي
غير مسح العبرات
يا لهول الحسرات
حين آدي افراشي
لهب الأشواق جاشي
كالرماد في لهيب

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي
أترى يذكر ودي
أم سلا عني لبعدي
وراى في الناس بعدي

من له مثل ولوعي
في هواه ولغلوعي
ووفائي لحبيبي

والشاعر يصور نفسه يوم الرحيل مسرعا صادقا واخرا بسوانح الاسى والحزن العميق الذي يملأ على الشاعر جوانحه فيظهر تجلد وتصدر دموعه ويبدع في تصوير تضارب عواطفه وشدة الوقف على نفسه الحائرة بالوطن فتنتال عليه الصور الفنية المبتكرة عندما يسير مفارقة الوطن ضربا شديدا من نزع الروح ويؤكد ان الهجرة أشد وقعا من معاناة الموت وانه قد نزع قلبه بين لهباته الثلاثين في الوطن وانه قدره الذي قضى على أبي البشر بفراق جنته حتى تتضاعف مصائبه بمغادرة الوطن واخوانه الكرام مما اولئك الذين قد احتفوا به وعبروا عن صادق الود مما أعجزه عن اداء شكرهم على لسنه وقصائده فهو يقول من قصيدة عنوانها « فراق » :

(١) سكنته يوم الرحيل فهاج تحوين أنهار الدموع الثجاجا
حاولت اظهار التجلد فانثنى عزمي وراح تجلدي اذراجا
عالجت من ألم الفراق وهوله مالا يفيد الصبر فيه علاجا
فعلمت كيف يكون نزع الروح في حال تشارب عندها الاوداجا
ان الفراق بدا لقلبي مرتجى صوت يكرره الحنين عجاجا

(١) الديوان ج١/٢٢

الى أن يقول :

يا من يعز فراقهم وفراقهم ... خيرت ما اخترت الهوى منهجا
لكنه قدر قضى من قبلنا ... لابي البرية آدم الإخراجا
وقفى عليّ به وزاد فراقكم ... بكرور وقع مصائبي أزواجا

والشاعر في قصيدته هجرة وداع يعلل أسباب هجرته ويرده الى أمور جماعها عزة النفس والاخلاص للوطن وعدم القدرة على حياته بجانبه اعداء الوطن والتحول فيما دخل فيه من لا خلاق لهم ممن باعوا حق الوطن مقابل منصب زائف او عرض زائل أو قبول للذميم وترك الفضل غير المكافئ في سبيل الوطن والشاعر مع اقتناعه بأن ترك الوطن تحت ضغط العدو الغاشم مقبول يرى أنه قد جانب الصواب وأي عظيما من الامر وكأنه كان يرى أن يبقى في رحاب الوطن يصارع حراب الاعداء بصدر غير دارع ليلقى المنون على ثراه ويعانقه عندما تقبض روحه شهيدة هواه كأنه يرى أن ابتعاده لإرادة الشيخ الغاشم ورحيله عن الوطن ضربا من التهاون في حق الوطن وأخذا برخصة وقتية يأباها الاحرار ولهذا فقد أقضت مضجعه وأوقدته في حيرة لا تنكشف غمتها و سلت الشاعر لاذيب ضمير حاد جاشت له عبراته حتى شرق بها وأوشكت أن تخنقه .

يقول أحمد رفيق :

(١) رحيلي عنك عز عليّ جدا ... وداعا أيها الوطن المفدى
وداع مفارق بالرغم منه ... له الاقدار تسلب العيش كدا
سأرحل عنك يا وطني وإني ... لاعلم أنني قد عشت إذا

---

(١) الديوان ج ١/٢٢ ، ٢٤

الى أن يقول :

طلبت العز في وطني متيه ... فأوسعني زمـان السـوء ردا
سأترك عزمة هـذاك أمضي ... أقد بهـا حجـاب الغيب فـدا
وما وطني هجرتك لا لبغض ... ولا أنـي نحتـت سـواك ودا
فلا والله مـا هاجـرت حـتى ... جهدت ولـم أجد من ذاك بـدا
يقول لي الصديق أرح ركابا ... فأنك واجـد أرضـا وجـدا
هداك الله كيف تجيب نفسي ... وفي عنقـي أرى للأسـر قـيدا

الى قوله :

ويا وطني نبـا بي عنك عيش ... وأحيانـا يكـون الحب حـقدا
وقـد يأتي المرور بنا بمرأى ... خلي من جـوى العقـل فـقدا
فمنـك ألام في ترك حبيبـا ... أرى في حبـه الأحـداء نـدا
ويا وطني ودعـ من محب ... تحـير رأيـه أخـذا وردا
وداعـا لا أطـيـق لـه لقـاء ... فـيا أسفا اذا مـا أنـبي جـدا
اذا ديـه وقـد زمـت ركـابي ... وهـم أبين ركـن الصبر هـدا
وجاشت تخنق العبرات صوتي ... وداعـا أيهـا الـوطن المفـدى

حتى اذا ما زار الشاعر بلدة جيجل من تركيا رفيق أن يطول مقامه بها ساوره الحنين الى وطنه واشتد به الشوق اليه وأخذ يردد هتافه الذكريات العزيزة على فؤاده وشعر أن مجرد التعبير بسائل الحراره عن مواعيدها ضرب من الجفاء فما كان لشعبه في وفائهم وودادهم أن يسلموه لتبريح الغربة والاغتراب تشرده وتقصيه وتنحله وكيف يقوى على نوى ورقت بين جسده وفؤاده الذي لم يفتر الشاعر على هجره أو قنوته بما ألزم

ربوع الوطن ومواقف ذكريات الاحبة به أو اتخذ هجرة مضادة فغادر مشرد بين جوانح الشاعر ليطير على جناح الذكريات حيث يدرك أخوة الفضل نضالهم في رحاب الوطن كما يشاطرهم اوقات أنسهم التي طالما شاطرهم الشعر إياها عندما كان في غفلة من عين الرقيب .

ويلتمس الشاعر مبررا أسباب هجرة أدرك الشاعر فداحتها خاصة انها منذ البداية فلا يجد مبررا مقبولا إلا أن يكون عقابا من الشعر نفسه لكفران نعيم السبا الذي لم يف الشاعر بحقوق شكره ولقد كان على سطر وفير من صدق العاطفة التي تمتد الى ذهن قارىء القصيدة لنبوغ شاعر الحب الاندلسي الكبير ابن زيدون في نونيته الرائعة التي تشوق فيها الى أيام وصال ولاده بنت المستكفي الاميرة العربية الشاعرة والتي تركت أصداء قوية في الادب العربي في هذا الغرض الانساني من أغراض الشعر مما أغرى أمير الشعراء بمعارضتها عندما بعث من منفاه بالاندلس بنونيته منشودة الى أرض الكنانة .

ويمتد نفس الشاعر في التحسر على ما كان يجده في رحاب الوطن من الدافىء العيش ومتع الحياة اليومية والفكرية بسبب الاصدقاء الاوفياء الذين شاركوا الشاعر صفو الحياة وأريحية الشباب فحرمهم كما حرم تعبة الكرامة التي لا يدركها قدرها إلا من ابتلي بفقدها في مطارح الغربة ويلح على ذكرة أن اقترب به سرب من عقابه عن اوكاره في شرق صفو الحياة إبان الشباب دون شكران .

كما يصور حاله تصويرا صادقا كما أشار تلك الحنين الشاعر العربي القديم :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل مضجع

فهو مؤرق الليل يجتره الذكرى ان رقد الخليون وكل يرى بالافسق العربي بشده لوعته واخوانه فلا يجد مسعفا غير الدموع وهو يبدي عن ثقة مطلقة في الله جل شأنه أن ينهي غربته وأن يجمع بينه وبين مواطنيه على بعد الشقة بين برقة وجيرانه الى غير هذه المعاني الغريبة بما زخرت به من وداد محض وعواطف قوية صادقة فمما قاله بعضه الابيات من قصيدة عنين عربي لاوطانه :

(١) يامن على البعد تهواه وتهوانا ... لقد هاشقنا شوق فأشجانا

ذكرى عهود الهوى بتنا نساورنا ... يا من يبلغ الاحباب شكوانا

إن يحكم الهوى صرنا سوالاعجب ... تزيد ذكرانا من يزداد نسيانا

ما انصفت اللحاظ في نوى تركت ... جسما هنا وهناك القلب ولهانا

أما الشباب وما كان الشباب لنا ... إلا على رغم أنف الدهر ملعونا

كان الجنون وما أحلى الجنون به ... ما لذة العيش إلا فيه اذ كانا

وما عرفنا له في حال نشوتنا ... ضرا وكم حمدنا الكفران احسانا

يا حسرة ما تنتنا بروائه ... إذ كان كالدهر رفقا وريانا

كأنه حسنة من بعد ما ذهبت ... فكنا فيه حسرة حرى وفقدانا

ورب اخوان صدق كان يجمعنا ... بهم إخاء صفا سرا واعلانا

كانت مودتهم قرين مرؤتهم ... تجلو عن القلب من دنياه ما رانا

ما حسرنا بعد ما ولت شبيبتنا ... إلا صداقة من بالصدق صافانا

حتى خرجنا على الاوطان من بطر ... بنا جزاة به الاحباب هجرانا

يا على الهجر ما تنفك تذكرهم ... فهل على بالهم يجرون ذكرانا

ما خيم الليل إلا بتنا يطلعنا ... شوق إذا رقد السمار ناجانا

---

(١) الديوان ج١/ ص ٢٥ ـ ٢٦

نحن ثوانا السفن أوهنا فاذا ... تبسم البارق الغربي أبكانا
ومن سوانا جدير بالبكاء على ... ذكرى الغوريات والبركا وجلبانا
معاهد حبها لو لم تكن وطنا ... يا لهف من حنين كان إيمانا
لا عسر إلا لنا في مواطنه ... إن الغريب مهان أينما كانا
يا أمر الله ان يدلي على شحط ... سكان برقة من سكان جيحانا

أصدقاء الشاعر كثر وجلهم ممن يعتز الشاعر بصداقتهم فهم على تفاوته أدبا وروحية واسنية ووفاء بالعهود وحفظا للاخوة ورعاية لمن نأت بهم الدار وكان من أجلهم منزلة أدبي شاعرنا صديقه الشيخ موسى بن أحمد البرغثي من رجالات بنغازي وأحد المجاهدين الشرعيين بها كان أديبا شاعرا لكنه أدب ولهذا فقد أرسل الشاعر اليه قصيدة عرفت بموسوعة ذات اقيستها الأدبية والتصويرها البارع للواقع ونبو دار هجرته به ولما اشتملت عليه من تصوير واعي لحياة المجتمع الذي مارسته ايطاليا لوطنه البرز والعمال المزرية التي استبدت بضعاف العوض ممن وقعوا في براثن الاحتلال الاستعماري فنصبهم عبوا على بناء الوطن المخلصين يرقبون حركاتهم ويحصون لافتعال المبررات للزج بهم في غيابات السجون مما تعذر مع تلك الحال على الشاعر البقاء في الوطن ولم يجد معها بد من مغادرته .

كما كانت القصيدة شريطا من الذكريات الحالمة يسوح بذكريات الشاعر واذكار سمره وزهاده وعبث به جمال الربيع بالغوريات ورقة الامسيات البركة وجمال العيد الخضار في أزر السباحة وحنين المصيف وما هنا من شدة الاجواء الآسر لحيوية الشباب كما وصف جمال غروب الشمس المسجدي على صفحة البحر الزرقاء اللازوردية وحيث سعد الاذن لعدات ازدياد الامواج الحالمة اثر معانقتها رمال شاطئه الوادعة كم برع الشاعر في

وصف ليالي السمر بغداد لمعيشتي وما يدور فيها من سماع وشرب كان به المبتدئ مختار الاعطاف رئيس الحواشي قبل أن يقلب الدهر للالاف ظهر المجن فيعقب صفوه بمرارة عيش تشق المرائر خلست تلك المرارة باغرابه مربعا من الوطن فكان بهجرته كالمستجير من الرمضاء بالنار إذ لم يجد في هجرته الا الاهانة وتعنت الحكومة التركية التي اجبرته على التزام العسكرية وتصنيفه بديوان الجيش والقلم .

ويتعجب الشاعر من مسلكه هذا الذي كلفه العناء وهجرة الوطن ويتساءل عن السبب الحقيقي لشدة بأسه وعنف خضوعه لسلطان حكم لا سلطان له في الجيوش التي بيده مقاليد المسايرات والارض المتصرف في تدبيرها كيفما يشاء ، أهو رجع الى فوضوية وهب التمرد على كل نظام وكل سلطان أم أن له ما يبرر سلوكه من ظلم الحكام ويرجح الرأي الثاني كما ذهب اليه شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء عندما يصور جور الحكام بقوله :

ظلموا الرعية واستباحوا حيها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويصور في رائعة عجيبة احتياج موجة الشرور للبشرية جمعاء فغدا ابناؤها ذئابا على اجسادهم ثياب وان اخذهم بأسباب القوة لدفع عادية الاعداء قد عدا تلك الغريزة السبعية الى نزعة عدوانية الحرب التباغض بين بني آدم ويرسم الشاعر ما يراه وسيلة لصلاح البشرية وهو الحب والاخاء الانساني والمساواة بين الناس لانهم بالفطرة احرار متساوون في قيمتهم الانسانية لما تردت الحضارة الغربية الحاضرة فيه من تفريقات العنصرية واستعباد الشعوب ، من تلك القصيدة الفريدة التي يعرض ابياتها التي سجل فيها الشاعر انطباعاته وعواطفه الثورة الزاخرة وبعض أفكاره في الحياة والاحياء المعاصرين له :

(١) بعد السلام وتقديم التحيات أهديها يا سيدي ومولى تحياتي
وأشكي بعد الشوق إليك وجد فارقتكم وفؤادي ما يفارقكم أعني الوداد وحبي للوداد هب

إلى أن يقول :

لم ترض نفسي بالمقام على ضيم الأعادي وارتياب الخيالات
خرجت من وطني مثل الطريد فما وجدت خيلا ولا أدركت ثاراتي
أغرى الزمان بنا أعداءنا فسعوا لرجمنا في مهاد من غيابات
تأتي عيون القوم ترصدني تحصي خطاي لتحصيها خطيئاتي
وما جنيت سوى إنكار منكرهم بما يدوني لتعالوا في معاداتي
أعدلهم كل نسمات من بغي وظلم بما يلسع عني من وشايات
فررت بالنفس لا من أجل عيشتها لكن مخافة نحل الاتهامات
حتى لسحرت ولكن كنت من لكدي كالمستجير بمرو في الظلمات
ما جئت مملكة إلا تملكني خوف وأدركني هيب الحكومات
ظننت مرآها فوق البسيطة من أعنو له غير جبار السماوات

ومنها أيضا قوله :

توارث الناس فعل الشر فانكمشت كرائهم في الفساد والقياسات

---

(١) الديوان الفترة الثانية من ١ ـ ٦

ومنها :

لا طب عندي لداء الاجتماع سوى ... حب يمحي أسباب العداوات
الناس كالناس والدنيا معاشرة ... بالعرف لا أمر حكام وسادات

وشوق الشاعر لوطنه وزوعه اليه ليلا عنيفا جارف يعصف بتجلد الشاعر ويؤرقه ولا تزيده أيام الهجرة الا تعلقا بالوطن فيرسل الغريض دموب نفس أنشأها البعد ترسل الزفرات الحرى والأنين الساطع الذي يمازج شغاف القلوب معللا الفرة بعد الفرة اسباب الهجرة التي هي مغرم كلها لانها مفارقه لاسباب العيش الرغد الكريم في رحاب الوطن ويلجي الشاعر باللوم الشديد على خرق ايطاليا المثل في سفه شبانها الذين نصبتهم حكاما على المواطنين على الرغم من سفههم وعدم خبرتهم ولا يعفي بني وطنه ممن ساروا في ركاب المستعمرين الذين عبر عنهم الشاعر بقوله من عد عليا أي اعتنق آراء الطليان ومسايرهم في رغبتهم في تثبيت حكمهم واستمر الشاعر في القصيدة فسمح للجلسين من مواطنيه في التمسك بعروبتهم ومواصلة التمسك بها وعدم الاندماج في المستعمر لان الظروف تبشر بقرب زوال سلطانه عن ربوع الوطن يقول الشاعر من قصيدة يناشد بها وطنه عام ١٩٣٦ على البعد من جنبات :

[1] يا أيها الوطن المقدس عندنا ... شوقا إليك فكيف حالك بعدنا
كنا نؤمل لا نريد تحولا ... عنها ولا نرضى سواها موطنا
في عيشة لو لم تكن مزوجة ... بالذل كانت ما أعد وأحسنا

---

(١) الديوان الجزء الثالث ٦٩-٧١

عفا وفاء العيش فيك مع العدا ... وأبى لنا شيم النفوس وعزما
وعسى بنا شوق الى حرية ... دعنا الى استئنافها سبب العلى
يا أيها الوطن العزيز وإن نكن ... بنرا نفيرك حبنا ومحبنا
ثم هواك فما لازوم لذكره ... وذا العيان يغنى الحديث لالسنا[1]

الى ان يقول :

جمعوك سخرة بايدي سبية ... لا يبعدون عن الضير تبدلا
حكموا كما شاءوا فكانوا محنة ... والحر ممتحن بأولاد الزنا
قالوا لقد جئنا لبذل ارضكم ... أين التعهد والذي قالوا لنا
هدموا من الاخلاق في اوطاننا ... اضعاف ما شادوه فيها من بنا

ويقول أيضا :

يا من تطوح في البلاد مهاجرا ... مثلي وخلاه الى من (عليا) [2]
كونوا على حذر ولا يغرركم ... وعد فيوم الفوز يوم قعدنا
وخذوا النصيحة من محب مشفق ... صدق الحديث ولا تقولوا من لا

وهكذا فقد تجلت وطنية الشاعر أحمد رفيق في مظهر آخر مهم وهو تصوير مدى حبه لوطنه وتعلقه به وتصويره لما يجري في أرجائه من عسف المستعمر حيث يقتل أبناءه في معارك غير متكافئة لا يعدون إزاءها إلا الثبات حتى الاستشهاد الذي يختتم من ذل القهر وسخرية المستعمر المتغطرس وجبروته ذوداً عن حياض الوطن ودوداً عن شرف العرض وحماية الابناء والذات. لابد من أن تنالها يد المستعمر أو أن ينال منها القتر والتشرد.

وقد برع الشاعر في هذا الضرب من شعر الوطنية الذي يدخل في

---

(1) السفل الدانى اى الحقير الدنيء
(2) والمراد : مصر قاصدا الاسكندرية

اثر الوصف بمعناه الواسع ففيه تصوير لحالة البطلة في معركة غير متكافئة سلاحهم فيها الايمان والرغبة في الشهادة دفاعا عن الوطن كما أن فيه تصويرا لالوان العناء التي تطوي أسر الشهداء من الفراق المفاجع الصدمة إياهم ومن ترديهم في الهاوي السحيقة اثناء هيامهم في الجبال والهضاب فرارا من ذل الأسر كما يصور الشاعر نوعا آخر من ألوان كيد الحكام المستعمرين لابناء هذا الوطن والذي لا ينجو منه حتى اليافع من ابناء الدين أووا الفلاجي، تحت ضغط اليتم وتشتت الاولياء إذا يقعن على احدهم سمات النجابة والبطولة وأمدي رغبة في الانتقام من أعداء وطنه قاتلي آبائه وذوي قرباه .

فقصيدة الشاعر التي سماها باسم بطلتها النجيب الصغير شهيد الغدر الايطالي الذي سعدت روحه الى بارئها بسبب السم الذي أودعوه طعامه داست وهو يقف الانتقام منهم وتحرير الوطن من أرجاسهم ليأمن روح ابنائه من عوائلهم .

والقصيدة التي أربت على مئة بيت فكانت من قصائد الشاعر الطوال زاخرة بالعاطفة الصادقة والرؤية الحقة مما منحت الشاعر تجربة فريدة اتاحت عليه الكثير من متعلقة مواده فجرت صغر الفريقي في الربع السابق يجزل في عبارته كما منحته سعة القريحة الأجاد لا في الوصف الخارجي لمعارك المجاهدة وضروب البطولة التي اتخذت الصبر والاهات الناجيات من براثن الاعداء وانما أجاد في رسم الشخصية العربية ممثلة بكل فضائلها في شخص بطلة الصغير الذي يأبى عليه شرفه مجتمعه إلا التفوق على الاقران في مجال العلم والذكاء وكذلك في مجال الفوق العضلي الذي يكون سببا في وقاية الاعداء واجبارهم على تقديره واحترامه وهذا الاعتزاز بالنفس الذي مجدها على صديد جراحات الدهر والجلد أباء الاعداء وعدم

الجوع بتصاريف الدهر إلا للأولياء الذين يحوزون ثقة هذا العلام بدافع وعدم اهتمامه بالمال فهو يوزع ما خصه الوالي به من مال تقديرا لمواهبه الفنية وربما الفراء له واستدلالا لحقده على المستعمرين الشخلاء يوزعه على إخوانه الشاركين له مرارة اليتم وضيم الظروف .

حتى إذا ما استشاره ذلك الوالي الدخيل كوامن ذكريات الصغير ، هيج منه شبلا ضاريا ومجاهدا عنيدا لا يساوم في محاربة خصمه وأعدائه ومنه يقاتلهم بالناب والمخلب وما يقع في حوزته من سلاح يجيد توجيهه ويحرص على توجيه غيره آبه بالنتائج ما دام قد أدى واجبه في الانتقام لوطنه والأخذ بثأر قومه .

والقصيدة تعتبر سورة صادقة لاقتدار الشاعر على الشعر القصصي كما تشعر بالروحة العصرية القائمة على عاطفتي الاعجاب والعطف لوشيجة من جهة وعلى الازدراء والكراهية للاعداء من جهة اخرى كما انها تنتقل من الوصف الظاهري للاحداث الى تعمق العواطف والانفعالات الداخلية لغيث نفسه من اليتم والجرأة التي لا تخلف عند حد حتى لو عرضت صاحبها للمتاعب التي انطوى لتستعمر على الحقد والذلة والجبن والكيد في الخفاء ثم الى التعبير عن اثر السم في داخل الجسد حيث فعل الكيد به كما فعل وتينه واشتعل ضراما في شرايينه فاعصب ذلك تلويه وستوطه وزفه الدم من فيه بعنف الانتقام الانتقام بينما يبتسم الاعداء في صمت يلم ابتساماتهم عن فرحة داخلية خبيثة .

هذه بعض ابيات تلك القريدة البديعة :

(١) هو في الملجأ من دون اليتامى ... دائم الصمت وقور واحتشاما
واضح الجبهة قليلا ما يرى ... ضاحكا إلا إذا استحيا ابتساما

---

(١) العبرة الثالثة ص ٩ ــ ١٦

نافذ اللحظ تراه ناظرا ... نظرة الأجدل يرتاد الصيدا
يتقي أقرانه صولته ... حين يحتد إذا اشتدوا خصاما
هو في الملحا أذكى مسلب ... بدهم حفظا وفهما واتقادا
فهو رأس القوم رأيا وهدى ... شيخهم عقلا وإن كان غلاما
دون تمييز ناحف في صحة ... واستواء كالردينى قواما

ومنها :

كان مسعود أبي في قومه ... سيد الأعراب معروفا هماما
فارس الخيل غياث المحتبي ... مكرم الضيف كهلا للايامى
بارك الله له في ثروة ... حلا الوادي فضاء وبغاما
وله من بنت عم أخوة ... خمسة ينتقص البدر التماما

ومنها ما وصف به الهيئة الشريفة القدرة لجيش الطليان على التجوع الآمنة :

بينما الحي رقود إذ علت ... سرحة تخبر بالشر اليانا
ثارت الاطفال من مضجعها ... تملأ الرحب صياحا وزعاقا
لبسوا ثوب الدجى أيدي سبا ... يخطفون البيد في البر اقتحاما
تركوا الاهل والمال ومن ... خف حملا والظباء والخياما
ورأى الاطفال أن لا ... شيء فيه فتلقوه كراما
قيدوا أرجلهم سيرا فما ... حفها غير رماس يتراسى
جهدها من ربقة الجوع ومن ... عيشة الذل فقد ماتوا كراما
ما يرى في الحي حتى يمسى ... ثوب السوء يجلى الناس

سكنوا في كل شعب عزة يستجيرون من الظلم الظلاما

وتشاهد القصيدة متعددة متراصة لهذا تنفي منها بيت القصيد وواسطة العقد الذي صور لنا صلابة الارادة وقوة التصميم على تنفيذ ما يؤمن به من الحق وذلك الابيه الذي ذهب غيث شهيدا له والذي كان يتململ على درب العزة الطويل ينير جوانبها للسالكين والذي يصور مثله أبو الشعراء وقد سرب الفرنسيون دسائس بالقبل مروجين سرها مقتلين انذالها إذ يقول :

قال ما استسلم ما غيث بها فالسرب كالحجارة لا تسرق

وفي هذا الحوار الجاد الدامي بين غيث والوالي يتمثل ملة ابرز ايضاحة وهي كما نرى وكما عبر عنها الشاعر عظام ذاته وفيه ما فيه من استدراج قدر من مستقبر حقد لئيم :

والمستعمرين وإذ لا استوا قل لي الحق ولا تخشى الملاما
قال غيث وبدا الجد على وجهه يشبه ليثا او ضرغاما
إن لي ثارا إذا أدركته لا أبالي بعده إن ذقت حماما
نظر الوالي إلى غيث ولم يظهر الحقد ولا أبدى ملاما
ورأى قبل انصرافه ما فعلوا فعلموا الطرق كانت كلاما
عادة الذل لئيم ولذا جعلوا سرا له السلم طعاما
ما جرى في جوفه حتى سرى في وتين القلب كالنار اضطراما
خير للعيش مريب يتوقى يطلب الماء فيبدون ابتساما
لم يزل يبحث عن فيه دما أسودا من كبد ذاب رماما
باذلا الأخطر من أنفسه ويدي الانتقام الانتقاما
راح مظلوما شهيدا جاعلا لفظة التوحيد فوه ختاما

والشاعر أحمد رفيق الوطني الغيور إذا استرجت الوطنية لديه بالعنين في كثير من قصائده أو بوصف المعارك وآلام المستعمرين فكثيرا ما كانت تبرز في صورة الشكوى الخالصة من المستعمرين وأشياعهم وهي اما شكوى عادة متشحة بظلال قاتمة حالكة السواد في نفسه وتعبيرا عن احساسات المخلصين من أبناء الوطن يدفع الشاعر في وصفه واقعي صادق محزن لما يردى فيه الوطن من السوء حتى ضاق به ابناؤه الاوفياء المخلصون به مهما هددوا به من قتل أو زج في غيابات السجون لما عانوه من ظلم وحيف وتعذيب وإذلال الى درجة المساواة بأحقر الدخلاء من اتباع المستعمر وأدوات قمعه من عبيد وأحباش وسوماليين إذ يقول :

(١) إلى متى نحن في هم وأوجال ... تحيا على الضيم في سجن وأغلال
في بلدة كوجار الكلب مرتعه ... ساءت بنا بين أعداء وجهال
عانت علينا وقد كانت محبتها ... وبالا على كل حر النفس مفضال
فالخير أفضل منها الكريم وقد ... ساءه فيها يهودي وصومالي
وربما عد عطب الدارجين بنا ... لو لم يعززه عطب الشعب والآل
نصف البلاء أتى من هم غاصبنا ... والنصف منا بإلحاد وإضلال

ويسترسل الشاعر في وصف مصائب الوطن من بعض افراده الذين باعوا ضمائرهم للمستعمر نظير ما يتقاضونه من منافع مادية ذات من أجلها رقابهم وديست كراماتهم وباعت ضمائرهم بأبخس الأثمان والذي آلم الشاعر ولكأ جراحات فؤاده أن يطعن الوطن من بعض أدعياء الدين والشرع الحنيف . فهذا قاضي البلد مع رقيات المستعمر لدرجة مهينة حتى فقد شخصيته وما نص عليه مبادئه دين الحنيف الداعية الى جهاد الكلمة وهو

---

(١) من مذكرة لكاتب الفصل عرضت على السنة الرابعة كلية اللغة العربية بالرباط .

أفضل الجهاد لانه يدل المستعمر الشطوس وهذا الشاعر يعبر عن ذلك القاضي أكثر من مرة في صور أدبية لاذعة مستعملا الالفاظ العامية التي يرى أثرها القوي في نفسه فنلا أدبيا ليزجر سامعوها ممن بقيت فيهم بقية من حمية عربية تحول بينهم وبين السير في ركاب المستعمرين يسترسل الشاعر فيقول :

قاض قضى الدهر أن يشقى البلاد به	من جور حكم واغفال واهمال
يرضى بما يغضب الرحمن ويسخطه	إن كان في ذاك مايرضى به الوالي
يكاد يسجد للحكام مرتعدا	من جبنه بين ترحيب واجلال
لو أنهم أمروه أن يبيع لهم	ساعات لأي بالنص في الحال
قسى بقضر لاضرار تقاعدنا	مع العدو وباع الدين بالمال
قد اذهب الفيتر عنه كل هيبته	فصار كالقرد يجري بين أطفال
يهزأ لعينه في كل مجتمع	كانيس غطى على القرين بالشال

فرحة العودة وجهاد في سبيل الوحدة

وتدور الايام دورتها وتلك الايام نداولها بين الناس ، ويعود الشاعر وقد أيد به الصبر حتى شهد مصرع الباي وانحسار المستعمر ذليلا صاغرا مهزوما مشيعا بازدراء الشاعر وسخريته من غرور الواثق إذ يقول من قصيدة مطلعها :

إذا انتفخ الحمار بام عمرو	فلا رجعت ولا رجع الحمار

يعود الشاعر وقد ملأ السرور والابتهاج أقطار نفسه حتى فاضت بفرحة الايمان جوانحه وتدفقت فرحة أنغامه عذبة رائقة على أمواج الشعر العامية الأخاذة بمجامع الافئدة تحمل الاشواق وبشائر الامل

الشاعر مستعينا السحر وذكي في نفسه مضاعفة الجهاد الحقيقي الذي يتطلبه الوطن من المخلصين من أبنائه وطبيعة هذه المرحلة من مراحل الجهاد تحتم السير جنبا الى جنب مع الأعداء متظاهرين في حكومة عهد الاتحاديين ودعوة أبناء الأمة بالتفاف حول الرأي الداعي الى وحدة الوطن وعدم الاستماع لمن يحاولون الوطنية ويحاولون تمزيق الوحدة لنيل أطماع شخصية يضحون في سبيلها بكل شيء حتى بالوطن نفسه في الوحدة وهو يحصر الوطن في هذه المرحلة كما حصره في العهود السابقة وهو يستمع برأي الحر الجريء فيرمي بالخيانة والردة كل من يميل نحو الفرقة التي لا تخدم إلا أعداء الوطن أو أخذ السبيل للوحدة ويرى أن سبب النجاح في تحقيق هذا المطلب الوطني لن يكون الا بجمع الكلمة واتحاد أبناء الوطن فاذا نجح بتحقيق الآمال أو مون جانبي في سبيل تحقيقها وهو يرى أن هذا التحقيق ممكن كل الامكان لو اتفق الجميع على الوحدة والاحتكام بمذاهبهم عن الحرمان ودعوة المتفرقين .

وقد تجلت قوة الشاعر بالعودة وحماسته للنضال في هذه المرحلة في براعة اختياره للجو الكامل بما يوفره للعواطف من انطلاق حر وبما يمتاز به البحر من سرعة الحركة وشدة النغم الموسيقي المثير لحماس العواطف وسرعة تلاحقه وارتفاع نبراتها وهذه بعض ابيات القصيدة التي كانت أول قصيدة له في وطنه بعد عودته من تركيا سنة ١٩٢٩ م :

(١) رجع الفلوح من بعده ... حصاد الغريب الذي بلاده
الحب يقصم ريحه ... والشوق يلهب في فؤاده
وبشائر المستقبل الزهرا ... هي تضاعف من جهاده
لتجري حياة حرة ... هي وحدها تقضي مراده
كانت مشاد وكان لنا ... جرائها حب اصطباده

---

(١) ديوان رفيق ج ١/٦٧ ـ ٦٨

ومنها :

تتسم العـــدو زهـــوه ... بلـــغ النهاية في اشـــتداده
زيد مر لكـــن م يكـــ ... ـن اخر من عـــدم اتحـــاده
من ذا الـــذي يدعو الـــى ... تقســـيم جـــزء وانفـــراده
تفريق و برقـــة دعـــن ... دعوا بلس « خروج عـــن سداده
مـــا بلـــدة غـــير جنـــاية ... تاتـــي على باقي عتـــاده

ومنها :

ماحكم عن تنشق عـــن ... رأي الجمـــاعة بارتـــداده
وعـــن الـــى تبـــين انـــ ... ـــع بالمرونـــة في انتقـــاده
وعلـــى المثـــابر للمـــرا ... بـــ بالمثابـــة في رشـــاده

الى ان يقول :

فاذا اردتـــم نجحـــه ... فعلـــ يعـــول من جهـــاده
كونـــوا جميعـــ قـــوة ... لا كـــن فـــرد باجتهـــاده
ان الحيـــاة معـــا وانا ... (٥) الممـــوت في ســـبيل نجـــاده

وقصائد الشاعر الوطنية اكثر من ان نحصرها وهي غيض من فيض وقد لا نجد المساحة ولا نأخذه في وطنيته لومة لائم ولا يخشى من تجبير عدا فهو مثلا في قصيدة له بعنوان اتحاد وتحذير يهز الشعب هزا عنيفا ليتنبه من سباته وليس ما يحدث اه من مكائد وما يحدق برجاله من اخطار وهو يحذر من فئة انتفعت من الذين ستارا للتخدير بـه عامة الشعب تلك الفئة التي خانت الوطن وحكمت في الشعب فعسفت وعملات المستعمر انيل الاموال والارض وهي الفئة في ادعائها الوطنية بعد خيانة وهو يضرب

مثلا فاسا فيه نساءة هذا العرض الذي لا يعد اليه شرفه مهما أظهر مناجيه من توبة وصلاح فهو ماجور لا يخلص إلا لسيده المستعمر الذي اشتراه بالاصفر الرنان وهو يهكم من بني نفسه باستقلال رقة تقسة في وعود بريطانيا تلك لسانة الاستعمارية الخبيث الذي فهم صدق وعوده في تفريق السودان عن مصر والهند عن ماكستان وما زالت يدها الآثمة مخضبة بجراح فلسطين العربية .

ولهذا فهو يعت على اليقظة وعدم الاغترار بغير المسلمين ويشوهم في الاسماعة بخوانهم العرب الذين تمثل الجامعة العربية ويحضهم على التمسك بالوحدة والاعتصام بها للنجاة من كيد الاستعمار ممثلا في الادارات البريطانية والفرنسية والايطالية ، يقول الشاعر وقد جرى فيه روح مشابهة لروح الشاعر أبي القاسم الشابي مع ازدياد هو خبرة تقدم السن في هذه الفترة :

[1] اقرأ الكرى واستعذر الاجفانا	[حرك] [2] لعلك توقظ النياما
يا روح هذا الشعب ما لك رقدة	حتى يهب من الرقاد قياما
وحتى نفسح عينه منهلا	اخز عيلات الفاسدين دما
اندبن بالعمل والشجاعة	واعملوا بها يفدون مراما
يا أيها الشرعيون ما لكم	حتى يخولكم لذاك مقاما
لستم بأهل ان تسوسوا أمة	لم ترضكم لأمورها قواما
للشعب في هذا الزمان ارادة	تعلي الحقوق وتحسر الأحكاما
عصفت بسيطرة الملوك ولم تدع	تحكم المتحرين دواما
صارت أمور الناس شورى بينهم	لا يملك الباغي لهم إرغاما

---

[1] الديوان ج 1/ 27 ـ 28

[2] حرك لغة عامية المصدر منها ابعث الامر في الجند

في سبيل الوطن إخلاص إخلاص جزيرة ... لي لبنة وسعه الإخلاص
إذا استبد الفرد بين جماعة ... كانوا وإن سعدوا به أنعاما

إلى أن يقول :

من ظن أرضى لوطنه وزنه ... بيد العبيد وتحت الظلام
ومن ادعى الإخلاص بعد خيانة ... وشيعة فقد ادعى آثاما
إن الكرامة إن أردت مسرة ... لن يستردها الملاح خاما
يا قوم إن بلادكم بمرصد ... أن تقبلوا لمصرعها اقتساما
في الشمال والسودان موطنة من ... جعلوه بديل الاتحاد مسما
العرب متحدون في استعبادنا ... فعلا ومختلفون بعض كلاما
لا تنسوا إلا تابيع دينكم ... مصر يحب الشرق والإسلاما
تمسوا [بجامعة عربية] أوركم ... وتمسكوا بالوحدة استعصاما

وكان وطنه الشاعر زعيمه فقد اعتبر الكثيرون مصر أفضل مشاجب هذه الوطنية الجديدة فأفرغوا به من جهودهم فرسم قضيته وفي سبيل الحق وجدها منكرا إذلك أنه لا يتذوق بالنقد العقيدي لأفكاره وإنما كان تعالجه على هذه القصيدة مجرد تقديم صحيح صادق مخلص لمن يجدون ووصف حقيقي لكثير من الأوضاع غير السليمة التي تمر فيه من حيث تسبب عوده على شؤون الرعية استبحاث عنه وحدوا مشاكلها وإنه يدافع عن كرامته وكرامة وطنه وعروبته يقول يعني خصومه ويسم أفكارهم بياسم الذل والهوان وإن منه من هو يخشى عواقب النقد الوطني في قصر عهود البغي الإيطالي إن حكم العدة المجرمين من الطليان مثل بالبو وبيونو وروكاري لا يخشى أن يجهر برأيه في شرور يأتي مسالرعد يثير بخير غرائم معهودة .

وتهكم بخصومه من ساسة لا مشاعر لهم واستفسر من أحدهم لعل أن الشاعر قد كشف نواياهم أم هو لأنه تسجم بأن حرية الشعب ليس مجال مساومة فان يستبد بها فرد أو جماعة غير حرة في ارادتها وعزائمها وأنه هددهم بأن الشعب سيصدر في أمثالهم حكمه كما أصدر الشعب الالماني حكمه في عبد الذي الذين استبدوا بارادة الشعب وزجوا به في أتون حرب أحرقت وهرمت أبناءه كما أورثته الهزيمة والعار ، من أبيات القصيدة قوله :

(١) أبا مدين بعد في غيك الغاوي
ترجو بالحق في رفق فتفرج له
فما إلى استبداد بعض الناس فيهم
بهلا رويدا سفاهم و كفكفه
قبل الحفيظ قد ضمت ضلوعهم
(تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وهل أبالي بقول الليل معول وهى
ضربي المسامير في من لا ضرب به
من ساءه صفقتي (فليستقل) صفقة
لم أخش (مجلسة) الطغيان ترصدني
نار لهم لا أبالي سوء عاقبة
أكرهت مطلب على الصمت فرضية

لا تأمنن من ظلم وعسف عمار
أعدائه واتلوا منهم على نار
(ليس يضرك والكواة في النار)
ذريعة ، تسف الطغيان أشعاري
(فت الذراع فقد تدنو من الثار)(٢)
وفي سوالة المستبد الغادر)
بي رافض عند حال وزمار
ليس يشفيه لا ضرب مسمار
أو فريت كبدا من جيله الوري
من (البو)ار(إلى البو)ار(وكاري)(٣)
ولا عذابا ولا تهديد جبار
دحت حمارهما جهرا بمضمار

(١) الديوان ١/٣٥ ـ ٣٦
(٢) لابن زيدون
(٣) لأبي الريب الهذلي
(٤) من الشرس ولا ترفة من الطغيان

الى أن يقول :

تطلبون من الشؤون بعد غد	إذا وقعنا معا في كف غدار
تذكروا عهد الذي وما عهدوا	به عليهم وداتوهم كالاشرار
لا بد للشعب من يوم يعاتبكم	على عقوق له باءت باصرار

ونلاحظ أن الشاعر قد كان متفعلا انفعالا مادة عبر عنه بجرأة وصدق جيدين فظفا على سطح ذاكرته الواعية لحافظة كبير من محفوظه من التراث العربي على مختلف عصوره كما ضمن القصيدة الكثير من معارف الجاهلية ومعاناته إبان عهود الحكم الايطالي الظالم وبعض الامثال وكذلك العبارات العامية هي ما في بعضها من سوقية فاسية زادت شدة التهديد ووضحت استعداد الشاعر لان يكون حد الهجاء مفحمة ان كان خصومه لا يزجرون إلا بهذا اللون من الهجاء .

ولكن وطنية الشاعر ليست كلها آلاما ودموع شوق وحرق اغتراب وحنينا هو دعوة الفؤاد الخافق لوطن الجميل العزيز المحبوب أو نضالا عنيفا في سبيل خير الوطن وعزة المواطنين وأمنهم وراحتهم وحريتهم سواء من أجلهم طغيان حكام الاستعمار وبسراوغ عيونهم الراصدة لحركاته الثائرة عليه لذى اسيادها بما لم يقترف . كما أنها ليست جمرا يحرق الشعب ودعوة مخلصة للوحدة التي هي السبيل الوحيد لتحقيق الاستقلال الحقيقي وسيادة الوطن والمواطن والتنديد ممن رغبوا في تفريق وحدته لتحقيق مآربهم الشخصية مما يؤلب عليه الخصوم يرمونه بالزيغ والفسوق بل كان للوطنية لديه مظاهر أخرى هي الفرح إن أصاب نجحا وتقدم بخطوات الاستقلال التام أشواطا وهي كذلك تصوير للشموع التي تحترق في سبيل لتنير مشاعل الثقافة وتربية الاجيال كتصويره حال المعلم وما صارت اليه من بؤس ودعوة صادقة الاخذ بيده وإزالة الضر الذي

حسه ودعوة صادقة لتعليم الفتاة وهي نصف المجتمع لتحرر من قيودها وتطلق ارادتها لحرة الواعية إذ هي فتاة اليوم وأم المستقبل ومعلمة الاجيال ساعتئذ هذا الى تشويره البارع لجمال طبيعة الوطن وتصويره بنبتها وفي هذا تعريب بقلوب المواطنين واشادته به توصل اليه العلم من ثمرات عقول كالكهرباء والمذياع وهو بذلك يدعو للتسلح بالعلم رمية العرب للتقدم وقوة تي تداولوا بها الشعوب المتحضرة فاذا رادت شعوب الحرية والسيادة في أوطانها فلا بد لها من التسلح بنفس السلاح ذي العدتين الناشئين .

فها هو يطرب ويشدي لفوز الفتاة العربية في هذه الايام المجيدة التي قررت سيادة بني على أرضها وحياتها في تقرير المصير الذي ارتضته ونوع الحكم الذي تختاره وهو يندد بالاعيب بريطانيا وحيلها الاستعمارية لتقرره ويحذر من المصير الذي آل اليه نظر الاردن الذي انتزع من تحت موالد لها وهي التي تحاول أن تعيد الدور مع ايران اذ تسعى الى تسلل ولايات متحدة وان تكسون نتيجة عون فكرة التجزئة لا كما جنت براقش كلبة تدوم على أصحابها بما اشتهر المثل أودى بهم إذ دل أعداءهم عليهم فتجدهم بكرة بذلك وهو ينصح شعب بغداد لان يعي نفسه ويحمي أمره ونشد ما يرتاب فيه ضميره من جميع الكلمة على هي الاستقلال الحقيقي ووحدة تراب الوطن فيقول :

(١) هازت نفيستا بكل نجاح ... فيوم يسوء السعد والافراح
اجمعت بفضل الله رغم عداوة ... دانت احاربنا بشر سلاح
كم مثلت فيها دسيسة ، بيدا ... حتى اذا فشلت وخاب اميرها
حتى اذا فشلت وخاب اميرها ... بادوع حق كالشعاع صريح

(١) الديوان ص ٤٦/١ ـ ٤٩ .

مدت مظاهرة السرور لأنها	رددوا بها في نغم والانسراح
يا أيها الشعب اجتبد لسيادة	فراقبة سائي على الارواح
متكون حصنها على استقلالنا	ليضع بين تخاسم وتلاحي
وسوف تخدعنا بمهد مذلة	فمت بشرق الاردن المجتاح
تتويد سيرتي التي بدأت بها	يوم انتحت منا ثلاث نواح
ركنون نحن له دريش تماثل	الا على أعدائهم بنباح
يا أيها الشعب استمع لنصيحة	بتدبر واقبل الى التصاح
عملا على استقلالنا في وحدة	في ظل عرش قائم الكفاح

ويصور الشاعر حزن العالم في واقعية رصدق وعذوبة حزينة تتطلع إلى القلوب لهذا الإنسان النبيل الذي يحترق لاسعاد المجتمع دون أي انتظار للتقدير من أفراده على مختلف مستوياتهم العقلية والاجتماعية قد يصور شقاءه بمهنته النبيلة في عباد الدروس ليلا وتوصيلها للاذهان نهارا وترتيب زيارات المفتش وتوجيهاته غير السديدة ومعاناة ضبط الفصل وحل شكايات التلاميذ والتغلب على جبلهم وخبث بعضهم منهم وهو على كل هذا صابر أشد الصابرين تحت الهضم إن مشاغبي منهم كالصبح الأتهم يشير اليه وهو الذي فرق عمره من أبناء مجتمعه فنصب نفسه لهذه المهنة الشاقة الرقيبة التي لا يقدرها قدرها ولا يحسن الثواب عليها إلا الله تعالى الذي كانت أولى آيات كتابه هذا طلبها وتنويها بشأنها « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق إقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » والشاعر يحيي بالوعي على المجتمع الذي لا يوفر للمعلم الحياة التي تليق بمثل رسالته بل لا يوفر له ما يوفره للجهال من الناس فلم يسلم المعلم من ازدراء المجتمع له وتقاعدهم من شأنه على أنهم يحلون من هم دونه للثراء وإن كانوا خلوا من فضيلة وبر ويودون له الانطلاق من حياته

التي استعمد فيها الدرهم لأنه لابد من توفيره لحفظ الرمق وإقامة لأوده .

فمن قصيده يتوالها حال لعب هذه الأسباب .

(١) بحرمة خلق العباد اعدل ... بعيش يقتضي عمره يزالهم

يقضي غداه الدرس طول نهاره ... ويسهر فيما في غد سيطالهم

يعاشر أحداثا فلا هم ذوو حجى ... ولا هم مجانين فيعذر عنهم

يصد أبهم أم للفتش درسه ... أه قد لو مد بات يبني ويهدم

يعالج شطارا فيكسب رعدة ... لكبر ولكن عثرة ستقيم

زمن أعظم البلوى اذ كان بينهم ... حبيب على استاذه يتعاتم

يجود بأقصى ما يجيد ليفهموا ... وما فهموه الا أمس وابكم

ومن أغرب الأشياء ان سرتها ... فؤاد الى تفهيم من ليس يفهم

فلست ترى مثل المعلم ساريا ... ولا مثله من يستفيد فيحلم

اه انه لا فيء يدرك راحة ... لمعسر ولا من أنس الناس سلم

سقوط بيد العقل من سوء حظه ... يلاقي الذي لاقاه غابه وشتم

فما عذروا حسن المعلم قدره ... ومن حقه كانوا الذين يعلم

كفى شرفا للاسم العلم انه ... به كان قدما يدعى ويكرم

فلو لم يكن قدر المعلم عندهم ... لذيما ما كانوا به حين عاطروا

وهل جاد قرن العلم في عقل لاعب ... وليس الا ما يشاء المعلم

ولكن هضم الحق في الناس عادة ... تصاب بها الحر الاديب وتسقم

فأدرى بأن من في الجهالة حسبه

---

(١) البيان ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩

فلا كان هذا العيش ان كان نيله ... يحتم أن يستعبد الناس درهم

بعث أيها السادة الفاضلة أمير الشعراء حتى شمل وطنه العربي الكبير لم تجاوز الى اقطار أخرى من شاطئ محيطها فجعلوا من هذه البقعة البشرية في العالم الكريم الذي يرسمون للاجيال صوره ويحيون ابطاله وروب الداجين ولم يكن أمير الشعراء ايبا هو الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقة الدامية فنبه لفداحة خطبها بل شاركه في ذلك أمير القوافي في أرض الكنانة حين دعا من قصر الحلم وبعث على تكريمه بتفضيل النزول في بلاد نزل رسالته التي رفع بها شوقي الى مصاف الرسالات السماوية لانها تحقق قصد أهدافها إذ يقول :

قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا
اعلمت اشرف أو أجل من الذي ... يبني وينشيء انفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم ... علمت بالقلم القرون الاولى
أرسلت بالتوراة موسى هاديا ... وابى البيون فعلم الانجيلا

واذا تركت قصيدة أمير الشعراء حتى تكريم المدرس والمطالبة بحقه في العيش الكريم دون تحويل الى أساو مأساته الانسانية لان الشاعر يحلل مشاعره لانه ربيب الشعر الخديوي فان شاعر فلسطين إبراهيم طوقان الذي عانى من المدرس بعد ان نعقبه الاستعمار البريطاني فضلا من جهله في الاذاعة اسموه بالكلس وأجبره على مغادرة زمنه القطر الشقيق العراق حيث زاول مهنة التعليم حتى ما به من مرض مزمن في الفؤاد وان شاعرنا هذا يشتق مأساة المدرس في الوطن العربي ويرد على شوقي الذي يمجدها دون تجربة بقوله :

وكذا يقولون الامير بقوله ... قم للمعلم وفه تبجيلا
لو زاول التعليم شوقي ساعة ... لقضى الحياة مناحة وعويلا

الى أن يقول :

وأتى ابن كلب بعد ذلك كله ... وخير الفضائل إنه والفعولا

يا من يريد الافتخار وجدته ... ان المعلم لا يعيش الويلا

ومن دلالات وطنية الشعر وحرصه على التنويه بدور المرأة في رقي الوطن سواء أكانت مربية في المدرسة أم أما في البيت فهو يشيد بدورها الحيوي معلمة لزهرات اليوم وأمهات المستقبل وانها تولي هذه الزهرات عناية ورعاية لا تقل عن عناية الأم الحقيقية الرءوم ورعايتها وبذا تثمر جهودها أزكى انبت وأطيب الثمار أخلاقا حميدة تسعد الارواح وينعم بظله جنانها الابناء وطنوا يشربه رفيه سعو بذوق الاسرة فترقى بذلك الأمة وتحفظ على الاسرة نصيبا لا يستهان به من تخلها بما تتقنه من فنون الحياكة والتطريز وصناعة الملابس الى ما قد تتفوق فيه من رسم ولحن وموسيقى ترهف الاحساس وتحفظ المشاعر وتحبب في الفضائل والشاعر يرى أن الأم تولة المجتمع صلاحه في صلاحها وان تربيتها على الاخلاق الفاضلة والادب الرفيع ضمان لها من الرذائل الخلقية ومساعدة لها على الخروج بأدبية رسالتها نحو المجتمع خارج البيت مع معاونة الاسرة على صونها وعفافها لا لها من سوء انحلالها حارس أمين بل يعتبر الشاعر بقيمة الأم عندما يخلع عليها سورة الحب الذي يهب الامم الحيوية والحياة فلا حياة للامم بغير الامهات العظيمات الواعيات .

ولهذا فهو يحض على ضرورة تعليم الفتيان ما يغرس فيهم روح الأمومة الأصيلة إذ وساكن الاوفى في الحياة هي انجاب الابناء وتربيتها على الفضيلة وتبصيرهم بما يعود بالخير العميم على الاوطان ، يقول الشاعر من قصيدة بعنوان للام في شتاها نصيب :

نجح تعليمنا البنات ... دليل فضل للمعلمات
فكر لنعمي بذلن فيه ... جزيلة لام مخلصات
فمن صناع ه حميدة ه في ... مطالب العلم نابغات
ومن فنون ه بديعة ه في ... بدائع الفن باهرات
فصار خير تعهدنه ... بالرعي أحفاد سفرات
تعهد البنت وهو غض ... جاء ناشي بطيبات
البنت كالبيت خير في ... تجارة العرق والنواة
أما ترى في حصاد قمح ... خباثة البذر والنبات
إن قيل إن الفتاة أم ... لامة في عديد سياتي
فنحا وهي الشعوب إلا ... بامهات مهذبات
للعلم في نسجها سبب ... سد لها من تعودن
هي السوله التي عليها ... سعادة الاهل في الحياة
تهذيب أخلاقها كفيل ... بصونها بين سائرات
وهل مع الجهل ما يرجى ... من وادها بين جاهلات
ليست فنون ما تقوم ... به الشعب من الصفات
إني أرى للنساء فيه ... وظيفة الشعب في الذوات
فلاحه لا يكون إلا ... بهن إن كن صالحات
تعلمهن ما يربي ... فيهن روح الزيات
تريد منهن أن يكن ... ربات بيت وأمهات

الغزل في شعر الشاعر أحمد رفيق

أحمد رفيق رجل مثالي لا يرضى بشيء دون الكمال في السلوك الانساني رأينا أنه قد بلغ في وصفه آفاقا عليا قارع بها الخصم الالد والعدو العاتي وفارق من اجلها وصد وعاد اليه مرارا وهو على كلا هذين مجاهد بنفسه ولسانه في سبيل الوطن لا يقيل في سبيل الوفاء له اللوم ولا يخشى لومة لائم ويستعذب من أجله السجن والعذاب .

وهو لمثاليته لا يتكالب على المادة ولا حائل يحول بينه وبين تتبع مناحي الجمال في الطبيعة والانسان يعتبر من أبدع مظاهر الجمال فيها وخصوصا إن اجتمع فيه جمال الخلق ، خفة الروح ورشاقة الحركات إن مثل هذا الانسان لا بد أن يستهوي أحمد رفيق وأشباهه خصوصا إذا علمنا أن الشاعر قد نشأ بين أحضان الطبيعة الباسمة وبين أعطاف النعيم الذي يخلق فيه بين الشاعر الصبي وبين رغد العيش في أحضان اشد لحظات الجميلة هي سفوح الجبل الغربي وشواطئ الاسكندرية ومتنزهات بنغازي ممثلة في جليانة وشهرة لسعد وجنان الحيشي وغيرها من مواطن الذكريات ومنابت الاشعار .

وديوان الشاعر قد حفل بكثير من القصائد التي صور فيها الشاعر مراحل الحب من بواكير تفتح عواطفه على استحياء في براكير الشباب حيث لم يكن الشاعر الكبير يعزي جمال الحب وصدقات العفوية البريئة من شوائب الحب الجنسي الى تصوير مراحل التجربة الحب الناضجة وما أحسه الشاعر أثناءها نشوة روحية ووصال وما تفتح الكون لناظري الشاعر حليه من أسرار الجمال التي أضفاها الحب على عناصر الطبيعة المنثورة

والأرضية من جمال الفن وحسن صورته على صفحة الماء الفضية لأنه يهدي الشعر ومحبوبه صورة أحلى ذكريات حبهما الأولى لتكون عونا لهما أن عبثت يد الليالي بذلك الحب وأبدلتهما بالوصال هجرا وبالوفاء كفرا وإذا الشاعر في نشوة الحب وإشراق الحياة به يشعر أنه قد رفعها الى مستوى فوق البشر وحي غدت أيامهما هي ليلة القدر في طيبها وحبب نفسها وإذا الشاعر يستعيد في شعره ذكريات ذلك الحب بعد مرور تسع سنوات عليه أمضى سنوات هجرته مع والده للاسكندرية ثم عودته بعد تفوق ورسبة سنة ١٩٢٢ م وإذا هو يسجل هذه الذكرى التي أعادت اليها ذكريات ما زال حية ينبض بها قلباهما الفتيان والتي صور عنفوانها بأنه قد منعتها من الحديث وورث خديها حمرة الخجل فتنبأ بالسعادة أحدث كأس الذكريات ولا أجد أصدق قوله الشاعر من هذه بدأ الحب :

(١) عشقت وكنت لا أدري	ولا أعرف ما الحب
ولا يخطر في فكري	بأني عاشق صب
أنا في ساحل البحر	قبيل ساعة العصر
نحاسي الماء أو نجري	على الشمس لا أدري
بأنا للهوى لعبة	وإلا أننا صحب
فما زال تلاقينا	يزيد الحب تمكينا
تنفسر عني ناجيت	بسر غمض فيها
تسير الكهرباء معي	تحدر عاد القلب
وشعر ليس مخفيا	عن الادراك مطوي
وشعر الحب عفريا	فوريا جارفا حيا
أيامنا عشرة عشق	وليلة سهله صعب

(١) الديوان الغزل الرابعة والعشرون ص ٢٤ .

وكانت قبلة حمراء كشفت بردها السترا
عرفت السحر والسحرا وذقت بخمرها سكرا
عرفت وفي لي لب عرفت بأنه الحب
عرفت الحب لا يخشى من العينين في العين
وفي سحرهما خطفا لوحي بين قلبين
وفي الثغر إذا رفا من الدر بسطين
رشفت رحيقه رشفا فكان السكر سكرين
سكرة بالهوى صرفا والمزج بالبين
فكم كان الرضا عفا وكم نغصه العتب
ولكن لم أكن أدري على ما مر من عمري
بأني عاشق حسب فهل هذا هو الحب

فالقصيدة تجربة كاملة مبكرة للحب بما فيه من مشاعر حالمة تجذب الإنسان إلى بعضهما انتظار وتكرس لها الساعات أو تعمل الحيل لإيجاد فرص للتقارب وتخلي الجمال الأسر ثم تقع التجربة بعد أن تهيأ الأجواء لتصبح لقاء فاعجاب فتقارب فيكون أول رسول للغرام وأول سهام كيوبيد إنه قبلة الاعجاب والرجد وعواطف الشباب المتدفقة التي تضع النقط على الحروف فإذا حقيقة الحب بغاية جلية توضح غامض العواطف وتجلو هولها فإذا الشاعر وهو على أعتاب الحب والرشد وقد ودع سني ما بين الطفولة والشباب الزاخر بالحياة يدرك حقيقة الحب الخالدة بدركها في سحر العيون ما فيها من برق خاطف يعبر عن العواطف الملتهبة في القلبين وتذوقها في رشف ثغر الحبيب يسكر بسكر الخمر بل وأشد وكذلك يسجرانه أو يعذبه ويؤكد الشاعر أن هذه التجربة هي الأولى في حياته

العاطفة فهو ما زال غير مدرك إن كان ما مر به هو الحب .

وأحمد رفيق سعيد بتجربة يصورها في عفوية ويسر والحور قد اتخذ الموشح إطارا للقصيدة وإن لم يلتزمه تمام الالتزام خصوصا في الفصل ما قبل الأخير الذي جعله خمسة أبيات بدلا من بيتين كان يعقبهما بالفصل ثم هو بعد ذلك يجعل خرجته قصيدة على غير نظام الموشح الأندلسي عند ابن قزمان الأندلسي وإن كان هذا ليس بدعا في عالم التوشيح عند ابن سناء الملك وغيره من وشاحي المشرق .

أما في قصيدة « ما العمر إلا ليلة » فقد بدا الشاعر محبا عريقا مولها فهو يعبر حبيبه أن يقتنص صفو ليالي العمر الجميلة البيضاء تحت ظلال الأشجار المزهرة حيث يعبق صفو الذهول عن متاعب الحياة وصراع المادة في ما يشبه أحلام يقظة الحب وما عبر عنه الشاعر سكر خمرة الهوى الذي يضعف منه لمح الظل وطيب وقت السحر .

والشاعر يصور تجربة الحب في قدر كبير من الرومنسية حين يخلع مباهج حبه على الطبيعة ويمنح فيها أسباب الحياة وعواطف الإنسان إنه يجعل الطبيعة يخلع عليه من جمال الحب فالنسمات لا تتعطر بعبورها على الأزهار المتفتحة الندية وقت السحر وإنما هي عبقة بريا الحبيب ومعطر الحب . وإذا به لا يعزو تسرب الظل إلى أسبابه من تموج الظل وإنما لاتجاهه بالالتفات لاختيار سعادة الحبيبين بلقياها له سيان السحر التي ألفت بهما وإذا البدر سعيد بسعادتهما كأن به حياء أن يعكس عليهما صفو خلوتهما ويتعجب الشاعر من عدم إدراك هذا الجمال الرائع في عناصر الطبيعة الذي زاد عن سابق مألوف الشاعر منه ولا يجد تعليلا معقولا لهذا الجمال الساحر إلا جمال الحب الذي زين صفحة الكون في فكره ويتعمق الشاعر في تشخيص عناصر الطبيعة عندما يمثل جمال صورة القمر على صفحة البركة

في تلك الساعة الحالمة بأن القمر قد ناق في ابتدائها ليهدي للحبيبين ذكرى لعهدهما الذي عقد به في تلك الليلة وليكون مسعفة لهما في رعاية العهد الذي قطعاه ، يقول أحمد رفيق :

(١) في سكون الليل في ضوء القمر ... في ليالي الصيف يا أحلى السمر
يا حبيبي قم بنا نحتفل في ... بقعة ناعمة في ظل الشجر
قم بنا نسكر من خمر الهوى ... في نسيم الفل في وقت السحر
فسنان كلما سرت بنا ... قلت عنا لانفجار الزهر
فغدا هيت مع الصبح لنا ... نحتسي فيه وشاياة الخبر
يا حبيبي كل شيء حولنا ... يسكر الغيطان حتى الحجر
ما ترى البدر سنا مبتهجا ... يلقانا باسما في خفر
يا له الليل ما أجمله ... كشف عن حبي الى الآن الستر
أترى زاد على معتقد ... أم هو الحب تجلى في القمر
نتأباه غير ما كنا نرى ... فظننا أننا فوق البشر
بلغ الحب بنا مرتبة ... بعدها لم يبق نحب ونمر
يا حبيبي وانظر البركة قد ... عكس الماء بها ضوء القمر
انظر البدر فيها إذ بدا ... جثة مستجليا من نطفر
إنما الهدي لذكرى حبنا ... من غوالي رسله الحلى الصور
فلتكن ذكرى لنا سعدة ... كلما جرت لقصاريعه القدر
ولتكن ليلتنا في عمرنا ... ليلة القدر الى الفجر الأغر

هذا قصيد الشاعر جراح قلب وهي التي أنشأها سنة ١٩٣٤ م وهي

---

(١) الديوان ص ١٢٥ - ١٢٦ .

هي جزء من الغنائية العربية وصورة أصيلة للشعور الدائم على صدق العاطفة التي عبر بها الشاعر عن ذكريات صادقة فنية للتجربة لم تمكنه الأيام من اجتناء ثمارها فهو قبل هذه الفترة كان قد ترك الوطن وترح بحر سمعا الجيوش الإيطالي للمرة الثانية وكانت وجهته تلك بلدة جيجل فلما عاد الى بلدته بعض الصادقة حيث قديما أوجعته النوى عنه وكان تلك الصادقة أثرها في إذكاء نار الذكريات والشاعر في هذه القصيدة ينقل الى صور عواطفها وتصرفاتها العفوية إذ هي معاجاة لم يكونا يتوقعانها كما يصور أنه كانت أكثر جلدا على تحمل المفاجأة وقد مرت التجربة بسلام إذ نجى كل منهما على جراحات عميقة تلابها المثابرة تتسامى على جراحه وامتد حديث وسائل الشاعر أحد ما سوره إلا هو قول شاعر فيجيب بمثل القديم إن القول ما قالت حذام وترك الناس تظنونهم وقواعد الجراحات وآلامه فهو يقول :

حبا بدور بنت الحبيبي	وحبي سوق الظلام
رأيت وجها جميلا	أنسى دمار غرامي
حييته بابتسام	فلم يرده بكلامي
وأضرق السر في صدري	(1) وجهه من كلامي
لولا الحياء ما رد	(2) لي جواب سلامي
عند الحياء كلانا	عن بث ما في المرام
من بعد تسع سنين	مرت كرؤيا المنام
وتوبة وصبابة	ودموعة ودموع
هبت بقلبي ذكرى	مرت كذكرى الحمام
فرحت أهتز سكرا	أميل كالغصن هفهاف
دراج ثبت مني	بهجة واحترام

فـلا تظنـن شـــرا تهـوي بـه في الحـرام
قالـوا : أهـذا صحيح فقلت : قـال هـذام

وعسى يكن من أمر وسواء أحب شاعرنا فتاة بعينها مثلما تقاليد العربية أن يبوح باسمها فضلا عن أن يلهج به ثناء الشعراء الغزلين من حسيين مادين أو عذريين فقد ترجم الشاعر عن عاطفة الحب التي تسيطر على عهد الشباب كما أكد أن يسبل الى الجمال ممثلا في شخص الفتاة وفي مظهر الطبيعة رفيع الاخلاق أن انه صور لنا تعلقه بالجمال المطلق الذي هو امتداد القيم الثلاثة الخالدة ورسم عواطف شبابه الزاخرة التي شبهها بالجنون وأكد أنه عندما يزار الرغبات الجامحة فهو يتوق من تسبقة عنوان سينيا العصر :

(١) ويمـر رمضـان الشبـا ب يمـور بالنزعـات عاتي
يغلـي الـدم الملتـاج من شـهواته المتوهجات
تفتـح الرغبـات تنـ ـتبه الحواس من السبات
تستيقظ الاحـلام أحـ ـلام الهوى بالمغريات
تـرى الحيـاة كأنهـ ـا بعث الطبيعـة للحيـا ن
حيويـة تسـري كمـ ـا يسـري الروح في نشـر الحياة
بعث ؛ حيـاة نشـاة أخـرى شـعور بالفتاة
ميـل الى الجنس الجمـ ـيل سـفه من الحسـان فتانات
ذوق تذلـل الجمـال على النفوس الرهفـات
زمـن الهيام عـواطف وخـواطر وتهـدل
عهـد ابتـداء الحب عهـ ـد العشق عهد الذكريات

(١) الديوان جـ١/٧٩ـ٨١ .

كالمسكر لا بل كالجنو ن وحبه ذلك من صفاته
ثار الشباب لروحه فسي رغباته روح لا فحواه
حتى إذا نضج الشبا ب وهان حمل الواجبات
وتمر أيام الكهو لة بالفتور وبالاناة

حتى في هذه الايام التي يجب أن ينصرف فيها الشخص عن رغبات الشباب وهواته فما زالت روح شاعرنا فيها من الحيوية والميل الى متع الشباب وملذاته الشيء الكثير من ميل للجمال وتعويل حول الفاتنات اللاتي يسلبن به ريعان عواطفه وزوغاته وإن كان هذا لا يمنعه من تقدير قيمة الجمال المطلق الذي به يبلغ الانسان اسباب السعادة الاخيرين دون انتظار جزاء +

لكنني شيخ ولسي روح الشباب ولي صفاتي
روح تلوب على الجمسا ل تعوم حول الفاتنات
عقلي معي حتى يلو ح الحسن تكثر عربداتي
سأعيش في مرح فملا معنى لياس في حياتي
أيقنت بعد تعصري ان السعادة في الحياة
مهر الصبر من الفتا ن والمداوة والكتمان
ومحبة الانسان من غير انتظار مكافآت

ويرتفع الشاعر محلقا في سماء رفعة الحب وتقديسه في مجالبه التي ما تنفك الايام تكشف منها عن كل مشعل يروع ويرتفي به الى حد اعتباره سرا عجيبا من الاسرار التي اودعها الله مخلوقه هذا السر الذي لم يدركه العقل ولا كشف عنه تجارب العلم ويخلع الشاعر كثيرا من صفات الكهرباء وهي آية عصر الشاعر على الحب إذ فيه اشراق المصابيح الكهربائية عند

لنظام عطاها السنة والهيبة والسلطان المقدرة على القهر والبطش مما يتبادر للكهربائي من قوة صاعقة ويوضح الشاعر اختلاف آراء الناس فيه ما بين مادح وقادح :

أما الشاعر فانه لا يساوي بسحر قوة الحب ومقدار سيطرته على النفوس شيئا آخر ويضرب مثلا لجبروت الحب ونفاذ سلطانه إذعان إدوارد ملك انجلترا له وتنازله عن عرش ملكه الذي لا تغيب عنه الشمس في سبيل نور عيني من أحب فخلصا من سيطرة الملك وهو السلطان والشاعر يفضل ادوارد على كل من الطوسي وكابوتر الناس لم يعظما الحب بل زادا أن يحطما اله هو الملك وكذلك لم يكن منه قيس الذي لم يضح في سبيل حبه الا بعنيزة هزيلة لا قيمة لها ولهذا فقد عد ادوارد ملك الحب وملكا يستحق في تضحية وبذه في مثالي لامع بل عد الانسان الذي يرث الخلاق في رأي الشاعر من كل عيب فاضي بذلك لملك العربي :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

يقول أحمد رفيق من قصيدة له بعنوان « سلطة الحب » :

هو الحب ما تحت الثرى مجاله ... وتقهر من حين لعين غرائبه

هو الحب لم يستكنه العقل كنهه ... ولا العلم حلت منه غير تجربه

له من سنات الكبرياء قمائصا ... إذا انتظم الخفقان أشرق ثائبه

إذا مس من تيار القلب عرقه ... تمكن حتى سلب الحس سالبه

لسلطانه قيس إذا ما تحكمت ... بزائده لم يبق شيء يعاقبه

تحيرت الافكار فيه فمادح ... له ولاعليه وكاشر عائبه

وما زال رأي الناس في كل عادث ... كثير نواحي الضفتين متى مذاهبه

وحبك في ماشاء الخوشون لستم ... هو الحب في التاريخ ما عد ذنبه

تنافر جنه اللذ والحب واتحى ... الى جانب الملك المتوج محتربه
وواهن يأسطول على البحر حاكم ... وذي لجب في البر يخشى كتائبه

الى أن يقول:

هناك جزاه الحب ما هو عتاده ... سوى قلب انسان وسهم يلاعبه
وصاح بجاه الملك صيحة ثائر ... انا الحب فاعرف قدر ما أنت طالبه
فوفى فراراً لم يعقب وراءه ... سوى قاتم حيران يكتئب وجوانبه
فسولته لو لا الله لست تركته ... (لزاز من ذاك السرير جوانبه)
وقال ربح يستثير في دوله أذ ... ى التاج فاستغنى عن التاج صاحبه
ورددته لا تسعد الدولة التي ... ولا يسعد سادا تقول أقاربه
وراع بساج الحب فوق جبينه ... يسمه التاريخ والشعر واهبه
غدا ملكاً للحب لم يأت مثله ... على الشعر انسان ولا من يحاربه
تعزز من حب فصار بك ملكه ... به سيم الخوانيق فتاعن مهابه
ولا كليوبترا في الشقاء بحبها ... سواها الذي حياته وعقابه
ولا مثل عيس لاقتداء لحبه ... سوى خيمة حدباء فيها حبائبه
وأصبح في بيت الدوار فسوره ... بمثل كتف العزم سفي مشاربه
وفسح حين ما يخال لعدمه ... (كفى المرء نبلا أن تعد معائبه)

وهكذا فقد ارتقى الشاعر بمكانة الحب في أسلوبه القصصي الجميل الذي بث في أعطافه تشخيص الرائع والحوار البديع واجيا في قصيدته بث الأحداث كما بث فيها حسية الشرق الأدبي الذي أحس الشاعر تفجيره فأتى بالبديع الرائع من المعاني وبعد فلا ضائر قبل تمام حديثي عن غزل الشاعر من أن أجعل منك ختام هذا الغرض البارز من أغراض شعره

هذه المقطوعة التي عبر بها عن غايته الفنية من النصب وإن الحب عنده مصدر تعذيب محبب إلى نفسه الشاعر وإنه باعث إلهام إنه حب عذري إلى أبعد حدود هذه النقطة إنه يكاشي من محبه بأن يصبره معللا بخيط رجاء يرجوه عسى نظمه إنه يطلب منه أن يسمح بومه انحنايه على كتفه العربي أو اتكئ عليها وذلك الحب ليذوق الحب فيشعر حالات أهله حلوا في أوقات الزمان والشعراء من عربق الهجران وليذوق الحب ممزوجا بمرارة وصاله بمرارة الشقاء الذي من توجس العظيمة والشاعر على كلا الحالين هو افتتان البارع على أوتار الحب الشجية المتحركة لوجدان البشرية إسعادا وإشقاء برقق الوجدان ويعطف القلوب على مرحى سهاده عما يرتله من آيات الفن العذري والشعر الخالد ، يقول مطلعه بعنوان عذاب الحب :

ابتسم واعبس ودعني ... بين خوف ورجاء
وارض واغضب وابدع ... في الهوى أعذب الجفاء
لا تواسني وأسلمني ... حيرتي ولا تقطع رجائي
وتدارك بلطف ... حين يشتد عذابي
لأذوق الحب في لذ ... ة داء وشفاء
وأذوق الحب مزجا ... جاء بعد رقاء
وبما لذ عذاب ... العمر في الشعراء

الرثاء في شعر احمد رفيق

أحمد رفيق رجل مثالي معجب بجميل الصفات ورفيع المزايا وهو رجل لامع في مجتمعه الليبي خاصة والوطن العربي عامة وبذلك فقد كانت له بالعلماء الافاضل المعاصرين صلات صداقة وربما صلات تلمذة وتوجيه لانهم رعوه ناشئا وشجعوا مواهبه الادبية كما أنه قد شارك بعضهم حرفة الادب والجهاد كالشيخ أحمد الشارف ثم هو بعد ذلك يقدر المبادرة الذين أدوا للبشرية خدمات جلية في مجال الاختراع خصوصا إذا كان اختراعهم بريئا من أعمار الفناء والدمار ولهذا فسوف نلمس أن غرض الرثاء قد تطور لديه تطورا نلحظ ان لم يكن في الاطار العام ففي المضمون إذ مدرج من الرثاء التقليدي الذي يقتصر فيه الشاعر على رثاء من تربطه بهم صلات قوية من الاقارب والاصدقاء والتابعين من ابناء الوطن أو الامة العربية إلى ان يشمل رثاء لعبقرية من أسدوا للبشرية أيادي بيضاء بما توصلوا اليه من اكتشافات علمية أو قد يرثي لمجرد أنه لا شخص أعجب بفلسفتهم ومنهجهم في السلوك وبذلهم الجهد في تنمية المعرفة وأكتسابها ولم لم يربطه بهم عرق أو وطن وانما مجرد الانتماء الانساني كرثائه دانو زيو وقد مات به من جبال إلى مجلة نيويا المصورة وهي تمتاز بصبغة فلسفية وتساؤل عن حقيقة ما بعد الموت وهو تساؤل طالما حير المفكرين فوقفوا بإزائه حائرين ثم عنوا جراحات الحيرة واللهفة الصادقة على خفاء تلك الحقيقة ثم ارتد إليهم طرف تفكيرهم كليلا حاسرا وكان طابع الهدوء والتأمل العميق أكبر رسوما من طابع الحسرة واللوعة على الفقيد الراحل .

فهذا هو الشاعر يرثي ابيه الشيخ عبد الرحمن البوسيري زيد في أن يحدث زلزال يوم وفاته فنجد الشاعر استغلال هذه المناسبة ورؤى أنها

من تكريم الله للعبد الراضي فهو يعلمه الخير ويعمله للخلق على هدى حياته ويرسخه عقله جدير أن تكون سنة وفاته كساعة الرحيلة يوم القيامة إذ أن ذاكره لا يمر شخصه عابرا وإنما يبقى للناس العلم والأخلاق والفضل وسمو المنزلة فقد بلغ الغاية في الفقه والعدل في الحكم والذكاء في القضاء كان ابن انس في العلم وعمر الفاروق عدلا وحيي بن أكثم ذكاء في القضاء وهو في كل هذه الخصال الحسنة جم الأدب والحياء يعطي فيمزح جدا يلبي التقوى وكان على غاية الإخلاص .

ويحب الشاعر من أسهاب في سرد فضائل البوصيري وكان يكفيه أن يذكر اسمه ليعرف له بغاية الفضل الذي يدركه سائر الناس ولكنه رغم إسهابه في إحصاء فضائله أنه ورد من جلالة بكائه لفضائله فاستحالت دموعه قريحة هو دون حسناته استحال دمعه قريحة ، ولا شك أن في الحق طرافة .

ثم يقول الشاعر كان الأجدر أن نبكي أنفسنا لفقده فهو افتقاد على وتحري تعود على الأمة العربية والمسلمين جزء منها بالخير والفضل العميم .

ثم يعزي الشيخة مصر في الفقيد الراحل بل يعزي مواطنيه أبناء ليبيا الحامضة إذ أن بقاءه هو البشر الذي لا اعتراه السرار المختفي عن القطرين معا وهذا معنى جميل يدل على شركة وجدانية صادقة في المصاب الجلل .

والشاعر على يقين من أن الله جل وعلا سيكرم مثواه ويرفع مرتبته حتى الفردوس مع الأنبياء الأبرار في الرفيق الأعلى .

ويختم الشاعر مرثيته بمناشدة الرجل الجليل الراحل الذي مست روحه إلى أعلى عليين أن يسأل ربه — وهو مستجاب الدعوة — أن يتقبل وسلاح دعوة — وحبة بن خلف على ظهر الدنيا من أبناء هذه الأمة ، ثم يشرح كرباهم ويتسلبهم الروح والسكينة يقول الشيخ رحمه الله :

١١ نعوه وقالوا أرخت اليوم زارت
فقلت لهم إن المصائب أشباه

أجب أيها الشاعي وبن أموته
وقد زارت أم زارت حين زاره

لك العذر في أن تسعى لوفاته
من الهول ما أعياه العزاء بابه

فقد وقعت في ساعة كان وصفها
مثالا ليوم ترجف الارض جوه

فان قيل من حسن التصادف ربما
موافق ما لا يقبل العقل دعواه

فما معظم الاحداث إلا تصادفا
مع البخت أو ما كان في مثل معناه

نعوه وما للنعي فيهما وإنما
هو الطيب الاخلاق والفضل والجده

عظيم فقدنا فيه للعلم مالكا
وللحكم فاروق الزمان ويحيه

الى أن يقول :

يحبه في الله عند جليسه
مكارم أخلاق بها الدين حلاه

وما كنت أدري أن في اللطف هيبة
وفي المزح جدا يفهم المرء تقواه

أطلت رثائي غير وان كانني
أعرف مجهولا أساء لعلياه

أنا كان في ذكر البوصيري كفاية
تأسى بي من أعوزته أعاديه

ولكنني من أمة غرائه
بكت فجرى دمعي فريضا فساعه

كما يقول :

حقيقتنا إن الفضائل بيننا
سواء - كلانا واحد - شيد الله

إذا غاب بدر في سماء تطلعا
ألسنا سيول كلنا قد فقدناه

عليه سلام الله يوم ولدته
ويجزى الفردوس في البعث ثواه

الا أيها الشيخ الجليل وقد مرت
إن الملا الاعلى يبشر روح أعلاه

سل الله باقين خلفك رحمة
تفرج عما هم فيه برحمك الله

---

(١) الديوان الجزء الثالث/ص ٨٠ .

ولقد رثى الشاعر نزيه وصديقه الشيخ أحمد الشارف سنة ١٩٥٠ م بقصيدة طويلة أرسلها السنين بما من البحر الكامل والشاعر فيها وإن أبرز فقيد بما يناسب منزلته الأدبية والاجتماعية والدينية فوصفه بالفضائل الخلقية من علم وتقوى ووقار في استيعاب الشرك تباين في اتساعه الشعري إلا أن قصيدته راكدة العاطفة ونحن لظرف القصيدة أكثر في ذلك فقد قيلت القصيدة والشاعر في السجن من عمره أو يلف عليها وكان حين مدته مشروبة جامحة والقيد قد اشتد به العمر فتارق الدنيا إلى جوار ربه وقد فقد بصره لتقدم سنه وشيخوخته فقدا يعين محسبه فما هو الشاعر إن أحسن استهلال قصيدته بما شيء من التجوز في قد الظلم وما ضمنه من قسم يؤكد ما ذهب إليه من رأي في فقد هذا الصديق الكريم قال مباشرة في وصف تدارف العيون الدمع ثم العودة إلى التعبير الحقيقي بصيغة الفاعل بدل المفعول دليلا على ضرورة القافية التي استدعاها نقب الراحل الكريم وإذا هو يكاد يكرر بعض أبيات القصيدة بشيء إضافة معنى وبلا مبرر كقوله :

[1] زاد يزيد القلب حزنا وغمه ... وتزيد حزن القلب لوعة آسف

واه الذي أسعى بجوفك لوعة ... في النفس ليس لشرها من كاشف

والشاعر يشعر أشد حزنه للشارف الذي يكبره سنا وربما قد رعاه ووجهه في شبابه الشعري وهو في طور تكوين شخصيته الأدبية وكان بينهما نوع من التلطف ورفع حجاب التكلف بين الطالب وأستاذه وصداقة بيلة من الشعر إلا أن مراثيه الثنية لم تكن بالمستوى الذي خلق في أجوائه الشاعر في غير غرض الرثاء فكأنه يصح أمرا حصيا قد تأبى عليه وكثفه من أمره عسرا أكثر حضوره وتضمنت أبياته الفاظا حلت من رداء

---

[1] الديوان الفصول الرائعة والمختارة ص ١٢٥ .

اللغة الشعري وورقة بن نفد خضع قانون القافية عندما كانت لفظة عارف تتلوها عوارف ثم تكون قافية البيت الرابع هي عين اللفظة معرفة أي ، العارف ، وإنما هو يستعمل بدلا من منصف وهي لا تأتي بمعناها لذه وإذا به يورد هذا الشطر ، ولوارد ولناهل زلال ، مبتدئا بالاكثر فالاقل فما دونه وهو من العشر فهو المفيد فكل من ورد الماء فقد نهل وكل من نهل فقد رشف ،

نقول :

لهفي ويا أسفي لفقدي سيدا ... قد كان يرعاني بقلب عارف
ويحبني كأخ أو ابن منصفا ... ناصفت بفضل كاهلي بعوارف
ويجذبني مؤانسا غراء في ... خلق الكريم ممازحي وملاطفي
خلق على حلم يزينهما معا ... نور الصلاح على وقار العارف
لهفي ويا لهف البلاد لفقد من ... قد كان للمظلوم أعدل ناصف
قد كان بحر معارف كوامل ... وأوارد وناهل ولراشف
فاض الخضم فأي بحر زاخر ... بالشعر يزخر بعضه بلطائف

وعلى ذكر الشعر صفرد الشاعر ببرثاء الشاعر من عجلة الدعوة للتجديد التي لم نكن عن أصحابها ولا عن الشعر شيئا لانها اصفت به وضيعت شعوبه وموسيقاه ومع ذلك كان الاجدر بالشاعر ألا يخرج اليها فهو في مقام أسى وراعة وذهول لا في مقام عرض فروض وتظريات في عالم الشعر ،

وعلى كل فقد أتى الشاعر على القصيد بأبيات قدمه وعلو كعبه في الفضاء وتعمل بما علم من أحكام الشريعة ويسعى الى إبداء رأيه في الحياة وشؤونه فيها وأعماله على علاتها لان مصير الناس فيها السير الرحيل عن

المي وان امتد بهم العمر تقضوا رحلة الحياة زحفا كزحف الملاحف .

وادا الشاعر ينكر من الحياة ويجد ما سبقه اليه الاقدمون كالطغرائي الذي لام نفسه على عدم الرحيل عن الحياة وانتظار دولة الاوغاد والسفل :

ما كنت أوثر ان يمتد بي زمني	حتى أرى دولة الاوغاد والسفل
فدعتني آنفا كان شوقهم	وراء حظوتي إذ أمشي على مهل
هذا جزاء مربي اقرانه درجوا	من قبله فتمنى فسحة الاجل

وكأبي العلاء الذي يرى ان الزواج سجنة الحمد تعذب في ملابسه ويعدد في الانسان من إساءه ويرى ان الخضوع الام رجاء تواجهه ان اتقاء شرورهم حين ومذلة وان الموت لشقاء فاجع من عناء الحياة وآلامها .

ويختم الشاعر قصيدته بالاشادة بترابع الشريف عن دارة الحمراء ومثنى عليه لصموده على فقر عيشه وكآبة البيئة وتأمله في مجيبه وشرهم عليه ويرجو له ان يجد به دار اقامة حيث القليل الوارف من أشجارها والفض البري من مائها .

ومن جيد معانيه في رثاء الشريف قوله :

اذكر بها جل أسى وسراة	الشعر يوسد عند مثل الساوذ
الشعر لا أرضاه حين يقال لم	حسن على سمر الشريعة واقفه
وهو الذي يتقيل من هو (مالك)	بلعم لا توحشني سواه لو سفه
علامة الشعرين واحد عصره	في الجمع بين فضائل وذوائه
ولي القضاء فكان أخلص عادل	بالسمع والقلبين والطرف

وكانت فيما يصيب يحكمه ... من إصواب يرى بين مكاشف
أحكامه كانت رضى الخصمين في ... حاليه للبادي والمتأنف
الحكم مجتهد يؤمل أجره ... من ربه لا من حطام زائف

الى أن يقول :

تأسى لفقد الأصدقاء وقائلا ... ان الحياة مشوبة بمخاوف
لو كنت من مات استراح بمثل ما ... متألم تمضي بسراي خبارها
أنا في الحياة على تغير نوبها ... متمثل لا أنثني بمقاسه
راض بما قسم الإله مؤمل ... في الغيب خيرا لا مناص مصادفي

ويقول :

والله ما في العيش ما يأسى له ... متأمل لم يغتر بخبارق
ماذا يدرك من حياة معذب ... بالعقل في أغلال جسم رانق
الروح في سجن من الجسم الذي ... لم تتخذ عن مترهل أو ناعق
والجسم يسعد بالعذاب مبارك ... الروح نيسا منها من طائف
ويحسب موزق الحجى فقرا إذا ... عاقبه بالعيش بين زعانف[1]

ويختمها بقوله :

عاش الخبير مشرفا بمثاله ... مستغنيا بفعاله المتعارق
مترفعا عن زلة الدنيء عن ... جاد وعن ترف الحياة الزائف
كابى الملا تعبدا وتأثلا ... في المعيشين نفسي حياة العاكف
يرجو الإله تشددا وتحلبه ... دار الاقامة في خليل رادف

---

(1) الزعانف : أوشاب الناس وسقاطهم .

أما رثاء الشاعر لمخترع العظيم ماركوني فهو ضرب من التقدير لعبقرية الأفذاذ الذين خدموا البشرية ومنحوها السعادة بالتسامح يتعذر اختراعاتهم وما من رابطة صداقة أو جنس أو دين أو وطن عوائق من عراها بحيث يستهدف الشاعر بمي الراحل فيتعرض على حب التجربة العبقرية الساعية التي يرهف احساسه متدفق التعريض والحزن فياضا لأنه نوب ذوب الفؤاد الطهر ونهنان العيون السهدة بلوعة الفقد ، ولهذا فقد كان رثاؤه بالاشجان أشبه وبرموعه ثراب مختزنة أرقى مساه ومع ذلك فقد كان على هدوء عاطفته حسيا مجيدا سبك التعريض على حظ وافر من الواقعية خصوصا عندما قارن بين فضل اختراع ماركوني الذي أشاع الثقافة ووثق الصلات العلمية بين شعوب العالم وأرائها من عناء الانسان بالرحمة وأنقذ عشرات السفن والمشرف منها على الغرق والفناء دون أن يشعوب صغير ثراه شح الدمار والإفناء الذي واكب اختراع المفجرات والقنابل وتحطيم الذرة كما أشار بآفاق العلم التي فتحها معجزة رحبة غير ذات حدود فاستحق أن تمثل الشاعر في رثائه يقول الشاعر واثقا

د علو في الحياة وفي الممات ... لحق تلك احدى المعجزات »

يقول أحمد رامي :

(1) نفيرك عادر في الكائنات ... (لحق أنت احدى المعجزات)
رسول الفن أنت طبرت تهدي ... بسحر الكهرباء البشر
فمن الصوت نهر بغير سلك ... يحلق في فضاء متموجات
وارسلت الصدى في البر يسري ... أمينا حافظا للرسالات
فطوى الآفاق بين لمح وأذن ... فسبحان بذاك تعريف السواء
وأصبحت الاذاعة في مكان ... تعم بسرعة كل الجهات

(1) الديوان الجزء الثالث ص ٦١ـ٦٢ .

فأغنت في النصيحة عن كثير ... من نصحت المدينة والدعاة
وملت به لنشر العلم جاءت ... بمعجزة تفوق لمعجزات
أمركوني وثبتك لاحترامي ... وحبي للمعاصرة تداه
وأنت أجلهم عندي لأني ... رأيتك فوق هاتيك الصفات
نعمت الناس أجمع باختراع ... خلا من كل أنواع الأذاة
فكم لك من يد كانت شفاء ... لآلام البرية في الحياة
وكم شفت على عنف سقين ... دعتك فكنت أسباب النجاة
ولم لك مثل من يسعى لباقي ... بما يفني على باقي الحياة

إلى أن يقول :

هنيئاً مارن عبرك أي ريح ... تراب ما يزال مكسحات
علوم العصر إن بعثت وكنت ... فأنت لها بمنزلة النواة
وعبد الخير في كل اختراع ... يعود إليك في ماض وآت
فما لسوى علاك يقال عبقـ ... ـري في الحياة وفي الممات »

ما تقدم نلاحظ أن الشاعر أحمد رفيق قد كان ذا استعداد طيب للرثاء له من تجربته الشخصية ومن سعة اطلاعه على التراث ومن عمق تأمله في الحياة والأحياء وسيد جيد يسعفه بالفكرة التي تروي تجربة مثلي فيه ويوسع من نظرته الحياة ولكن هذا الاستعداد يحتاج إلى صدق الجرح وأصالة الإحساس في الرثاء حتى يخلق الشاعر في أجواء الرثاء الصادق الذي هو ضرب من الفن الطيب ونزف جرح الأليم ونسيجة أصيلة للرابطة الإنسانية وهي دليل الأصالة في الفن وعنوان خلوده على الدهر كما بدا ذلك في رثائه الشيخ عبد الرحمن البوصيري ومع ذلك فإن عدد مراثيه التي

تنسيها ديوانه لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا قليلا وهي قليلة إذا قيست بموضوعاته أو غزلياته أو بوصفه الطبيعة في شعره ومن الملاحظ أن إ
تعد على بنانه لوالصد في الديوان وحتى في كتابه دفيق في الديوان ، لؤلؤ
عبد ربه الذي اتخذ عقل رمزه الشعر على غرار قلائد قصائد من مرثي
ي في البوصيري والقاضوي ومدرکوبي ولعل مرجع ذلك إلى روح الشاعر
الوطنية بحب الجمال ممثلا في الطبيعة والمرأة والأخلاق الرفيعة والى معانيه
الخاصة وخروجه من وطنه تحت ضغط المستعمر أكثر من مرة فكان اتصاله
بذكرى في الوطن والحنين إليه أثناء اغترابه أو حبابه بجمالها والتفجع
لفقده ورفع ذلك بعد العودة إليه مما عرفه عن غيرهما من بعض أغراض
الشعر الأخرى كالرثاء .

وحتى مرثيته في جبرائيل دانونزيو التي بعث بها من تركيا إلى مجلة
أبولو المصورة عام ١٩٣٨ عندما بلغه وفاة شاعر إيطاليا دانونزيو لا تعدو
أن تكون صرخة من الابتهاج لروح الشاعر التي حررت مجموعة من أسار
الجسد الذي شدها إلى الأرض وبحجبه عن معانقة الحقيقة التي طالما
تطلعت إليها ونسمات لإدراكها هي الآن الشعر منه في حياتها على تجلية عن
قصايا تشغل عقول الأفذاذ من الشعراء والمفكرين في الوصول إليها وهي
حقيقة الجواد على الأحوال الدنيوية وتقابة أفذاذ الشعراء كأبي الطيب وأبي
العلاء وذاتي بل ومدركوبي والاستسلام إن كانوا قد غيروا بعض الآراء
التي اتخذوها قاعدة سلوكية لكل منهم سار عليها حتى فارق عالم الناس
الدنيوي كما يقالها أن مختار الموظي شاعر مصر غير منازع والرصافي شاعر
العراق كذلك ان شعراء العربية من بعدهم لا يجدون في إعطاء إمارة الشعر
لشاعر فرد بينهم .

إن القصيدة على جمال الفكرة التي يعالجها الشاعر بل على جمال
فكرة النقد للشعراء في عصره لا تدل على عمق تجربة وليس فيها من تشريح

المواقف الإنسانية التي يذكر كما أنها خلت من الابتكار فهو مسبوق إليه بل قد تطرق لها بإيجاز في رثائه أحمد الشارف .

يقول أحمد رفيق :

" وقفت في عالم الأرواح أسبحت طيفة
في خيال الشعر كم حومت تبغي الحقيقة
كنت في سجن من الجسم الزاسي أسره
تستقي حجب غيب من نور البصيرة
كان ذاك الجسم يخفي زوة الروح الكبيرة
ماجن الأنجم شك عن شمس الحقيقة
فسأمرحي في عالم الأرواح أسبحت طليقة
حسبي ما شئت ما أسبح أجواز السماء
بين مرتى شعاع الحب بين الحكماء
بين أرواح فحول الشعر بين العظماء
حيث لا حقد ولا بغض ولا ظلم ولا فرق
وقفت في ملكوت الله أسبحت طليقة
بعي حتى إذا لاحت لعرقي بارقاتي
أنت الآن تخلفها ، غير حداوي ،
يدعيها شعراء عالمي في الدهر واري
تستقي مصر وسوريا افتتاح العراق
كدراويش الزوايا فقدوا شيخ الطريقة

وإذا كيف كان الشاعر بعيدا عن الوقوع تحت هول التجربة العاطفية التي تذهله عن الحجاج والخصام و تقعد به التهكم والسخرية بالناس يفترس فيهم التجرد من الدنيا للصابة وأن يهجرهم ولو إلى حين فقد وجد كريم أولوه تفهم ونصره فتح مرنة في السلوك وقلل العبادة

---

(١) الديوان الشعرة الثالثة ص ١٢٤-١٢٥

يصور هو الشاعر في سرع على رئاسة الدعوة كما تتسارع زعانف الشهداء على ذيوع الصيت وحب الزعامة الأدبية .

ثم يودع الشاعر روح صديقه وأمنا أنها على حظ من الرفعة ويدعو لها بالمغفرة ويحسن الجوار عند خالقها متأسيا أنها مسيحية أدركت الإسلام قبل بعثته وأنها من قوم عزا ويغوا في اضطهادهم على وعثه وأن افترابه هو جريرة من جرائرهم وبدا هو يحجم برغبة في الاستمرار على أمور مغرية إن نصح عنه وراء ذلك بالاتحاد لأنهم أعداء ما جهلوا ولا ندري هو يريد الشاعر أن يستمر وقد استغنى عن كل مؤخر الفلاسفة والمفكرين من قبله وهو طلب معرفة سعوة الموت الذي به تتسارق الروح الجسد ثم ما حال الميت في قبره أفي عيم هو أم في شقاء إذ يقول :

ليت شعري كيف كان الموت؟ هل في الموت راحة
هل كما قالوا يريح الجسم أم تلك وقاحة
ليس فينا العالم يحليه يقين وطمأنينة
هيف لو كان في الإمكان تبيان الحقيقة
كنت أولى من يعاينها وقد مزقت طيلسة
في أساها يا أيتها الروح الكسيرة
في أساها قد في العمر ان في أحسن هيئة
أنفس لو آتاك الفكر خطوة
حسبك أن الناس يرمون بالحسد والكفر
كل من فكر إن الناس أعداء الحقيقة

الوصف في شعر احمد رفيق

احمد رفيق شاعر مولع بالجمال شديد الوجدان يسبغه على شتى ألوانه يشيده في الطبيعة الارضية والسماوية في كلياته وجزئياته يصوره في الطبيعة الساكنة والمتحركة في سكون الليل وفي ضوء القمر وفي الربيع يرعى نحت أشعته الفضية نشيده في جمال الطبيعة بملاءة مثلة ذرا الجبل الاخضر الاشم وفي غضم البحر الابيض المتوسط بأمواجه التي تعانق رمال الشاطئ الحالمة تستهلي الشاعر وتعانق فيه السماء اللامتناهية من الطرف الغضي ينشده في حدائق ورقة تتبع عرائسها حيث تتدلى عناقيد الاعناب كثريات بلورية صافية وفي ظلالها حتى الانواع المتدفقة بحيث يتحسل السرور في النفوس الى أوان قوس السحاب كما يصور هذا الجمال في جزئيات العناصر كزهرة الورد او زهرة البنفسج ولا يفتن الشاعر حتى بالجانب غير المشرق منه فهو يتصور الصيف بما فيه من اسباب المضايقة للناس تصويرا فيه مرارة الى ما في روح الشعر من ميل للسخرية التي تغمر لطرافتها نفسه فتحيها النفوس وهو لا ينسى أن يصور مخترعات العصر التي اسخرت للانسان خدمان جليلة وذلك اذ وصف الراديو تارة كما وصف سيارته تارة أخرى وعلى العموم فقد كان الوصف نصيب كبير من شعر احمد رفيق تجلى فيه حسن التأمل ودقة الملاحظة كما بدا من خلاله مقدار حب الشاعر للطبيعة وما يجده من روح في فضاء أوطان في أعماقها وان اقتصر في كثير من أوصافه على تصوير ظاهرها صادق أضفى عليه من احساسه الجميل الشديد لهذا الناظر الشوق دون أن ترتقي عاطفة الشاعر باحساسه بالجمال الى درجة التقديس والامتزاج التام بالطبيعة حتى يصبح الشاعر

أحد عناصرها الدائرة في فلكها كما هو الحال عند كبار شعراء الطبيعة الغربيين أو العرب المهجريين مثل إيليا أبي ماضي أو أبناء الأقطار الشقيقة كأبي القاسم الشابي فيما وصف به الطبيعة كأغنية الرمال مثلاً :

زار أحمد رفيق مدينة درنة بليبيا بحكم وظيفته فأعجب بما حباها الله من جمال الطبيعة في سفوح وبطون جبل درنة الذي يقع في منتصف البحر المتوسط وفي ظل مروحة لأحد الأودية الكبيرة التي تنساب فيها المياه من ذرا الجبل الأخضر إلى البحر المتوسط فهي أشبه بواحة خضراء تكتنفها الجبال فتحميها من رياح الصحراء اللافحة وتخفي بينها وبين البحر الرملة كما أنها تمتاز بمياهها المتدفقة التي تنساب رقراقة بين بساتين الموز والنخيل فتأتي بأطيب الثمرات وهي مشهورة في الأرفاع حيث تستوي خضرة رؤوس النخيل وأشجار الموز بزرقة البحر وظلال الجبال في عين الوافد إليها من عقبها شرقية أو الغربية وبعد كل هذا وفوقه فللمدينة تاريخها الإسلامي العطر بجهود الصحابة الأجلاء الذين أرخوا حياة فيها عرف باسمهم ولذا فقد حوت المدينة عناصر الجمال المادي والمعنوي الذي استشعر به الشاعر فصوره تصويراً بارعاً فيه واقعية وحب وهيام وإكبار وتقدير فطالت قصيدته وحسن مسكناً في جزالة ألفاظ وروعة أسلوب وقد ظهر أثر ثقافة الشاعر الإسلامية فيما أحسن تضمينه أبياتها من آيات قرآنية كما تبدو حسية التشبيه كما وتجلت حيوية الحركة في الوصف وقوة التعبير إذ يصور حركة البحر هنا وهناك مثل قوله :

منظر البحر من عبير الندى ... سحر في النفس والفؤاد الذكيا
ضمها البحر من شمال فكانت ... كأبا ضمها الشوق حينا
يعطف الموج كالمقبل لهفا ... هو في سرعة ويرتد حينا

فها هو الشاعر ماثل بجمال درنة مقبس للخيال الذي أضفى عليها

فذير الجمال معهم هذا الجمال على كل ما تقع عليه عين الناظر من اتجاهها فيذهب الى ذهنه أن مثل هذا الجمال في وفي مستواه وعموم شعوبه لا يكون إلا جمالا اخرويا ولا غرابة فالطيبات كما قال الله للطيبين وهذا حسن تعليل جميل ولفتة بارعة من الشاعر في تفصيل القول في وصف عناصر الجمال على عادته في حسية الوصف وقوة التشخيص واسباغ العواطف الانسانية على مجريات الطبيعة كالطل والسرور وغناء الطيور ويرضى الشاعر الحنان لذكريات ماضيها تعزي للجيد ويقارن بين حالها في تلك العصور الخوالي وما آلت إليه من ضعف وتخلف وفرقة ويضيق من سعة ذكرياته فذا الرفاق عنه لا يحول وإذا هم يلومونه على شعره وشروده فيحتشهم التصح بالسير قدما لان الحياة للسابقين في مضمار الرقي ولا يليق الشاعر أن يعود لنصح أهل المدينة والحفاظ على جمالها وخرابها ويطلب منهم تعويد جمالها يقول أحمد رفيق (١) :

قلت لما رأين دوحة ما هـ ... ـذا تبارك احسن الخالقينا
إن هذا لمن الله يزيـ ... ـه لمن يرتضي من الشاكرينا
هذه جنة الخلود كما غيـ ... ـرها سرور لاعين الناظرينا
في حماها رأيت دار كرام ... وكناس وجنة وعرينا
اصدق القول إن أردن لها رمـ ... ـزا وظني أني من الصادقينا
مثل الجنة التي وعد المتـ ... ـقون ثوابا جزاءه المتقينا
تحت جنابها تجمعت الاحـ ... ـرار تجري فقلت إن الذين
أين حوض يمد صادقة ظلا ... وعروشا خضرا وماء معينا
يعبق الورد في نسائمها وحـ ... ـي رغده والصبح الياسمينا
وإذا ما تنهد الظل في الليـ ... ـل أغارت أنفاسه النسرينا
ذكرتني العصور وهي تغني ... لا قد فتنا بحبه ورشدنا و

---

(١) الديوان الفترة الثالثة (٢) ـ ٥ .

إلى أن يقول :

وعاونا على بشاع فلاحت ... بسقات النخيل تهتز لينا
خضرة نور والنخيل نليسا ... زرقة البحر فالجميع يسبا
منظر البحر إن علو يثير الشد ... سر في العين والغرام الذي
خدها البحر من شمال فكان ... قاب سمعا الشوق حنين
يعصف الموج كالفيل فسا ... حل في سرعه ويرتد جيشا
وتجلت لنا بدائع صنع الله ... ه تشعر أرجاءها الوديعة

ويتابع الشاعر لوصف جولة صحبة رسول الله الصحابة وما تثيره من ذكريات العزة وما تبعثه في النفس من الآلام حينما يقارن بين صنيع بالأمس وضعف ما آل إليه الأحفاد ويحث على العمل الجاد الذي يعيد إلينا أمجادهم :

زرت جزيرة الصحابة فاستعـ ... ـرت ذكرى أسلافنا الأولينا
وتمثلتهم وقد جاوزوا البحـ ... ـر إلى أرض برقة والحقينا
شيعوا الشمس للغروب إلى أن ... ـس وراحوا للمسجد مستكينا
وتلت قارئ الجماعة ما تيـ ... ـسر رفافي من محكم عالينا
سألوني وقد رأوا ما دهى الجـ ... ـو فهل كان للعواصف مني أين
قلت سيروا إن العيان لسبر ... كشف الموج فيه للسابقينا
سامحوني يا أهل جرجة ما كا ... ن ذنباني لما رأيت بدينا
فتذكروا ربكم لكم بلدة طيـ ... ـبة وارجوا به لكم آمنينا
عوذوها بقل أعوذ برب النا ... س من شر أعين الحاسدينا

أما وصف شلال دربة فقد مأنق الشاعر فيه وأجاد فيه إذ تمكن ببراعة الأديب وحسن تناوله وشاعرية وصفه أن يبعث الحركة والحياة وعنفوان الحيوية الصاخبة المتدفقة مستلة في تدفق تيار الشلال مبي عاشق حبه الطبيعة بالخضرة والماء والجلال كما استطاع تزيين الوصف بما سكبه عليه من جمال الخضرة وبأس الفضة وصفاء البلور كما امتع الأذن بالاصغاء لتدفق المياه من الشاهق ولا يلبث هذا الصوت أن تختف حدته ويتحول إلى الخرير الذي يشبه هذا الضرب المعين من الغناء وهو الرجل الذي تؤدي في إيقاع جماعي متناسق وإذا هو يمعن في الاصغاء وارهاف الحس فيقع على صورة طريفة للمياه الجارية المنعرجة التي يصل بها حصاها مسلسل الحلي بل هو أقرب إلى وسوسة الحلي العالقة تصدر عن قنوات من فضة جارية تعب الجداول من خرير رحيق الحياة وإذا الشاعر يطلق بخياله الخلاق فيأتي بأكثر من استعارة رشيقة رائقة عندما يصور القنوات بصورة الأفاعي المتثابة في ثنايا الروض ولكنها أفاع من نوع فريد ينفع ولا يضر ويسعد بالسنة تمج بأعذب السلسبيل الفرات لا السم الزعاف كما يصورها بعض الحرد الجهلات تجر ذيال ريتها على الروض وتنشرها على أرضه بما تنضحها من خضرة ونماء وأزهار كما يطرف عندما يصف الحافة عرائش العنب بالسواقي إحاطة هطال الكثة بساق الخريدة الحسناء ، يقول :

(1) إذا زرت دربة لا تنس أن تزور على الفور شلالها
فلن تبصر الحسن إلا إذا رأيت المياه وسيالها
مياه تدفق من شاهق كتلك الشبيبة إجلالها
وغنت بصوت الخرير الرتيب ترتل للدهر أوجالها
تسبح لله شكرا على جمال به زان مرالها
وجالت بألسنة السلسبيل تجر على الروض أذيالها

---

(1) الديوان الشعر الرابطة/٢٧ ـ ٢٢٨

ويقول :

تزوّق ... سائل بلورها ... يجسّ الغيث من واديها

ويقول :

كسلسلة من لجين مذاب ... تعب الجنان سلسبيلا

عروش ذارت على كل ساق ... من الفضة الخمس خلخالها

وأما وصف الشاعر لرأس الهلال فقد سلك لوصفه طريقة أخرى والهلال فيه مزج وصف الجمال بما يشبه لوحة سوريالية رائعة من شعاعية روح الشاعر وتأمين خالق الجمال الذي يتجلى فيه إبصاره وتصوره ما يثيره من خشوع وهو يتأمل الطرف في عناصر الطبيعة التي خلقه وإن كانت عناصر الجمال المعدة في رأس الهلال قد مكنت الشاعر من القدرة في تصويرها فإن براعة تصويره الفوتوغرافي الأخير عندها يكاد يعقد فيها الطرف فيبدو في الشوامخ وكأنها منصلة بالسحاب وبشرها من الثرى فتبدو الأرض كالظلال بالنسبة للسماء وهو يقلب الطرف من علو رأس الأدم فيبدو له رأس الهلال من فرجة السماء بين شاهقتين حيث الخلع الذي انحدر من شبه الشمس لقرن الهلال بدون شعاعها بداية لتصوير القمري حيث يسير خيال الشاعر إذ تصور الإنسان يصور فالحقيقة تحت ذلك إنما هو خرجة الماء ويسير الشاعر في الإحالة بما يصف أوصاف الرابي الخضراء والأشجار الدانية متهدلة الأغصان كما يصف الهلال .

هذا إذا ما اتجه في وصف الهلال وسنه وصفا يمزج فيه الخيال بالواقع ليجعله مصدرا من الجمال وكرمه بالآذان من الشكر إذ يحث الشاعر الوالد للهلال على أن يتطلع إليه بعين تتأمل الجمال وتشاهده حتى تقف على أسرار جماله التي تحجب عن بقاء العين إلا بد له من رؤيته في وقت صفاء الجو وإشراق الشمس وذلك الشعر حتى يتأمله في وقت يشاكله رونقا وجمالا ليس بذلك الأدنى بجماله .

والشاعر يقرر أن جمال الطبيعة أجمع قد أفرغ في التلال بل يسبغ عليه من سحر هاروت وماروت ويعقد مقارنة بينه وبين الكوثر من حيث عذوبته وبركته بل هو يصور خضرة شجور التلال وبللها بالماء بصورة تثير الحياة وبراعة العيش ويصور تحتها تدفق مياه التلال في مجريين يشهد عجز ساحري في شيء من التكريم والاجلال عندما يشبههما بعرقي العين بينهما قرين اسم أبي تمام ويصف حركة الطير الدائبة على هذا الشريان الحيوي ويصور عليه سرعا إثر سرب يحلق سرب المزوي منه ليصبح المجال لآخر بهيف يجري فيه ويفرغ فيه ويستغني الشاعر بجزئيات الصورة عندما يصور أصوات العشرات الصغيرة المنطلقة في لحن موسيقي من أصوات الطبيعة مع الأصيل :

ويظهر الشاعر عندما يصور في إبداع ألوان الطيف الشمسي الذي يتولد من انعكاس أشعة الشمس الغاربة على الرذاذ المتصاعد من سقوط مياه التلال المتدفقة من ذرا منحدرة في مجراه نحو البحر ذلك المنظر الخلاب الذي يأخذ بالألباب ويرتد عنه الإبصار كليلة حسيرة تتعلق العناد لخيال الرائي لأنه سبح في عالم يزخر ويموج في جمال لا حدود له :

لنسا قاله الشاعر في وصف رأس الهلال هذه الأبيات :

(١) حبك الله يا رأس الهلال	يا جلاء عينا للجمال
مناغر للطبيعة قد تجلى	بأنور السور ذي الجلال
تحس بروعة وتخشع طير	إذا ذابت مرفك في الجبال
تخال رأت في الوادي ذراها	يتقمع السحاب على انحدال
ترن سمعت في الهضبات لحن	مصاريع الثنايا كالعلال
تعود بجانبي خضر الروابي	من شجر الهضاب والتلال

(١) الديوان الصورة الرابعة ص ٦٩-٧٠

الى قوله :

ويظهر بعد ذلك من علو ... جمال البحر من بين الجبال
فتبصر منه عن بعد خليجا ... هو الموصوف شكلا بالهلال
كأن الارض قد فتحت فما ... فراميها مسرورا بالوصال
هنالك عن يمينك في انحدار ... ترى الشلال منطلق العوالي
وأما منظر الشلال فاظفر ... إليه بعين عشاق الجمال
إذا وافيته والجو صاف ... وقد مع النهار الى الزوال
وحف من اليمين شعاع شمس ... وقد قرنته من جهة الشمال
رأيت السحر أجمع في مكان ... فريد في الوجود بلا مثال
فسبح للبديع هناك وابرك ... عساك شعور وجدك للخيال
تذكر في الجنان الحوض واشكر ... إلى صاف من العذب الزلال

الى ان يقول :

يعود بكوثرين قد استدارا ... وجدولا يجريان من الاعالي
وبينهما كمرين اشم ... تساوى في ارتفاع واعتدال
بدا للعين كالموشح سلسا ... يشع السرور او الدلال
يحام الطير سربا بعد سرب ... يعلق سابح ريشا كالي
وصاح (الزوز) مطربا ازورا ... يجوبه تدين من كل جال
فعفى الطرف مستمد العين ... ترعه الخيمة لليالي

ومن وصف قوس قزح قوله :

وابدع ما تشاهده من جمال ... وداد لسنا يلمع في انهمال
إذا انعكس الشعاع عليه ابدى ... من الالوان اشعع للآلي

ترى لون البنفسج في اصفرار	يخالط أزرقا في برتقالي
وزهر الأخضر الزرعي يزهو	بجانب حمرة ذات اشتعال
يشف العقل في درسه ويسري	بين الابصار بالأثر الكمال

والجبانة امرئ الشاعر عبار خاص تبلا نفسه بشحنات شعورية زاخرة بمشاعر متباينة الاحاسيس منها احساس بجمال الشمس الغاربة مؤذنة باندحار سلطان الظلام كقائد منهزم ينسحب في هدوء تاركا آثار الجراح على أرض معركة يوم حافل بالصراع تمت في حيرة بشفق واحساس برقة الجو وصفاء السماء المتكاثر لزرقة البحر الوديع حيث تتوالى أمواجه في معانقتها لرمال الشاطئ وصور قبلات الحب على شفاه الرمال الحالمة في غير انقطاع وشعاع لألاء لحب نظيف بالغ سناؤه الأصيل الصبغة التي تذكي فيه شعوره المتواصل بمعاني الشواطئ الذهبية الناعسة والشاعر فضلا عن التدبيج الذي يشيعه في وصفه الرائق لجمالية ممثلا فيما يتخذه لهذه الألوان من عناصر الطبيعة ممثلة في زرقة البحر والسماء الصافية أو حمرة الشمس القانية في الغروب ولون الرمال الارجوانية الذهبية التي تحتضن عناصر الطيف الناتج عن الاشعة المرسلة من ذكاء الغاربة وراء السحاب المتلبي من عليائه لمعانق الارض فتتدرج الالوان وتتداخل حمرة في صفرة زرقة يتقدمها بياض السحب الذائبة والتي ترتد من شعاع باقتها مجموعة ألوان الطيف من حوله .

لا تكتفي الشاعر بهذا التدبيج بل يخلع على الطبيعة من انفعالاته الانسانية ما يبعث الحياة في أعطافها فاذا الموج يوشي اثم ثغور الرمال دون إرواء لغامة الحب الناعسة التي أذكتها الناعسات فيه وإذا لون ذكاء الغاربة يشبه حمرة الجلنار كما تشبه حمرار خجل البكر الخفرة الذي يضرج خدها الناعم المترف الجميل .

ويمزج الشاعر بين جمال الطبيعة وجمال المرأة الذي يزينه ويزيده روعة وتأثيرا في النفوس وتبدو قدرة الشاعر على بعث الحركة في الوصف عندما يصور تدافع الامواج لهذا الجمال البشري التي تمتطي أمواج البحر العاتية وتلعب خياله وقد تبدو له جسد العبد من فرق الامواج ممثلا في الخصور والنهود والنحور لمقارنة بين صورة الطبيعة الكونية والبشرية وبين صورة الجنة التي وعد الله عباده المتقين وما فيها من حور وولدان وأنهار جارية .

ولكن نفس الشاعر التي لا تستقر على حال لا يرى هذا الجمال الاخاذ إلا زائلا فهو أشبه بشجرة وارفة في طريق الحياة الشاقة المضنية والانسان هو الطائر الذي ضل دربه ، وهو ليظل في تعريق في نهب الليل وظلمته الحالكة وما الانسان إلا مجهد نفسه وسيتقضي عمره دون تحقيق مبتغاه .

أوليس كل هذا الجمال الآسر يوشك أن يبتلعه ظلام الليل فلا يبدو منه إلا مقدار ما تبدو النجوم البعيدة لمعا وسط نهب الليل واستار ظلمته وإذا بالشاعر يفيق من ذهوله على حقيقة مرة وهي أن العيش مهما اشتد بالانسان العسر ويراخي أجله ليس إلا حلما طويلا وأن العاقل الأريب يجب ألا يخدع بالأماني الباطلة .

ولعل للشاعر عذره في نظرته غير المتفائلة بهذا الجمال الآخاذ الذي نحن بصدده فقد قيل هذا الوصف في سنة ١٩٥٠م وما يزال الوطن يئن تحت وطأة المستعمر الغاشم لم ينحسر حتى تغير نظرة أبنائه للمستقبل ولو أن القصيدة أو المرحلة بصورة أدق قيلت بعد نيل الاستقلال ربما كانت على نمط آخر من التفاؤل الذي يحب الحياة للاحياء ويتدعم بها عيشا ومن أجل السعادة جدا وتفاؤلا ، فما قاله الشاعر :

قف بجيانة إيمان الأصيل والطير الشمس قبيل المغرب

وانظر البحر له لون السماء حين رق الجو صفوا راق ماء
بشواطي الموج فيه كلما صفقت جانبه ريح عليل

راح يحكي راقصا من طرب

وعلى الساحل رنت تحنان وقمها بسمات النسمات
وترى الموج يوالي اللثمات دائم التقبيل لم يشف الغليل

من ثغور بسمت عن ذهب

بهاء الشمس حين الشفق عكس ألوان جمال الأفق
احمر في أصفر في ازرق حسن في صفحة الجو المقبل

خلف وشي من بساتين الهيف

ولقرص الشمس مالت تتوارى جذوة تشعل فوق الماء نارا
تركت نورا يحاكي الجلنارا أو حياء البكر في خد الخجيل

أهبته قبلة في لعب

رائع من مذاق يسبي العلوم رائع ينفي عن القلب الهموم
لو رأيت الغيد في البحر تعوم لرأت عريانك من كل جميل

سابحا في السرب أو في الربرب

يستخف الحلم منهن سفور لحصور ونهود ونحور
ها هنا الجنة ولدان وحور حسن في الكوثر أو في السلسبيل

ملابات لونه كالحب

الى أن قال :

هذه الدنيا فيومٌ وابتسام ... يا لحمال صبر أو مساء دوام

نفسي أعذارنا دون الملوام ... وإذا اللوم لورد مستحيل

من سراب لأمس في مهجته

هذا وصف لشاعرنا الغزال تحت اشعة القدر القضية الحالة في سكون الليل الشامل عدل عن الوصف الحسي للغزال كما اعتاد الشعراء إذ يصفون حور عينيه ورشاقة قده وملاءة جيده الى وصف أحاسيسه وزهافة سمعه ورشاقة حذره من الغوالي والعوادي أن تعوه فتحكس هذه الاحاسيس لنفس فقه مفزعة على ما يأتيه الغزال من حركات عفوية لا ارادية استجابة لمعطيات حواسه فسمع جيده الطويل المرتفع هنا وهناك مستطلعا حقيقة ما يتراءى لعينيه أو استجابة لسمعه كما ينشط في حركته لا يستقر في مكان محذرا ونشاطا ويتعطف في مشيه لا يستقيم على قصد لأنه يحس بخطر مرتقب به دون أن يعتقد مكمن ذلك الخطر حتى إذا مال النمر في السنن ليؤدن بالاختفاء وراء الشوهق نظر اليه الغزال في ارتياب وذعر ويتساءل الشاعر عن ذلك الذعر الذي لا مبرر له في رأيه يا لفي طلعة ابسر ما يريب أنه هو شعور الغزال بقرب اختفاء جمال مؤنس هو مصدر القلق وعلى كل فلا بد للمخلوقات من التسليم لمصائرها ومن الذهول عن الشعر المجهول لتسعد بالحاضر وتسعد بشعوره وتزود بطاقات تمكنها من متابعة رحلة الصباد على متاعبها وآلامها ولهذا لم يثبت ذلك الرائع المفزع أن سادته السكينة وأفرغ روعه فبدا رائعا يتدفق وجهه النضر جمالا ونورا وناضرة تتمير بشيء من الجنون وإن كان جنونا بهيا لا يعبر عما يحس بلغة أو انسانة ؛ يقول أحمد رفيق :

(1) يرتع في الليل راقه السحر ... فبات يرعاه فوقه القمر

يؤنسه ضوءه فيفزعه ... من فمه في مسيره الحذر

يتلع بالجيد ها هنا وهنا ... يبارز في خفة ويافر

حتى إذا البدر مال قابله ... ينظر في ريبة فيذعر

كأنه أنه أسف الس ... أن كان خلف الجبال يستتر

تهلل الحسن في ملامحه ... ورف بالحسب وجهه النضر

كأنه وهو ضجر بسم ... يكاد منه السرور ينفجر

وليس غريبا على شاعر مولع بحب الجمال بنمعه حيث يوجد أن يعشق الورود والرياحين وفيها من معاني الجمال ما لا حصر له فيها الحبيب وطيب نشره وذكره عرفه وفيها سرة النعيم وسفر الجمال وحمرة الخجل وسورة الانتقام وجمال الخلق الدال على جمال الخلق وتحيات التحيين مما لا ريب فيه أن الورد هو أمير الزهور الذي فيه من سطوة الجبروت حدة الشوك ومن رقة الحنين نضرة الأوراق وأن للزنابق مكانتها في عالم الزهر والفتان ليس غريبا والأمر ما ذكرت أن يهيم شاعرنا بالورود والزنبق والبنفسج وغيرها من الزهور ويصفها ومنه في الحب والهيام والتكريم والعبودية والتبجيل والتقديس وأن يبدو في وصفه ما لمسناه لديه في الوصف عامة من حسية واضحة منطلقا مع روحه الغروب أقصى انطلاق في بحر الغزل حيث بنى القصيدة من مجزوء الرمل وإن كان يجدد في الأغلب تجديدا واسعا حيث يجعل الصدر من تفعيلتين والعجز من تفعيلة واحدة مع حرصه على الاحتفاظ بالموسيقى العذبة التي تزيد من رونق الشعر وروائه فيجعل الوصف على نظام المزدوج من الشعر ذي القافيتين الداخلية

(1) الديوان المقرة ٢/ ١٤٠.

في نهاية الصدر والقافية الملزومة في نهاية العجز الذي بناه على تفعيلة واحدة فكان متطور الرمل عنده عجزا ومصدرا بقافيتين متغايرتين يتجددان بتجدد أزواج الأشطر، مما منح الوصف خفة وحيوية ترتفعان به الى حد الغناء والترقيص . هذا الى هذا العنصر الزاخر من ألفاظ الحب والهيام والتكريم بدا في شعر الحبيب ما أحيلي والألفاظ العذبة الرشيقة مثل ثغور الورد ، الانفاس الزكية ، الطيب وذكرى الحبيب ، الرحيق ، العتيق عند تراقيها وحلي العروس هذا هو منشأ برعة الورد وروائه سعيد بسمائه للشمس المشرقة ذاهل عن واقعه بعض حين ثم لا يلبث أن يفيق من حالم أحلامه الوردية ليقرر الحقيقة المؤلمة وهي قصر أوقات السرور التي تنقضي عليه سعيد تلك اللحظات فيذكرها ذكر المحزون الشجي الموجوع فيما يحب .

يقول : [1] يا ثغور الورد هيا خبريني
أرسلي الانفاس زكيا وانعتيني
واملئي الكون بطيب يا ندية
وابعثي ذكرى حبيب في هدية
لنسيم الصبح بوحي بغرامي
تسعدي روحي فروحي في هيام
ما احيلي نفحات كالرحيق
واحيلي بسمات من عتيق
قد كساك الحلي عقدا لؤلؤيا
وحباك الفجر خدا ذهبيا

---

(1) الديوان الغزة ٢/٢٨-٢٩ .

الى أن يقول : ضحك الورد فجلى عن همومي

ومضى ما دام إلا بعض يوم

قلت ما اسرعه جاء وراحا

ليته زاد مساء وصباحا

هكذا عيش الدرات يسير

هكذا عمر الدرات قصير

أما وصفه للورد مرة أخرى ففيه الحب والتكريم والتبجيل إلا أن فيه حسية مفرطة صرح بالشهوة النارية وأكتواء الوجنة بالقبلة على عدم جرس كلمة أكتواء والتصريح بهيج العواطف الجنسية والشهوة العاتية والبطش الدموي الذي تتدفق له الدماء القانية وعلى العموم فقد افسدت عليه انغماسة جمال الوصف الذي كان فيه لا يعدو الوصف الظاهري للوردة الحمراء القانية فاعتسف التفكير والغوص جريا وراء تحقيق التشبيه ولم يسم الى جمال الوصف ورقة العواطف وعفوية الصور في الوصف السابق فهو يقول من مجزوء الرجز :

(١) ياوردة الصباح يا ندية

يا بهجة الارواح يا حية

يا خجلا في وجنة الحبيبة

يا شفة شهوتها نارية

يا وجنة بقبلة مكوية

يذهب بي عشقك يا شدية

---

(١) الديوان الفترة الرابعة والاخيرة ص ٢٠٦-٢٠٣ .

وجسك الناعس حبوبه

إلى نعناع حلوة خشبة

كأنها لعوانف الجنة

لو صورت أنوانها مرئية

فكان منها الشمرة المذية

وكان منها الغضة الوحشية

لون الحياء حمرة وردية

والغنط أقوى حمرة دمية

والسرور صفة جليه

أما وصفه لمزيج فقيه العنب والبيام والاحتلال وفيه يمتزج الواقع الخيال وروعة التشخيص بما يسبغ عليها من أخلاق الجواد الحسان الحور وفتاه العرش وصال الطلق والخلق وعيشه القد الرشيق وتصوير عواطف الشاعر نحوها فهو لا يستحيي في حبها بل ونسبها وعناتها والاشادة بذكرها الطيب وروائحها وعدم تخيبها مدمنه من شم وضم وعناق وإذا هو يشخص رشاقة قوامها وغنجها بأن تصرف تصرف الغزيدة الشوحدة التي تلتفت تحيته بابتسام وإشراقة محببا إذا تشير منتش بنفحها وجمال منظرها فيعود الى تشبيهها بشبيهات علوية يشبهها بالنور عند طلق الصباح الجميل بعد أن قارنها بزهر النجوم وكان قد أسبغ عليها من التشبيهات المذوبة بد يصف صناعة بيائها بالشعر والنور والعرض التي ان هو يقول من مجزوء الرجز:

(١) حبيبي منزلها في كل روض مونق
أحبها من كل رد حي حب واف مشفق
لأستحي في حبها مثل الفتى المتأنق
بيضاء كالطهر وكالنو ر وكالعرض النقي
طيبة الروح نقو ح بالعبير العبق
إذا أردت شمها أو شمها لا تتقي
ولا تسرد كفك لا مس رد متى
حسن جمال خلقها دليل حسن الخلق
ذات قوام أهيف مهفهف ممشق
قامت على ساق نجم ي بابتسام مشرق

الى أن يقول :

تفتر عن مثل نجو م في فضاء أزرق
أشبه بالخمر جي والعل (م) ولؤلؤ النطق
سبك الذي هت بها تلك زهور الزنبق

فاذ طرق الشاعر وصف بعض مظاهرات العصر وقليلا ما اثبت من ذلك فيما وصلنا من شعره في هذا اللون من ألوان الوصف بدت لنا سمة غالبة عليه وهي سمة الجنوح للخيال القريب والإطراف والحدة في الفكرة فهو لا يعتمد بالوصف المادي أو الفوتوغرافي الذي يبرز فيه العجز والهيئة واللون والزخرفة وانما يصف عن طريق الصور الأدبية البارعة مثل الأداة وأثرها في نفسه بل ربما توحي به إليه .

يصف صاحبه تراديو فيكتفي في خلق الجو البارع لاستقطاب احساس سامعه بعبارة موجزة تسلم الى المعنى مراده مثل قوله : صنعت

---

(١) الديوان الغزة ٤/٢٤٢-٢٤٤

بانقان عجيب فلا كان إذ توصف به الصناعة رائع وزائد عن الغرض في التعبير عن التقدير الذي أحسه الشاعر إزاء تلك الأداة التي يصف وإيراده لذلك الوصف بوصف آخر « عجيب » فقد أكد به ما يشعر به من عاطفة الاعجاب والتقدير والاطراء لها ودعوة متلقيه لأن يشاركه تقديره وإعجابه وهو يتم عنه بالنظر لتلك الساعة وأنه بالاصغاء لعذب الحانها التي تميد اليه تزيدها بوحه إذ يفكر في عبقرية مخترعها وما أسداه للبشرية من نفع وامتاع غير أنه لا يلبث وعلى غاية من الاسراع أن يحلق بأجنحة الخيال في أجواء الوصف هذا بها توحي اليه بمعنى قريب معنى فيض الهوى في العاشق المحروم بكل ما في الحرمان من معاني كإصابة سهام الحب المشار اليها بمقتل وتسديد السهام المشعرة من قرب ويتعجب من قدرة مخترعها على التنبه لشيء كان الشاعر يظن إدراكه قصرا على أصحاب الافئدة المرهفة من الشعراء والأدباء وليس ذلك السر الخفي سوى حرق الغرام في فؤاده التي تمنحه حرارة الكهرباء السارية في الساعة وعند الزفرات الحرى والحسرات التي لا تنقطع تدعو الحبيب الداجر لمعاودة الوصال : يا حبيبي ما الضير من ساعة مرددة الأوهان لعلي المقل فن الماء يقول الشاعر :

[1] الراديو ساعة	صنعت باتقان عجيب
مثلت صنعتها وقد	دلت على معنى غريب
فصليل الهوى في عاشق	من جذوة الحب الرهيب
فكأنها قلب المحب	ب أصابه لحظ الحبيب
لو أن سهما للغرام	رمى فأصمى من قريب

---

[1] الديوان الفجر الكاذب (٢) .

الى ان يقول :

يا ويحهم فطنوا لشيء	ليس إلا حبيب
ما صوروا إلا قوا	دي بان في حر اللهيب
فالخصر با سيدان وجـ	ـهي والنفس من نحيبي
يشكو جراح الحب في	قول الغضي يا حبيبي

اخوانيات احمد رفيق

ذكرت في اثناء البحث ان الشاعر دو ميل حلا في وطنيه وصداقاته ما صير الكثير من اشياعه واحبائه للاصدقاء والتعلق بذكريات عزيزة واوقات انس قضاها بصحبتهم ما اذكى في فؤاده الزفرات على مفارقتهم كقوله من قصيدة بعث بها للشيخ موسى بن احمد اليزعي من جبلان :

(١) بعد السلام وتقديم لتحيتي	اهديك يا سيدي موسى تحياتي
واشتكي حر اشواقي اليك فقد	اذكاد في خصري بعد الثمانان
فارتكم وفؤادي ما يفارقكم	تيقنوه باسباب وثيقات

وفيها يقول ذاكرا حبيبه الى اوقات سعادته بالمامه بأصدقائه من اسرة آل عامر بابركة ومسورا ما يكنه اليهم من ود وحب واحترام متوسل لذلك الصداقة المرعية من ضروب الغرض :

الى بني عامر أهل السماح هم	بن افتراح وبشرى في زيارتهم
إني لأمدح احبابي لعلهم	إذا مدحت امرأ من أجل حاجتي
أقضي سويعات انس في مرابعهم	معززا با لذهري من سويعات
معاهد بلاذي كنت آلفها	خلفت وانسي فيها باقي

---

(١) الديوان الشعرية الثالثة ق ١ ـ ٢

وإذا فقد استطاع الشاعر أن يخلد هذه العاطفة الأخوية الصادقة المشبوبة بأكثر من معنى رائع في قصائد حزينة من جيشان الى وجده فكان فيها نغمات صادقة تذكر بنغمي نفسه بروح الشاعر الفارس ابن فراس الحمداني في رومياته التي كانت فاتحة لهذا الموضوع الجديد في الشعر العربي حيث كانت فيها سورة محببة للنفوس تبعث منها روح رقيقة شفافة تقدر الوفاء على البعد وتؤثره أن يحول الاصدقاء مع الرياح للحنين ينمي ذلك فؤاد صاحبها فيكون ذوب نفسه شعرا عذبا عذبا ومشعلا هذا يرسم للاجيال معنى الوفاء يقول أحمد وفيق من قصيدته « حنين عرب لاوطانه » [1] :

يا من على البعد نهواه ويهوانا ... لقد ما شفنا شوق فاشفانا

ذكرى عهود الهوى باتت تصاورنا ... يا من يبلغ للاحباب شكوانا

إن يحكم الهوى سرا ولا عجب ... زيد ذكرا لمن يزداد نسيانا

ما أنصفتنا الليالي في نوى تركت ... جسما هنا وهناك القلب ريانا

قلب أضر به حب الوفاء فما ... أخلى بالجد في حب ولا خانا

واف على البعد لا تثنيه عاذره ... ولا استطاع على الايام سلوانا

ولهان يذكرني حبيب كلما سنحت ... كأنما نفحت في الجو ريحانا

الى أن يقول :

قد طوحتنا الليالي عن موطننا ... يا ويح كل غريب قد رمى هانا

لا عز إلا لنا في موطنا ... إن الغريب مهان أينما كانا

إن ما أعذر الله أن يدعى على شحط ... كذا برقة من سكان بيتانا

وعزيت بصنوف الهجر أنوانا ...

---

[1] الديوان الجزء الثالث ص ٢٧ ـ ٢٨ .

ومن مطلق المساواة للإفذاذ العظماء الذين خدموا أوطانهم فأخلصوا وأبدعوا للإنسانية أبادي بيضاء فقد رثى الشاعر صادقا في رثائه نخبة من خيرة مواطنيه في ليبيا ووطنه العربي الكبير : رثى الشيخ أحمد الشارف وابن بلده الشاعري والشيخ الإباضيين ورثى الزهاوي بل تعدى حدود الوطن إلى الإنسانية الرحبة التي لا تعترف بفواصل من جنس أو وطن فرثى ماركوني وجبرائيل دانونزيو وغيره يشيد بموقف كل انتصر الذي أصفه الحب وانتصر به منتصرا عن التاج والصولجان ضاربا المثل الأعلى في التضحية في سبيل هذه الرابطة الإنسانية المقدسة الداعية للمساواة بين الأفراد حكاما أم سوقة رجالا أم نساء .

إلا أن الأخريات ليست جوها كلها أو زفرات تذيب قلب الحديد نحسب بل إنها أوقات صفاء وأنس ومداعبة رسالة تنم عن روح مشرقة بحب الحياة في بشاشة واقتناص صفو الحياة والمساجاة في ضروبه شتى من الحس والقول وقد كان لروح رقيق المشرقة وأصوله الباذخة المتدفقة ولكتبه البارعة وسرعة بديهته وإقباله على الحياة أثر في أن يكون له الضرب الأوفى والمتدح الملحى من هذا اللون المشرق من الأخوانيات .

فهو يرسل لآل عامر قصيدة تنوب عنه مشورتهم أن يحضر زواج أحد أفراد الأسرة يرسلها من جبحان لعدم تمكنه من الحضور فيه الإبتهاج الذي عبر عنه الشاعر بالسرور وسرى عنه في مجرد وفيه الثناء على آل عامر بما عرفوا به من التقى والكرم والعلم والعز والصلاح ويشيد بوداهم الذي سما لدرجة الأهل والقرابة ويشكر لهم لفتتهم الكريمة في دعواه لحضور فرحهم ويعتذر بلباقة عندما يعبر عن متنهى سروره على البعد وأنه إن غلب جسمه لعدم تمكنه من اجتياز الأبعاد وعوائق المسافة فإن روحه بلا ريب حاضرة بينهم سعيدة بسعادتهم ويرجو لهم مخلصا أن يجتوا ثمار هذا الزواج رجالا شجعانا ذوي إباء وأمجاد تتلألأ بها جباههم

شرفا وكرامة من أبيات قصيدته تلك قوله :

(١) يا آل عامر دامت الافراح ... فرح وفوز بالمنى ونجاح

دام السرور لكم ودام لبيتكم ... محمد يردد ذكره الصداح

نجل دعائه التقي وحماده ... كرم وعلم واسع وصلاح

رفع ابن عامر سمكه وكتبه ... خلف نجيب للعلا طماح

يا آل عامر ليس لي في مدحكم ... فضل فأنتم أهلنا للمدح

أنتم أحبائي الذين صفا لكم ... قلبي فصار بذكركم يرتاح

إن لم يكن جسمي لديكم حاضرا ... فمعبها تتقارب الارواح

جاءت رسالتكم لدعوة صاحب ... لبى بأنه كرم لكم وسماح

الى أن يقول :

يا آل عامر بالبنين وبالرضا ... عقد تنوء الكف به الافراح

والمجد تالده بكل مفخر ... تسمو الفروع جبينه وضاح

كمحمد ومحمد وكأبيها ... بالمكرمات وتعظم الارواح

وقد كان الشاعر حديث الاقامة بسبب تأليبها على أصدقائه ، فصار يحتفي بالرسميات بينه وبينهم متخذا الفرصة إن سنحت لها هو عن بدرة الشهيرة بوزهه ولكن الشاعر مشغول عن تناوله والإساءة منه فرصة بمعدته فلا يفوت الشاعر هذه الفرصة ليصور حالته تصويرا يداعب فيه أصدقاءه مشيرا بأسبع الاجرام لبخلهم فيقول :

(٢) أليس عجيبا أن أمر بدرة ... وأمكث عنها لا أذوق بها سوا

---

(١) الديوان الشعر الحديث / ١٥٦ — ١٥٧ .
(٢) الشعر الواعد/٣٥

فلو كان معدوما لسلبت خاطري	بأن ليس في وسعي تتمم حوزا
ولكنني أبصرت في كل موضع	عرائسه مطلوقة شبه الجوزا
الا إنه كالنجم يصعد عاله	محال الا فوزا لمن ناله فوزا

ويبدو أن روح الدعابة قد انطبت الى ضرب من الملاحاة والدفاع عن آراء ورؤية في مضمار البراعة والتغلب على المنافس فاستحالت نضرب من المراح الخشن الذي لا تحمد عقباه لأنه على الأقل ينسي القلوب بعوائد من الصفاء التي لها المودة وانتهت الى ما يشبه الجفاء والخصومة الأدبية وحسب لنا حكم بحيه عامر عدل هو الشيخ أحمد العارف الذي عمل على إصلاح ذات البين بين الاخوة أبناء الوطن الواحد .

ومنبع هذه المدعبة الأدبية بين الشاعر وخصمه الحمادي يلمس بعض الحقائق منها :

أ ـ أن الشاعر أحمد رفيق رمد عبر عن عبقرية ذاتية جرثه موز درنة العب العبق ولا يحتم ما ذهب اليه أن يكون أهل درنة بخلاء بل هو يضمر لإرهاء حسه أن مرضه يحول بينه وبين ابرز فكان الموز في الذين بر أنه على الرغم وهو قريب المنال إذ شراء وإن إهداء .

ب ـ ان الشيخ محمد جاد الحسنة الحمادي قد تهجم على شاعر الوطن على قرب دودته من مهجره واتهمه بالبخل وعدم الكرم بأدل الكناية وكأنه يتهمه عديد كأنه لم يكن بالمدفع من أهل درنة فان لم يفعل فليفعل ما يريد من افتخار عدم ارشا واختار لذلك مثلا عاميا يدل على عجز الشاعر وتحقيره كأنه يقول له ما معناه اشرب البحر أو اصبح المرغ .

جـ ـ وليدا فقد تألم الشاعر احمد رفيق من دعابة الحمادي ورغد غير المتوقع لأنه على الأقل يعتبر نفسه والحمادي صديقين تجمعهما معرفة

الأدب ولأنه كان يرى أن للصداقة حقوقها التي يجب الا تهدر في سبيل حب زائف على صفحة جريدة يومية ولهذا فقد كان له إذن في استطاعته أن يحمل أهل درة (زوزا) اذا شاءوا ذلك ووكلوه في الشفاء عنهم وعليه فعندئذ أن يأخذ وكالة رسمية في أن يكون لسانهم المدافع عنهم وعندئذ سيدرك من يكتب القصة وراءه بمحاولة افساد المودة بينه وبين محبيه من أهل درة وانه بفعله كمثل من أراد تحصيل العين فأصابها وأنه لن تدخل فيما لا يعنيه تدخلا فاضحا بعيدا وبعد ذلك لسهم فارقه روح دعابته فهو ما زال يرى الصداقي كريما ويستبعد أن تكون تدخله بينه وبين أحبته بطلا بنفور الذي سيجيء منه الشاعر ينوي على حمل درة (زوزا)

ـ يلمس في هذه المرحلة روح الشاعر مرحه طروبا ورشيقة صافية الود موشاة بالفكاهة والطرفة الأدبية مكبرة للأصدقاء سعيدة بصداقتهم تجهر عن أن يوصف بلغة إلا لغة الفل والورد بعد أن ينزل الشاعر بلوز مضفيا عليه كل ضروب التجميل لونا صحيحا وصفاء الجسم هو الدلال بعينه وعطر رائحة يتعجب من عدم فكرة طيب نفسه الذكية بجرد منه محبوبة متعة عذبة الريق تفوح بالند ـ التي لم تقو على اغراء الطيب على أرواح أهل درة ولا أرغموا العاج والآلوة .

ويستغرب الشاعر مذاهب كيف يحرمون ما أحل الله بن عند الناكيه ، الا غانوا في مرعا بعالاة السهر لكاره .

ويعجب من أن يعلن أحد هذه الأحاة في ملاطفة امتدت حتى غدت (حضرة العرش) لا يراه شيء إلا الجلد الشر للحصام لارضاء قوات من مرضى شهوة شفاؤهم في افراء الشاعر لهم ووصفهم إياهم بقشيرة على منهج القريض ولهذا فقد أعلن من جوته انه قد أنهى هذه المجاملة لانه يرى المكاشفة والاعتراف كالملح إن أكثر منه او قل أفسد المودة فان عادوا على

يجيبهم إلا بقوله سلاما حتى لا تتردى الصلات إلى أسوأ مما صارت إليه فكان لسان حاله يقول : سلام لا يبتغي الجاهلين بحقوق الصداقة وتدارك لذة الأدب » .

هـ ـ كثرت في مقطوعات الشاعر وقصائده في هذا المعنى من معاني الشعر الاجتماعي الألفاظ الدارجة وبعض الجمل بمعرب كما كثرت فيها الأمثال الشعبية أيضا وهذا يدل على قوة في الأداء تعلق فيها النفس على سجيتها في صياغة ما يعن لها من المعاني والصور الأدبية كما أن فيها اقترابا من قاموس عامة الشعب لتسير بين الناس وتتداولها الأفواه إذ موضوعها قد يتحول إلى ضرب من السخرية أمثل قصب السبق و انتزاع إعجاب الجماهير .

يقول أحمد رفيق بعنوان : أشلهم » :

(١) وعسكر من كل فرسة قدمت لي
إذا أنت لم تقدم فشل أمامها (روزا)(٢)
إذا واقفوا عند القتال رأيتهم
أشابوك منهم حاسرا دونهم حوزا
مناصل ما عاشوا إذا قل رأيهم
على حملي (الاثقال) أو أكلي الموزا

---

(١) الديوان الفترة الرابعة ص ٢٧ .

(٢) الروزا : اسم يشتد فيه احمد الأمين على الأرض من خلف ويديه يلصقان على جنبيه ويحاول صحبه ان يرفعه (كناية عن مدح الخاطب) .

لحظ أولا لسعود عهدهم وكالة
ولتفز فيما بعد من يكسب(الكوزا) [1]

زدت بها كحلا لأعين عينها
وأخذت بي والمحبين لي (بوزا) [2]

دخولت بين الطرف واللحم إن تكن
لحسن بسور لن تنال به فوزا

ساغصه بالرغم منك لأنه
يقوى على ما قيل من يلعب الروزا

كما يقول أحمد رفيق أيضا : [3]

يا من حبال وصله الأغلى — أنت العزيز وأعلق البخال
أهواك يا حلو الشمائل والشيم — وسلا فيمنع وصفك العذال
يا لابسا من حسنه لولا إذا — جردت من قشر ذاك عذال
يا غصن بان مال أهلك بعضهم — حسن القوام كأنها أجبال
يا بيض الأنفاس لو حييت من — أرواحهم رفعوا لنا وتألوا
جعلوك ذاكية محرمة على — من ذاقها إثم وأل حلال
لو أنهم ذاقوا لأعلك قبلة — ما كان يعوزنا لذيذ مال
يا ليتهم كانوا زنيبا كارهي — في شرعهم لما حسوك وصالوا
شرطوا لوصلك زورة لم يعرفوا — معنى الكلام فأغربوا وأطالوا
أيخيبهم حسني تعالا إنني — زلة أخجل أن يقال تعال
إني أراهم مثل خفة وجهم — فوق القلوب كأنهم أثقال

---

(1) كوزا لفظ اطلالي بمعنى قبلة .
(2) بوزا : زمر كلمة دارجة كأنها مشتقة من بوز بمعنى جاسا وحزبز .
(3) الديوان الفترة الراهنة ، ٤٠ ـ ٤٢ .

وأجلهم عن أن يكونوا رؤوسة ... لو شاءها لأقلها ثقال

لو زرتهم ووضعتهم في كفة ... ورفعت في أخرى الفريض لمالوا

كانت ملابسة الحسين مذلة ... فسمت به الحسرى لها أذيال

صارت إكسير الزل لا يبغي به ... إلا الخصام وأن يثار جدال

في الناس مرضى نهمة وضعافهم ... في أن يقول الناس عنهم قالوا

هذا بلاغ لا تروموا بعده ... مني مجاراة فسيفال

إن كان مرحبا عليكم كاتبا لا ... إكثاره عدل ولا الإقلال

سائلوا إذ علتم سلاما إنني ... أخشى عليكم أن تدوم الحال

روح الشعر المرحة الطروب لا تفارق عندما تسخ نزعة للفكاهة والسخرية وإظهار عملات الريض وما يجب أن يراعي من أجله مذاهبه من أدبية وإنما عصبه وثبل الريض محبه وناله فهذا لا يشتكي لأحد استكانة فقد دعاه إلى مجلس سمر تتسامى فيه الأرواح وحيث الصداقة والشراب والفكاهة وأعابوا عنه من لذائذ الطعام ثم انفض مجلسهم وقد أنست العزاء أو ذكاء بغروب وجلس الشاعر بعد ذلك على قهوة وأراد أن يقتصاحبها ثمن شرابه ثم يجد النقود فاعتذر بما عنده فيه من روح الدعابة يذكر فتذكر أنه قد سرقها ولا أصابها وأنه ما تقتصر به في كل ما أتى من أمر حتى تبين له بالفعل أنه قد سرقت منه وفي تلك البراءة المشؤومة وأنه لا يهم أحدا من الرفاق فتكلم بعين محمد وخفاف وأخي بالوم على المقيف الذي أدخل في تقديم الطعم والشراب وتسر في حرسة نباب الجلساء وتقودهم وانهم عن منعه البواب الذي جرده مما اعتده على السحب من إضافة وأمانة ويستمر مداعبا الشيخ في مزاح وشراق دعبة عندما يغرمه جزاء إهماله بإعداد وليمة للأصدقاء أما هو فقد احتسب ما ضاع منه عند الله تعالى وينزل الشاعر ووجه المتعصبة بادية في شكراه :

(١) يا سيدي موسى إليك شكاتي ... مما دهى حبيبي من الاسحار

كنا مع الاسحاب في براكة ... مشمولة الاعشاب والاسوال

رحنا لكي نصيد الفوس ونلتهي ... فيها وللعب جائز الانصاب

وقد تنعما بكل لذيذة ... من مأكل وفواكه وشراب

ولكاهة ونوادر ولطائف ... ومباحث رائعت ذوي الالباب

حتى توارت بالحجاب وخلفت ... أستار ليل عالك الجلباب

الى أن يقول :

لما فرقنا جلست بفهوة ... كي يستريح الجسم من أتعاب

فنشت جيبي ما وجدت دراهمي ... فتشككت في نفسي وعدت حسابي

حفت فيما قد سرق وما بقي ... فعلمت أني ما فقدت سوالي

واستيقنت نفسي بأن دراهمي ... سرقت وفي براكة النسلاني

أقسمت ما وقفت ولا تبعتها ... ولقد حلفت وكنت بالكذاب

أنا لست متهماً سليمان ولا ... فتحي ولا موسى فهم أترابي

حاشا هموا من كل ظن سيء ... أهل العفاف سلالة الانجاب

لكنني والحق قلت بأمن ... ذاك السدد من وراء الباب

إن حل بالابواب يوماً آفة ... لا تشتبه إلا من البواب

هذا حديثي يا كليم بسطته ... والعلم حكمك فاشفني بجواب

واعلم بأني لا أريد لضائع ... عوضاً ولا أرضى بهتك حجاب

لكن يعوضها سليمان بما ... ترضاه لي من جملة الاسحاب

ويكون من أذكى نعام طيب ... ويحسن من يهم بشراب

هذا وإن هو لم يجب بمروءة ... عدته عن طفري وحدة غابي

---

(١) الديوان ج ١/١١ ـ ٢٢

أخبرد أن الليث عند غضابه ... يلقى لذيذة ليس بالهياب
لا يستحق المجد إلا الذي ... يدعوه فيما يدعه بالسلاب
أنا في حماه وقد سلبت دراعتي ... فهو الكفيل بها مع الهضاب

ويختم الشاعر قصيدته بتحية الحكم في هذه القضية التي أجاد سرد قصتها وأبدع في تقديم البراهين الدامغة على صدق دعواه فيها وكان فيها صدق عاطفة الصداقة وشفافية روح الشاعر وجزالة ألفاظه وحسن استخدامه لقاعدة تداعي الأفكار إذ استهل اسم الحكم فنعته بلقب كليم الله موسى عليه السلام وهو نبي ويهدأ يورط موسى نبيئا فصاري جهده ليلزم الصلاتي برئاسة تسعد الأصحاب كما استهل اسم الصلاتي ليضحك منه ويطرق في نعته فصدقه بوصف « السلاب بمعنى المغتصب » .

والقصيدة مثل تطور الشعر في المغرب فهي تمتاز بالعضوية القائمة على وحدة الموضوع إذ هي في غرض واحد هو شكوى الشاعر من عبث الأصدقاء الذين داعبوا شاعرهم بدعابة خشنة فسلبوه عوده رغما الكلفة ورمعاة في الاضحاك وتورطا له في طريق عودته بعيث يعرج في أهون حاجات يومه كدفع ثمن فنجان قهوة كما امتازت القصيدة بنبات عاطفتها الشاخذة الباكية التي ظهرت عليها منذ المطلع حتى ختامها .

ومع هذا فقد احتوت القصيدة على بعض ما يرفضها واقعية وعصرية من بعض ألفاظ يومية دارجة وتعبيرات شعبية مثل قوله « مشؤومة الاعتاب والأبواب » من قولهم الحظوظ في « أعتاب وكعتاب وتواصي » ، « ما فتئت صوابي » ما فقدت عقلي أو بالخارج من الألفاظ « ماتخرخشش » وقوله الأعتاب بدلا من النعباء وقوله عرضي على الله الكريم وهو سع سلامته أمورا إلا أنه لفظ تداوله الألسنة فضلا شعبيا جاء به للاتساع وستدرة ليسان عن الشفاء . أورده مباشرة بعد تعبيره الرصين المؤدي المعنى وهو « اختسبت معتابي » .

خاتمة البحث

وبعد ختام البحث عن الشاعر أحمد رفيق بعد أن اطلعت على ديوان شعره المطبوع في ثلاثة أجزاء كما وقفت على بعض آراء إخوانه المعاصرين له مثل الأخ عبد ربه المدني الذي قدم شاعر دراسة نقدية منصفة وهي كتابة عن رفيق في الجزء الثاني ربما أن عشت مع شعره فتبين ليست غريبة أوجز رأيي فيه فيما يلي :

١ ـ كان رحمه الله شاعر الوطنية الصداح الجريء الصادق فقد عاصر فترة طالما من تاريخ الوطن في العصر الحديث التي فيه الوطن للاستعمار الإيطالي الغاشم فصارعه شعرا بالكلمة الحرة المناضلة عن جناب الوطن في سبيل أن يبقى مرفوع الرأس حتى تساعد الجهاد وتحقق منى الاستقلال فجاءت الشاعر وعبر عن أفراده وإخوانه الأحرار على رمز الوطن الأثير من جوه وكان الشعر يعود بوطني كلما سمحت الظروف بالعودة إلى مثل أعلى أرض الوطن مشرف الشمال والجنوب وهو لم يدع مظهرا من مظاهر النضال الوطني الذي يذكي نجوة المناضل بالسلاح إلا كان له فيه النصيب الأوفر فتحدث عن جرائم الاستعمار وقتل جرده الأبرياء من شيوخ ونساء وأطفال وعدم توريع حكامه من التخلص من أبناء الأشقاء فيه وعشرا كما أصيل عند الصغير وقد ندد بالعملاء من الوطنيين الذين خدموا بأفرادات المستعمر وساروا في ركابه لمطامع مادية كتشيده بالقوني الجاني مع المستعمر وكشيده بحسينة بريد وكان من مظاهر وطنيته حبه للوطن والاستماتة فيه وتصويره بطولته الفذة وشقائه في سطوح الغربة كما نعتا بالوطنية وحسن تربية الفتاة والعناية بتحسين وضع المعلم كما دعا إلى توثيق

رابطة الوطن باشقائه من الدول العربية وقد قام بهذه الرسالة الوطنية السامية خير قيام في قوة واستفاضة وصدق عاطفة وإبداع خيال خلاق كما سبق أن صورت هذا الغرض من أغراض شعره .

٢ ـ كان للغزل حظ وافر من فيضه ولا غرابة في ذلك فالشاعر من عشاق الجمال بكل ما في هذه الكلمة وعلى عموم مدلولها فقد أحب المرأة جسدا وروحا وربما كانت له تجربة خاصة عرفته فروف الوجد القاسية من جفاء الحبيبة فقد كان يصبو بحب صادق عميق وكانت الذكريات ما تزال تعاوده وقد شرح النفس الإنسانية تصويرا يدل على صدق معاناة وقد ذكر محبوبته بكل شيء جميل شاهده بل إنه قد أعلن عن ذلك جراءته بمحض صادقة عارية وضعته أمام محبوبته وجها لوجه بعد انقطاع أمل في اللقاء فقد زهاء تسعة أعوام وصور ذلك اللقاء وحشية الحبيبة وتفاهم التعذيب في نفس كما يصور عدم انصياعه وأنها قد كانت أقوى جلدا وأعظم تماسكا وإباء به يكرهها وتضعف نفسه الضعف والهوان ويسدل على حبها ستارا احتراما بمقاليد وهو كثير في شعراء عربية المجيدين فقد مزج الحب بالشراب ذره وبالطبيعة بارة أخرى فأتى تعبيراته فريدة بعاطفة الحب المشرقة الصادقة كما حببت أوصاف الطبيعة لديه بعوفه الشخص التي تسكب الحياة متدفقة في أعطاف الطبيعة وتصبغها عاطفة زاخرة بشتى العواطف من غيرة ووجد وسرور كما أن الشعر عد أعلى من سلطان الحب وقهره ذلك الذي يسر ملكا متلاعا لا يغرب عن أرجاء مملكته الشمس يتضاع عن قناعة وسرور لأمره متخليا عن العناد والصولجان آخذا بيد الحبيب معرضا عن كل ما سواه .

٣ ـ الوطن الحبيب الذي الشاعر مترعي لأطراف أسبغ الله عليه من آلاء الجمال ما تعجز عن تصويرها ريشة أبدع فنانين فيه الجبال الشاهقة التي تتلمح الشعب تزينها الأشجار الباسقة وتتدرج بينه الأودية المتعرجة

والشلالات دائمة بيناعها الكوثرية تردها زرافات الطيور حيث تشدو الغنية الحالمة أطيب الألحان أمثال شلال حرية ورأس الهلال بسوسة وبيانة بينغازي حيث قهوة الشط وحمام عيانة وغيضة الحمائر بباس الصيف حيث يبدو الجمال غير محتشم وحيث تلتهم الأمواج رمال الشاطئ الناعمة وترتد على عجل كأن الشخص المرهب ثم هناك الأفق حيث تسبح الغنية من زرقة الأمواج وحمرة الشمس الغاربة صفحة قدسية رائعة .

وقد امتاز الوصف عند رفيق بنوع من الصوفية العالية والتقديس عند وصفه مناظر الطبيعة الكبرى من جبال وشمس ونجوم وبحر وشلالات وبضرب من الحسية المشرقة فيما عدا ذلك وهو في أوصافه يكثر من التدبيج وجمال التلوين والتشخيص وإسباغ الحياة على الجماد مع عناية بالحركة والتغريم لموسيقى رنينه دقائق الكلمات وأصواتها ليعطي وصفه حقا من الواقعية ولا يغفل أن يكون لظله في الوصف على بحر الرجز الذي يمنح الوصف حركة وحيوية .

٤ — ولقد لاحظت أن تراثي الشاعر وإن كانت قليلة نسبيا لشعره الذي استغرق ثلاثة أجزاء من الديوان قد اتسمت بصدق العاطفة وابتكار في أكثر من معنى وأنه قد خط بمفهوم الرثاء خطوة للأمام فلم يقصره على من تربطه بهم صلات قوية من الأقارب والأصدقاء ولم يقصد به تورية مآثر أو أجر وإنما تعدى به أبناء الوطن العربي فرثى بعض عباقرة الفن أو العلم ولقد كان رثاؤه لجبرائيل دانونزيو شاعر إيطاليا ضربا من التأمل الفلسفي والنقد الأدبي الذي وجهه لشعراء الأدب العربي في العصر الحديث الذين ما زالوا يعبدون شوقي والزهاوي يتسارعون على الزعامة الأدبية دون أن يقدموا لأوطانهم ما يستحقون عليه الألقاب الأدبية التي تمنحها الأوطان لرجالات الأدب المجيدين الذين يخدمون أوطانهم والإنسانية في إخلاص وصدق .

أما مرثيته لزكسوني فقد كانت أقرب إلى الاعجاب به والوصف للاختراع ذاته فليس هناك عاطفة اللوعة والتفجع التي بثت في ثنائه للشيخ الأبامبيي ولقد عزوت هذا الاقلال وركود العاطفة الى نفس رهيق الطروب انتفاضة انبهار على الحياة التي تنصرف عن أسباب تهييج الأحزان ما وجدت لذلك سبيلا كأنها قد كلفت بحمل آلام الوطن التي تنوء لها أعتى الأشداء من الرجال .

٥ ـ أما ما يسمى بالأخوانيات وهو غرض قديم تطور الى حد بعيد في عهد التدهور وفي البيئة الحضارية على وجه الخصوص فقد كان الشاعر مكثرا فيه كما ذكرت وهو فيه مشرق العاطفة بهيج النفس مقتنص الفرصة السانحة لقول الشعر ولكنه كان يتألم إذا لم يدرك مساجلوه مسعى مغزاه أو أرادوا الاسفاف أو اصطياد الشهرة على حساب الصداقة والأخلاق عندئذ يتحول الشاعر الى برکان بالعنم يصمي أعداءه بسهام الهجاء العنيف الذي لا يسعه صاحبه ولا ينال الأعراض بأذيه الفوز وإذ كان يستخدم الألفاظ الشعبية والأمثال الدارجة ليصور غايات ونهايات أتعاني بل يحسن استخدام التراث في صور بارعة طريفة كما يكثر من استعمال الألفاظ المعربة أيضا .

٦ ـ سار في معظم شعره على عمود الشعر العربي من حيث التزام الوزن الواحد والقافية الموحدة حتوصا في التعبير عن تجاربه الأصيلة كالحنين أو الهجاء للمستعمر أو الدعوة لمواصلة الجهاد وتوحيد الوطن أو الرثاء .

٧ ـ ومع ذلك فقد كان حظه من التجديد موفورا في المضمون والاطار على حد سواء فقد نهض الشاعر بعبء مناضلة المستعمر بشعره وعلى بتحرير وطنه وحدته وكشف عملاء الأعداء الذين يرغبون في تقطيع أوصاله وحث على النهوض به فكان بهذا الشعر السياسي مجددا في

المعروف كما انه اكثر من غيره لتحرير الشعر من قيد القافية بين وابيحر وايضا نظم على نظام المزدوج المتعدد القافية والموشح مع التحرر في عدد الاشطار حتى في المزدوج الواحد كما تصرف باكثر من مشطورات البحور مع التنويع في الايقاع والنغم الموسيقي عندما يبغي الشاعر على تغييره بمراعاة معايير ثقافية المتعلقة المتلقي الذي اعتمده عجزا مرفلا للمشطور البحر الذي اتخذه بيتا للقصيدة .

٨ ــ أما لغة الشاعر فعلى حظ كبير من الرصانة والقوة وهو محيط إحاطة جيدة بالتراث فكان لهذا أثره القوي في صوره الأدبية كما أنه يكثر أحيانا من تضمين قصائده أبياتا من التراث يقتضيها مقام الغرض الشعري الذي يتناوله .

٩ ــ تأثر الشاعر بأبي الطيب المتنبي والشريف الرضي وأبي فراس في تحرجم وحنين أبي فراس في رومياته كما أعجب بشوقي والزهاوي من شعراء العصر الحديث .

ــ وقد اكتست قصائد كثيرة له بالوحدة العضوية في العرض والعاطفة التي تسودها وهذا اتجاه حديث في الشعر كان في دور الازدهار أثناء حياة الشاعر وهو وان كان من تأثير الغرب والشعراء المهجريين المتأثرين به فهم يكن بعيدا عن الشاعر لما له في انتاج تحول الشعر في عصره كشوقي والزهاوي وحافظ وايليا أبي ماضي وجبران فضلا عن اتصاله بالمترجم من الأدب الغربي .

وايضا كله فقد كان الشاعر احمد رامي الموصلي شاعر الوطن في فترة عصيبة من تاريخه الذي عاده الشعر مواكبا حرا أبيا يناوئ أعداءه ويشد أزرهم حاملا رسالته على واجبه فاستحق ما لقب به « شاعر الوطن » كما كان رسولا حر الفكر مقدما دعاته الى تحرير العقول والارادة بل وتحرير

إراة وانطلاقها من أسر التقاليد تسهم في بناء نهضة الوطن فكان تصويرها في وقت كان لتقاليد سطوة قد تفوق سلطة الشريعة الرحبة التي سادت بين الرجل والمرأة وكرمتها ضروبا من التكريم فأباحت لها السفور الشرعي ومبارحة البيت لتشارك شقيقها الرجل العلم والجهاد والتجارة وضروبا أخرى من السعي الشريف .

كما بدا الشاعر من خلال البحث إنسانا فياضا بالحيوية مقبلا على الحياة يرتشف أعذب صفوها من إمتاع النظر بالجمال انطلق في الانسان والطبيعة بالاحتفال ومباهاة الاصدقاء ويصور بحس وعفوية وعاطفة مشرقة وبراعة تصوير ما يكون الشاعر له شاعر الوطن الأول بجماع شعراء الوطن المعاصرين ، الذين سلموا له بقصب السبق وإمارة البيان في ليبيا في زمنه وإنه في رأيي لجدير بذلك التكريم وحري له شاعرنا الوطني الانسان الفنان وافر التوفيق .

مصادر البحث :

(١) دراسة عن الشاعر للدكتور عبد القادر أحمد رمضان ، الليت طبع بمجلة الرابطة بكلية اللغة العربية بالبيضاء .

(٢) ديوان الشاعر المخضرم وهو ثلاثة أجزاء ط/١ مطبعة الرسالة ، المطبعة الأهلية ببنغازي .

(٣) رفيق في الميزان ، عبد ربه النمائي ط/١ منشورات مكتبة الأندلس .

(٤) المجلة العربية العدد الثاني ، السنة الخامسة .

تطور مورفولوجية مدينة مصراته

في عهد الثورة

(د . فوزي عبد المجيد الاسدي)

قسم الجغرافيا

تطور مورفولوجية مدينة مصراته
في عهد الثورة

(د . فوزي عبد المجيد الاسدي)

١ ـ الوضع :

تقع مدينة مصراته على بعد بضعة كيلو مترات من ساحل البحر الابيض المتوسط ، وعند النهاية الغربية لخليج سرت ، وعند تقاطع خط طول ١٥ درجة و١٦ دقيقة شرقا مع خط عرض ٣٢ درجة شمالا ، وهي تمتاز بموقعها ايضا عند تقاطع الطريق الساحلي الممتد بين بنغازي وطرابلس ، والآخر الممتد جنوبا بين مصراته ومنطقة غرات وهي تبعد حوالي ٢١٠ كيلو متر شرقي مدينة طرابلس وحوالي ٨٢٠ كيلومترا الى الغرب من بنغازي ، (شكل رقم ـ ١) .

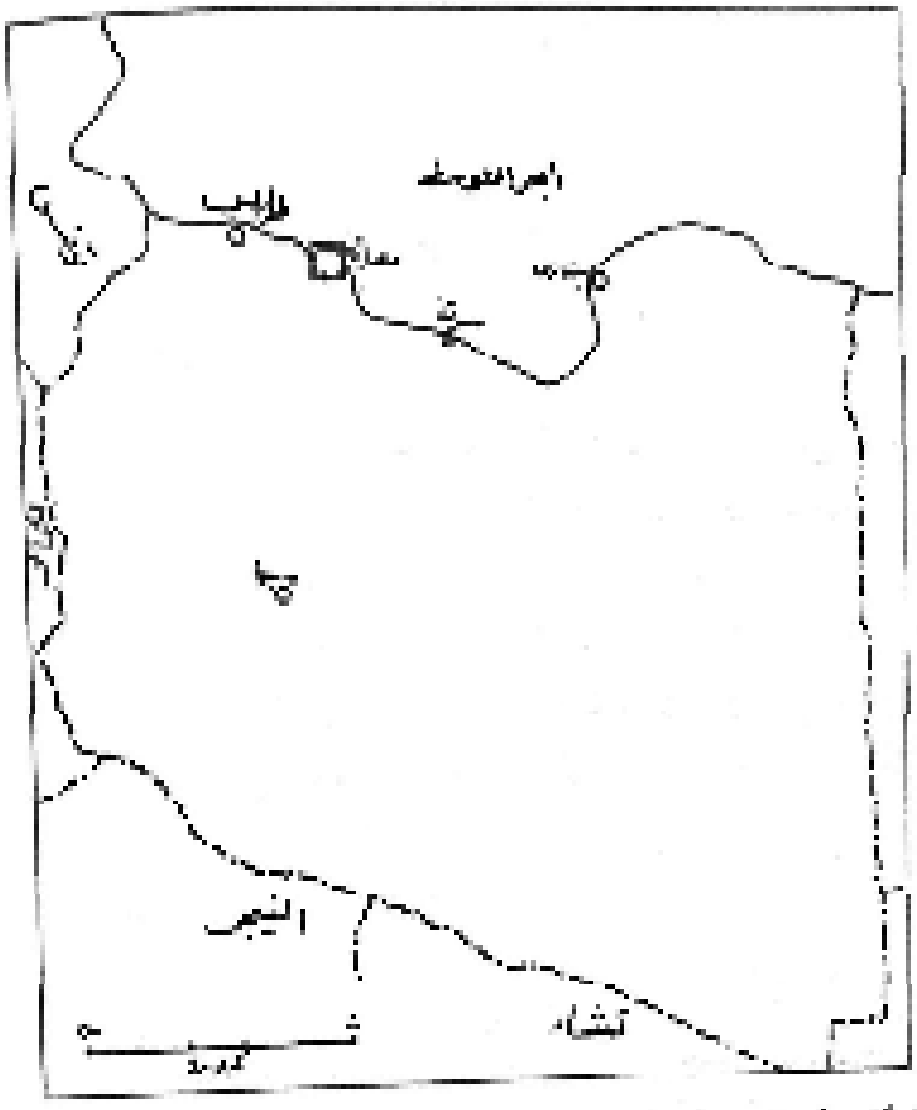
٢ ـ الموقع :

ان مدينة مصراته هي اكبر المدن البلدية مصراته (والتي كانت قبل عام ١٩٧٥ محافظة) ، وتمتد هذه البلدية جنوبا الى حدود بلدية المنيرة ، وشرقا الى حدود بلدية سرت ، وغربا الى حدود بلدية زليتن .

وتشمل هذه البلدية : مصراته المركز ، وقرى الزاوية ، الصيعب ، طبينه ، الدافنية ، بو قرين والدرجاء ، وبو نجيم ، وان خلفية هذه المدينة تمتاز بوجود منطقة زراعية ممتدة على طول حدودها الشمالية ـ حيث يبعد الاهالي التي تكثر بها الكثبان الرملية ـ والى الجنوب (٤ كيلومترات) ،

شكل رقم ٤

موقع مدينة مهزاكه



كما أن هذه الخلية تمتد جنوبا الى داخل الصحراء ، فهذا الموقع الفريد بين عنصرين متكاملين أكسب مدينة مصراته أهمية تجارية كبيرة ، فقد كان من نتيجة هذا الموقع أن استغل سكان هذه المدينة من تحقيق تبادل السلع بين هذين الاقليمين ، فمن جهة كان سكان مصراته يستلمون محاصيل البادية بما في ذلك منطقة فزان (وواسط افريقيا) عن طريق القوافل الصحراوية ، ومن جهة أخرى فان سكان مصراته كانوا يزودون هذه

المناطق الجنوبية بما تحتاجه من سلع (منتوجات زراعية ومصنوعات) محلية وأجنبية .

كما أن موقعها على الطريق الساحلي قد ساعدها في الحصول على منتوجات ومصنوعات هذه المنطقة الساحلية أو الأوربية ، وبأقل وتكلفة قليلة نسبيا . وذلك فان ظهير (خلفية) هذه المدينة يمتد الى كل من طرابلس وبنغازي وسبها (أو ساحل افريقيا الوسطى) . فقد خلق هذا الموقع من مصراته منطقة تجارية مهمة مما جعلها تحتل حاليا المرتبة الثالثة بين بلديات الجماهيرة من ناحية السكان (يقدر سكانها حاليا بما يوقف ١٤٠ الف نسمة) .

ونظرا لهذا الموقع الممتاز فقد اشتهرت المدينة بصناعاتها اليدوية الممتازة ، كصناعة السجاد والاكلمة والثياب الصوفية والمصنوعات الجلدية والحصر (من واحة تاورغاء) .

ويعتبر تجار مدينة مصراته من أنشط تجار الجماهيرية حتى أن البعض سمي بشارع الجمارك بين شرقي وغربي او شمالي وجنوبي البلاد بشكل مدهش ملفت الانتباه ـ وقد اصبحت سياراتهم الكبيرة (الشاحنات الحديثة) تجوب انحاء البلاد لنقل السلع بين مدن الجماهيرية ، كما أن اسواقها الشهيرة (والتي كانت تعقد ثلاثة أيام في الاسبوع) كانت وما زالت تؤم هذا الناس من أماكن بعيدة لشراء البضائع التي يجلبها تجار مصراته الى هذه الاسواق (بما في ذلك الخضر والفواكه والحبوب والصوف والبسط والسجاد والمصنوعات الأجنبية) ، حتى أن بعض الناس يزورون هذه الاسواق ثلاث مرات في الاسبوع وبعضهم يزورها مرتين ، وهناك اعداد قليلة يقصدونها أحيانا قادمين من أماكن بعيدة . (شكل رقم ـ ٢) .

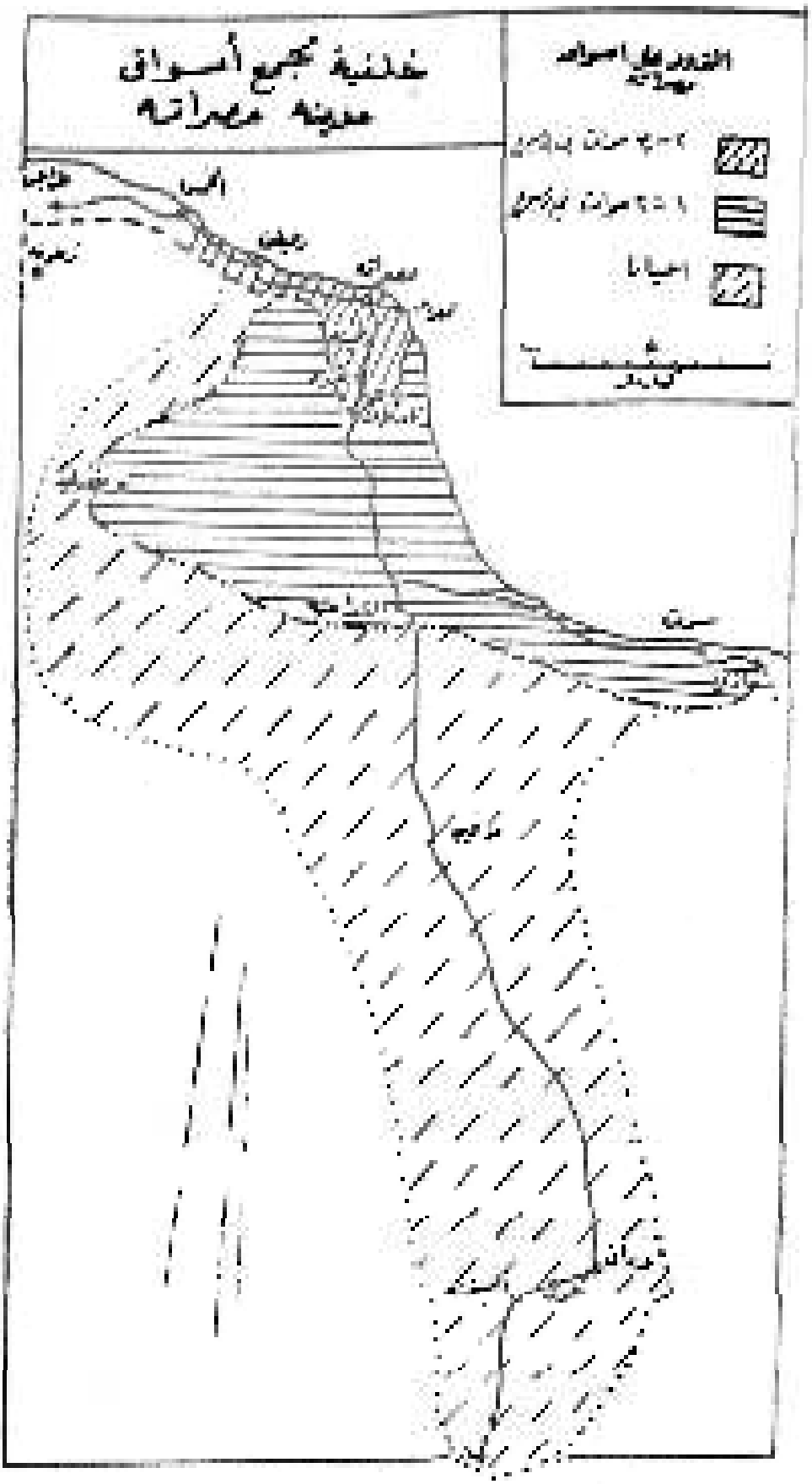
في أثناء دراستنا للحركة التجارية في مجمع أسواق مدينة مصراته (في يوم انعقاد ذلك السوق في شهر يناير ١٩٧٧ م) وجدنا أن جميع الشاحنات الكبيرة قد حملت الخضر والفواكه لسوق مصراته من مدينة طرابلس ـ إلا أن أرصدة تلك الشاحنات كانت في الغالب صادرة عن بلدية مصراته ـ ومعظم هذه الشاحنات كانت تأتي الى مصراته ثلاث مرات في الاسبوع ، بينما وجدنا أن سيارات النقل الصغيرة (٢/١ طن) كانت تجلب الخضراوات من المزارع المحيطة بمصراته ـ وأن حوالي ٣٠٪ من هذه السيارات كانت تأتي الى مصراته أكثر من ثلاث مرات في الاسبوع وحوالي ٥٠٪ كانت تأتي بين ٢ ـ ٣ مرات في الاسبوع ـ والبقية مرة في الاسبوع أو احيانا ـ حسب الموسم .

وقد وجدنا بين هذه السيارات المدينة سيارتان تتنقلان اسبوعيا بين منطقتي الجفرة ومصراته ، وسيارة واحدة فقط تحمل البصل (الاخضر الكثير) من منطقة سبها ـ كتجربة لأول مرة ، وأثر الارتفاع أسعار البصل آنذاك فقد كانت الرحلة مربحة لتلك التجارة ، فقد تمكنا من عد حوالي ٢٥ سيارة شحن صغيرة تحمل الخضر والفواكه الى المناطق المحيطة بمصراته من أسواق مصراته ـ وأغلبها (حوالي ٧٥٪ مما يجعل هذا السوق أكثر من مرتين في الاسبوع) .

٢ ـ التطور التاريخي :

ان أصل مدينة مصراته غامض ، فحوالي القرن الثالث عشر كانت هناك مدينة صغيرة جدا قائمة كسوق محلي وتتميز بنوع من التجارة الأفقية ، اذ أن أقدم مسجد فيها (العالي) يرجع الى أواخر القرن الرابع عشر حيث كان عدد السكان آنذاك حوالي ٤٠٠ ـ ٥٠٠ نسمة ، ولذلك لا يمكن اعادة تخطيط المدينة القديمة بدقة ـ فالمساكن والحوانيت كان لا بد وأن تقع على مسمع من صوت مؤذن المسجد ، وقد يكون من المحتمل

شكل رقم ـ ٣



... سوق السوق كان على أطراف المدينة ـ كما هو الحال في كثير من المدن المحيطة في منطقة طرابلس ، وقد نشأت المدينة حول المناطق المأهولة الثلاث قبائل هي الدرادة والكواي والمقاصبة ، وكانت الحدود الغربية للمدينة هي مواقع الأسواق ، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم (...) دلالة على الكثبان الرملية الحديثة التي تحيط بالمدينة من الناحية الشمالية) ، أما الاسم الحديث (مصراتة) فيعتقد أنه جاء من قبائل البربر التي استوطنت المدينة .

ومن المحتمل أن تكون المدينة القديمة قد حدد من اتساعها تجمع الكثبان الرملية وجود البرك (الحياة) والبحيرة ويشهد طبقة صخرية ممتدة على السطح ، ونظرا لارتفاعها النسبي لم تشجع حفر الآبار للحصول على المياه ، كما أن امتداد الطرق العالية من الشرق إلى الغرب جعل المدينة تفتح أبوابها لطريق القوافل القديمة والتي قد تعرفت جنوبا بطرق الحج ، وتوافق الكثبان الرملية التي تمتد إلى الداخل كثيرا غرب المدينة .

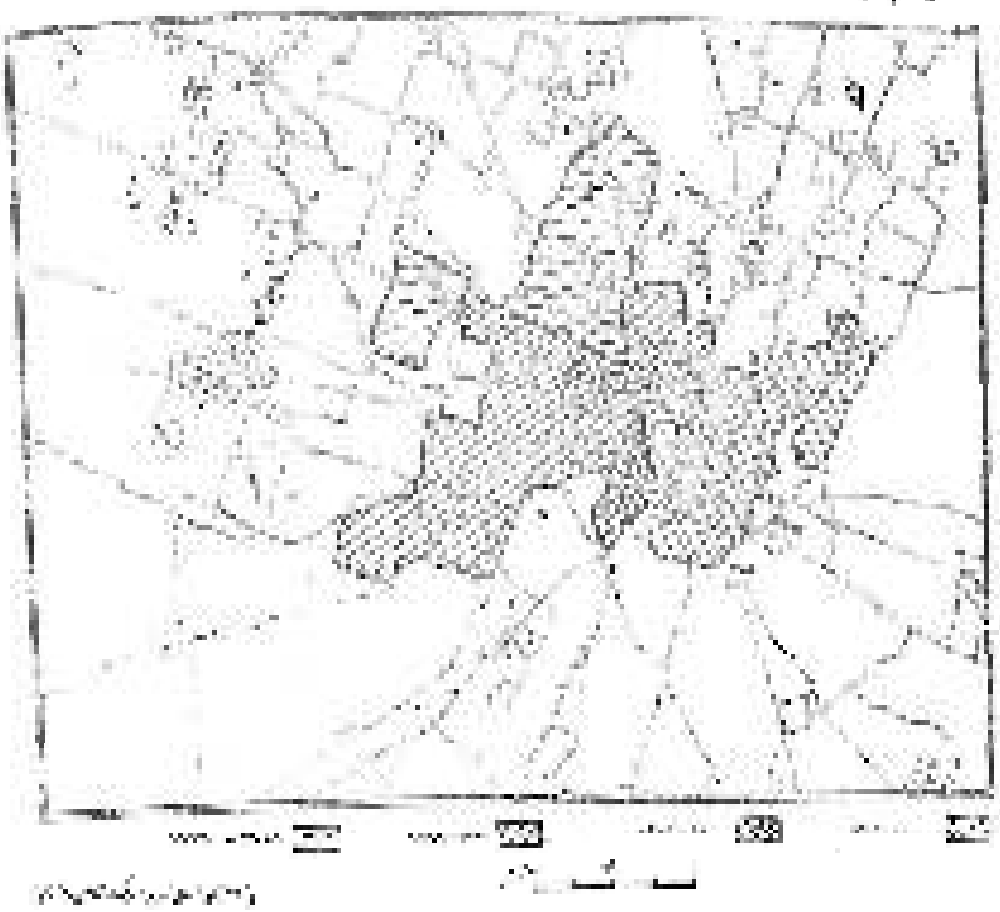
وقد ازدهرت المدينة خلال العصور الوسطى (عندما كانت مصراتة تدعى ماجاكس) وتأثرت مع البداوة بالصوف والزيت والملح وأصبح الميناء الذي تتجهها أوربا الوسطى ـ بينما كانت تستورد بدلا منها الأدوات الزجاجية والحرير وغير ذلك ، وكانت أقدم أحياء هذه المدينة قد انشئ في ... الميلاد بينما أقدم مسجد موجود فيها حوالي ١٢٠٠ م [1] ، وقد وسعت المدينة نحو الجنوب والجنوب الغربي خلال السيطرة العثمانية على البلاد والتي بدأت حوالي عام ١٥١٠ ـ وكانت الأوضاع التجارية قد تحسنت نوعا ما في المنطقة نتيجة لعاملين : الأول إعادة التجارة بالعبيد في أواخر القرن الثامن عشر عن طريق مصراتة ـ والثاني هو ظهور مدينة كنتيجة استيراد وتصدير (عن طريق قصر الحمد) بعيدة عن أنظار السلطة العثمانية المتمركزة في طرابلس ، وقد يكون هذا التوسع في عدد سكان

المدينة خلال هذه الفترة عائدا لهذه الانشطة التجارية الواسعة الانتشار » (شكل رقم ـ ٣) .

ففي القرن التاسع عشر ظهرت عدة شوارع محفوفة بالحوانيت التجارية والحرفية (المهنية) حول ميدان القرمانية ـ فقد بني سوق مستوف للفواكه والخضر ، بينما البنادات المجاورة لميدان « نصر » قد بنيت في بداية السنة الأخيرة وقد احتوت عدة أسواق صغيرة مثل سوق الزيت وسوق العطارين . وفي نهاية القرن بنيت مجموعات (بلوكات) من المتاجر بجوار ما دعي فيما بعد « بالمدينة الإيطالية » . وهكذا ما إن انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت الانشطة التجارية قد تركزت حول ميدان القرمانية ، وكنتيجة لذلك بدأت الايجارات تحمل فصل الاستغلالات التجارية عن السكنية حيث تركزت الأولى عند أطراف المدينة . ويلاحظ وجود المنازل ذات الطراز التركي بين البنادات التجارية ، الا أن عددها قليل .

وقد وصف أحد الرحالة العرب ـ الفهو بالحشائشي ـ مدينة طرابلس في أواخر القرن التاسع عشر بما يلي [٢] :

« طرابلس بلد كبير بساتينه متفرق عن بعضه في الغالب ، كبساتين صفاقس وأرضها أجود من أرض صفاقس وأخصب وأكثر مياها . وفيها ثلاثة أسواق : سوق الاحد وهو السوق الكبير تأتي له العرب من جميع أنحاء طرابلس من كل جهة ، ينزلون على مسافة خمسة أيام أو أكثر ، فتجتمع به ألوف من العرب خصوصا في فصل الربيع كمرزوق ، ورفلة والسعادة ، وترهونه ، وعرب ابن وليد ، والجبل ، وأهل طرابلس نفسها ، وأهل بلد زليتن ، والخمس ، والساحل وغير ذلك . ويباع بهذه الأسواق جميع أنواع الحيوانات من الابل والخيل والحمير والضأن والبقر والغنم



الشاعر ، وترى آلافا من (محلات) الأصناف ، وتباع بها السمن العربي الصافي مديم النقر ، والعسل الصافي ، وزيت الجلو الطيب ، والدجاج والبيض ، ويخرج منه الوقت من ساحل الفرات ، وبه أنواع الطيور من الحمام والأوز ، ويجتمع هذا البلد بضاعة الروم ، وبقل السوق الذكور — أي سوق الأحد — سوق الخميس وسوق الثلاثاء ، إلا أن سوق الأحد يضم أكثر منهما ، وغالب تجار مصر ته من اليهود ، وهم الذين يتعاملون الزائفة [...] في كسبهم وارتزاقهم وديانتهم ، وبها كثير من اليهود الموصليين والجزائريين ولم يوجد بها من علماء الإفرنج الا نفر واحد ولم يوجد فيها أحد من الصابئين .

وفي عهد الاحتلال الإيطالي — الذي لم يكتب له النجاح في بادئ الأمر — إذ لم يكن له تأثير يذكر ما بين ١٩٢٢ — ١٩٣٩ جعلت عمرانه خاصة معالمه عمرانه ومركزا اجتماعيا واقتصاديا للمستوطنات الإيطالية الجديدة حول عمرانه — مثل الدافنة وطبية والقراريم ، ونتيجة لذلك فقد حصلت نهضة عمرانية واسعة خلال هذه الفترة حيث قامت المنطقة السكنية في هذه الفترة حول الكنيسة والمعسكر وهكذا فقد تحول مركز ثقل المدينة الى المنطقة الجنوبية كما وان المتاجر والاسواق قد تركزت في المركز الجغرافي لمنطقة المعمورة ، وكان هناك تطور قليل خلال الحرب والسنوات التالية للحرب تحت الحماية البريطانية ، وبدأت المدينة بالتوسع من جديد لحو الشمال الغربي بعد أن حصلت ليبيا على استقلالها عام ١٩٥١ م وبعد نهضة الاقتصاد الليبي الجديدة التي تلت اكتشاف البترول عام ١٩٥٨ م[٣١] .

وهكذا فقبل عام ١٩٦٦ كان معظم نمو المدينة باتجاه الغرب (بما في ذلك الشمال الغربي والجنوب الغربي) بينما كان انخفاض الاراضي في الجهة الشرقية يعرقل هذا النمو نظرا لعدم وجود تصريف جيد لمياه الامطار مما جعل تلك المنطقة معرضة دوما لتجمع المياه فيها بعد هطول الامطار ، كما وأن وجود الفيرد في الجهة الجنوبية حد من التوسع ، وتتجه عمرانه العمرانية اليوم الى السهل على امتداد الطريق المؤدي الى طرابلس والقادم من داخل الجنوب الغربي حيث تقسم مشاريع كبيرة للاسكان الشعبي ، هذا وقد حصلت تغيرات كثيرة مؤخرا على أثر شق الطريق الدائري الاول والطريق الثاني وجزء من الطريق الدائري الثالث ، فقد ازيلت كثير من المساكن القديمة التي وقعت ضمن هذه الطرق وبذلك تظهر امتداد جديدة أيضا معظم الاراضي القديمة ورسمت شوارع جديدة ضمن المنطقة العمرانية بعد أن شقت فيها المجاري الحديثة وأدخلت طرقا وسائل

المرافق العامة (الماء والكهرباء وأسلاك الهواتف) ـ كما أنشئ مجمع للأسواق (سوق الخضر والفواكه والحبوب والصوف والحصر) خارج المنطقة المركزية ، ومستشفى مركزي غرب المنطقة التجارية المركزية وقريبا من شريط مرتفعات شمالي الساحلية بالاضافة الى انشاء كثير من المراكز الشعبية في المنطقة الجنوبية الغربية والشمالية الغربية من المنشية الصرايرة (كما سنرى فيما بعد) .

هذا وان انشاء ميناء قصر أحمد (ومشروع اقامة مصنع للصلب والحديد في قصر أحمد) مما يجتذب الحركة الصناعية والعمرانية نحو شرق وسيكون لهذه المنطقة الشرقية (منطقة الزهرون وقصر أحمد) مستقبل كبير ، وتشاهد تطورات كبيرة بعد اتمام بناء قصر أحمد ومصنع الحديد والصلب .

وسنتناول فيما يلي تحليل تطور مورفولوجية المنطقة العمرانية لمدينة مصراته حسب دراستنا لها في الحقل مع طلبة قسم الجغرافيا وأساتذته وذلك في شهر يناير من عام ١٩٧٧ م ، (هذا وسنقتصر في بحثنا على الناحية الأدنية لهذا التطور تاركا النواحي الأخرى لزملائي الآخرين كل حسب اختصاصه أو اهتمامه أثناء تلك الدراسة الحقلية) .

٤ ـ تطور عدد سكان مصراته :

تعتبر مدينة مصراته ثالثة في الجماهيرية من حيث عدد السكان بعد طرابلس وبنغازي ، فقد بلغ عدد سكانها ٩٦٢ر١٣٣ نسمة في عام ١٩٧٥ ـ وقد كانوا في عام ١٩٧٣ حوالي ٩١٧ر١٢٥ نسمة ، وقد كانت نسبة نمو السكان سنويا في المدينة في عام ١٩٧٣ بينما انخفضت الى ٣٫٣ في المائة في عام ١٩٧٥ و٥١ .

ومن خلال دراستنا لحركة الهجرة بين الليبيين خلال ١٩٦٣ و ١٩٧٥ تبين ان القادمين الى مدينة مصراته في عام ١٩٧٣ بلغوا ٢٠٣٤ نسمة وان المغادرين من المدينة ١٦٧١ نسمة ، اما في عام ١٩٧٥ فقد بلغ عدد القادمين الى المدينة ٢٠٣٤ والمغادرين ٥٦٣ نسمة ، ومن هذه الارقام نلاحظ ان حركة الهجرة بين السكان الليبيين كانت اوسع في اوائل السبعينات منها في اواسط العقد (مثلا في الحركة السكانية كان ٧٩٣ نسمة سنة ١٩٧٣ بينما في سنة ١٩٧٥ كان ٢٠٣٤ نسمة) ، ومع أن المقاييس السكانية والتعبير عنها بالتزايد في المدينة في هذه السنوات الاخيرة من السبعينات ، الا أننا لا نستطيع تفسير هذه الظاهرة ـ وقد تكون عائدة لعودة عدد كبير من المهاجرين الليبيين للمدينة من خارج ليبيا في أوائل السبعينات وتوقف هجرة الاعداد الكبيرة في اواسط هذا العقد ـ أو ان يكون المهاجرون الى مصراته اتخذوا يثربون خارج حدود البلدية ويأتون للعمل في بلدية مصراته ثم يعودون الى مقر اقامتهم الاصلية وبذلك لا يحسبون كأبناء مصراته أثناء التعداد السكاني أو تقديرات الهجرة السكانية .

هذا وقد كان عدد سكان مصراته في عام ١٩٧٤ (عندما كانت تشمل بلديات الزاوية ، الحمودة ، تاورغاء ، وبني آدم) ٣٨٠ر٧٠ نسمة بينما بلغت نسبة زيادة السكان للمحافظة ككل خلال نفس الفترة ٣٫٢ في بلديات الداخلية وأبو قرين (٣٠٢ر١٠٤ نسمة ، أي ان الزيادة كانت خلال تلك الفترة تبلغ ٢٫٩٦١ نسمة وهو ما يعادل جزء في المائة بينما بلغت نسبة زيادة السكان للمحافظة ككل خلال نفس الفترة ٣٫٢ في المائة ـ وهذا الفرق بين النسبتين يعكس هجرة ـ الأهالي من أنحاء المحافظة الى المدينة الرئيسية ـ أو أن نسبة الهجرة الى بلدية مصراته دائما كانت أعلى من نسبة الهجرة الى المحافظة ككل .

٥ ـ انماط استغلال الارض لمدينة مصراته في عام ١٩٦٦ :

لم يكن لمدينة مصراته أية حدود مرسومة لتحديدها كمنطقة عمرانية في أوائل الستينات من هذا القرن . ولكن في عام ١٩٦٦ قامت شركة استشارية بدراسة ميدانية لمدينة تمكنت من خلالها تحديد حدود المنطقة العمرانية لمصراته وذلك برسم خط حول جميع المناطق ذات البناء الكثيف المسكن من تحليل وتحديد العلاقة بين الاستعمالات المختلفة التي كانت موجودة آنذاك لاراضي مدينة مصراته[٨] .

وقد وجد أن استعمال الارض في مصراته يتألف بشكل رئيسي من منطقة تجارية كبيرة نسبيا تقع في القسم الشمالي الشرقي من مركز المدينة تحيط بها البيوت العربية للسكان ذوي الدخل المنخفض ذات كثافة سكانية متوسطة (حوالي ١٠٠ ـ ٢٠٠ نسمة الهكتار الواحد) ، ووجود منطقة ادارية في المركز في الجهة الجنوبية من المنطقة التجارية ، كما يحدها من الشرق والغرب مناطق سكانية ذوي الدخل الاعلى من المنطقة المركزية ، وهناك أيضا مناطق تستعمل كمعسكرات للجيش ومركز للشرطة في الجنوب الشرقي ، (شكل رقم ـ ٤)

وقد أدى وجود هذه المعسكرات في الجنوب الشرقي من مركز المدينة الى إيقاف نمو المدينة بشكل متناسق حول هذا المركز ـ كما هو مألوف في كثير من المدن العربية ـ كما أن معظم الاراضي الواقعة في الجنوب الغربي والغرب من مركز المدينة مباشرة تملكها اما الحكومة المحلية او المركزية وهذا لم يسمح بتوسع السكاني والسكني حول المركز في هذه الاتجاه .



هذا ومن خلال مساحات استغلال الأرض في مصراته سنة ١٩٦٦ م نلاحظ وجود نسبة عالية من الأراضي الخالية أو الزراعية ـ إذ بلغت نسبتها حوالي ٣٤٫٥ ٪ من المساحة ، بينما وجدت نسبة منخفضة للاستعمالات التجارية والتي بلغت ٢٫٣ ٪ ، والاستعمالات السكنية أقل من مساحة هذه الأراضي الخالية الزراعية وأقل أيضا من معدل هذه النسبة لعدة مدن عراقية في ليبيا ، كما هو واضح من جدول رقم ١ .

جدول رقم ١ :

مقارنة توزيع استعمال الأراضي في منطقة
مصراته العمرانية ومناطق نموذجية عمرانية
في ليبيا (١٩٦٦ و ١٩٨٨) *

نوع الاستغلال للأرض (العمراني)	منطقة مصراته العمرانية (١٩٦٦)	معدل ٦ مناطق عمرانية نموذجية (١٩٦٦)	منطقة مصراته العمرانية المقترحة (١٩٨٨) **
	٪	٪	٪
المنطقة السكنية	٣٣٫٣	٢٠٫١	٣٤٫٥
المنطقة الصناعية	٨٫١	٤٫٢	٧٫٣
المنطقة التجارية	٢٫٣	٢٫٣	٥٫٨
الطرق العامة	١٣٫٤	١٠٫٢	١٦٫١
المناطق الخاصة	١٢٫٥	٦٫٠	٠٫٠
طـــرق	٩٫٨	٩٫٣	١٨٫٨
أراضي خالية زراعية	٢١٫٦	٢١٫٥	١٫٠

* المصدر : تقرير « ماك جي » ـ ص ١١٤ .

** معدل كثافة المنطقة لتوزيع الأراضي في ٦ مناطق عمرانية نموذجية هي : الخمس ، زوارة ، القبة ، درنة ، زليتن ، سرت .

ان النسبة المنخفضة للاراضي الخاصة في مصراته يعود الى وجود مساحات واسعة تحتلها معسكرات الجيش الواقعة غربي طريق بنغازي ، ويفضل أن ينتقل مثل هذه الاستعمالات الى خارج حدود البلدة لكي يسمح باستغلال الارض بشكل يتناسب مع تطور المنطقة العمرانية ، وتوسع المنطقة التجارية المركزية ، فلكي تؤدي هذه المنطقة دورها الاقتصادي يفضل أن يحيط بهذه المنطقة احياء سكنية لكي يستطيع أن يقوم السكان بشراء حاجياتهم من هذه المنطقة التجارية المركزية دون الاضطرار الى قطع مسافات طويلة وتنسيق عملية مرور السيارات داخل البلد .

ويلاحظ أيضا من جدول رقم (٨) أن الاراضي المخصصة للمرافق العامة ذات نسبة منخفضة مما يدل على وجود نقص كبير في هذه المرافق الخدمية الجديد للمدينة الى ضرورة مضاعفة هذه النسبة ، وكذلك الحال بالنسبة للمنطقة التجارية ، فقد وجدت الدراسة الحالية أن معظم الانشطة التجارية متركزة في منطقة مركزية واحدة ، تضم فيها جميع أنواع الانشطة التجارية ، ولذلك اقترح مخطط المدينة مضاعفة هذه المساحة وذلك بانشاء أسواق جديدة أو محلات تجارية في المناطق السكنية الجديدة .

ويتبقى فيما يلي تحليلا لأهم استعمالات الاراضي في المنطقة العمرانية لمدينة مصراته حسب ما كانت عليه الاوضاع في أواسط الستينات ثم ننتقل الى دراسة الاوضاع العمرانية الحالية :

(١) المناطق السكنية : (شكل رقم ـ ٥)

كانت المنطقة السكنية في مدينة مصراته تتألف من ثلاث مناطق سكنية رئيسية ، تقع أكبر هذه المناطق (منطقة أ) في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة العمرانية وهي أقدم وأكبر منطقة سكنية ، يليها المنطقة الثانية (منطقة ب) في الجنوب الشرقي ـ وهي أصغر المناطق السكنية ، كما تقع المنطقة الثالثة (منطقة ج) في الشمال الغربي من المنطقة العمرانية ، ويمكن

نموذج لدور الداخل السكني الأساسي التاريخي لهذه المناطق بوضوح ، وقد بلغت نسبة مساحة الأراضي التي تحتلها هذه المساكن حوالي ٥٠٪ في المائة من مجموع مساحة المنطقة السورية بينما نجد أن هذه النسبة هي أقل من متوسط ٥٠ مركز مدينية أخرى ، كما أنها أقل بكثير من نسبة الاستعمال السكني لمدينة طرابلس ، حيث بلغت هذه النسبة حوالي ٥٠٪ في المائة من مجموع مساحة مدينة طرابلس — أو ٥٠٪ في المائة من المنطقة المسورة في عام ١٩٧٠م) وذلك فإن نسبة المنطقة السكنية في مصر هي أقل من مثيلتها في مدينة بنغازي (حيث بلغت في عام ١٩٧٠م حوالي ٥٠٪ في المائة من مجموع المنطقة السورية) .



أ) المنطقة السكنية الاولى (منطقة ١) :

ان هذه المنطقة هي أقدم المدن السكنية في المدينة ويعود تاريخ انشاء جوامعها الى الفترة الواقعة بين ١٣٠٠ ــ ١٧٥٠ م . وتمثل أصل المنطقة التي كانت تتألف من ثلاث مناطق مأهولة أنشأها قبائل العرامنة والكوافل والقارية . ثم ضمت هذه المناطق الأهوية الثلاث لتصبح منطقة سكنية مستمرة تغطي ٣٥ هكتاراً من الاراضي وتضم ٥٧٣٠ شخصاً (يعادلون ٦٢٪ من سكان منطقة معسكره الصراية عام ١٩٦٢) بينما بلغ عدد وحداتها السكنية ٥٥٠ وحدة (أي ما يساوي ٣٥٪ من مجموع الوحدات السكنية) .

ان أكثر الوحدات السكنية في هذه المنطقة هي من الطراز العربي ، وهي ملتصقة ببعضها وتضم كل منها فناءً داخلياً مركزياً ، وبناؤها من الاحجار المقولة بالطين ، في حين أن القليلة منها مبنية بالطوب الاسمنتي ومسقوفة بالاسمنت المسلح . ويعود انشاء أكثر الوحدات هذه الى أكثر من ٢٠٠ سنة خلت ، ويحتاج أكثرها الى الاصلاح ، كما أن كثيراً منها متآيل (متداعي) . وقد كانت تضم هذه المنطقة سكاناً من مختلف فئات الدخل والفئات الاجتماعية (كما كان الحال في معظم المدن العربية الاخرى) .

لم تكن شوارع هذه المنطقة أو حواريها منظمة بشكل واضح ، كما لم يكن بالامكان الوصول الى كثير من الوحدات الا سيراً على الاقدام خلال أزقة ضيقة ، وأغلب الشوارع كانت غير مرصوفة وتفتقر الى الانارة . وكان هناك بعض الحوانيت الصغيرة منتشرة في بعض أجزاء هذه المنطقة لتخدم السكان المحيين فقط ببعض السلع الآلية (المواد الغذائية والسجائر والتبغ وغير ذلك) . وكان يحد من انسيابها نقص الشرب وجود أراضي منخفضة تغطيها المياه أثناء هطول الامطار الغزيرة .

ب) المنطقة السكنية الثانية (المنطقة ب) :

تقع هذه المنطقة في الجنوب الغربي من المنطقة التجارية المركزية وهي أسفر المناطق السكنية وتضم ٦٣٠ شخصا (٧٪ من السكان) وهم وحدة سكنية (أو ما يعادل أيضا ٧٪ من مجموع الوحدات السكنية) . وقد أنشئت هذه المنطقة خلال فترة الاحتلال الايطالي ، وشوارعها ذات نظام هندسي ومرصوفة ، وبها أرصفة للمشاة وأكثرها مشجر ، وان مباني هذه المنطقة لا تزال قائمة في الغالب وطرازها من البيوت المتفرقة الأوربية ، تضم كل منها وحدة أو وحدتين سكنيتين ، تحيط بها الحدائق كما أنها تتمتع بالماء الجاري والكهرباء ، ويسكن الحكومة هذه المنازل وأغلبهم الموظفين الحكوميين الذين يشغلون فئة الدخل الأعلى .

جـ) المنطقة السكنية الثالثة (المنطقة ج) :

تقع هذه المنطقة في القطاع الشمالي الغربي للمدينة ونشأ معظمها في فترة ما بعد الحرب ، وان قسما منها بمخطط ذاتي قد رسمه الايطاليون عام ١٩٣٧ . وان أكثر هذه المنطقة حديثة البناء ، كما ان أكثر التطور الذي عقب استقلال ليبيا (في الخمسينات والستينات) قد تركز فيها . إلا أن هذه المنطقة تفتقر الى الشوارع المرصوفة وشبكة المياه بدون تنظيم وقد أخيرا البلدية في مد خطوط المياه الجديدة في هذه المنطقة بانتشار تنفيذ المخطط الشامل الجديد للمدينة . وقد كان عدد سكان هذه المنطقة حوالي ١٨٩٠ نسمة (أي حوالي ٢٠ في المائة من سكان المنطقة السكنية) وتضم ٣١٥ وحدة سكنية أو ٢٠٪ من مجموع الوحدات .

كانت تضم هذه المنطقة في الستينات وما قبل ذلك أعدادا مختلفة من الأسرة إذ كانت فيها « الفيلات » والبيوت العربية وبيوت حكومية بسيطة ومعسكرات للجيش . وكانت تضم الوحدات الداخلة منها بالماء والكهرباء ، كما كان كثير من سكان المراكبان والجيش يعيشون في

أراضي تابعة للملكية الخاصة بوضع اليد ، وان كان لدى بعضهم اذن بذلك .

وقد كانت خارج المناطق السكنية لآفة الذكر حوالي ١٢٨ وحدة سكنية تقع ضمن حدود النطقة العمرانية ، وكانت تضم هذه الوحدات حوالي ٨٩٠ نسمة ، وتفتقد المنافع الضرورية .

ويضم الجدول رقم (٢) تلخيصا لنتائج المسح الحقلي والتحليل الخاص بالوحدات السكنية .

جدول رقم ٢ — مساحة وعدد سكان وكثافة المناطق السكنية الثلاث في مصراتة ، ١٩٦٦ (*)

المنطقة	مساحة المنطقة (بالهكتار)	عدد الوحدات السكنية	عدد السكان	كثافة المنطقة السكنية شخص/الهكتار	كثافة منطقة السكان شخص/الهكتار
أ	٣٠٠٫٠٢	٦٧٥	٥٧٢٠	١٩١	٢٧٠
ب	٣٤٩	٩٠	٦٣٠	١٨٠	١٩٥
ج	٢٧٥٠٧	٢١٥	١٨٦٠	٧٠	١٨١
متفرقة	٤٠١٦	١٢٨	٨٩٠	—	٢١٢
المجموع/ المعدل	٦٤٠٧٢	١٢٠٠	٩١٤٠	١٤١	١٩٩

(*) المصدر : تقرير شركة « مالكجي » ص ١٢٩ .

يلاحظ من جدول رقم ٢ أن المنطقة « ج » هي أكبر المناطق السكنية من ناحية المساحة وعدد الوحدات السكنية وعدد السكان وكذلك نجدها أقل كثافة سكانية من بين بقية المناطق ، كما يلاحظ أيضا أن منطقة « ب »

هي أصغر المناطق السكانية من ناحية المساحة وعدد الوحدات السكانية إلا انها تحتل المركز الثاني من ناحية الكثافة السكانية . وبذلك فان المنطقتين القريبتين من المنطقة التجارية المركزية كانتا ذات كثافة سكانية عالية نسبيا وان هاتين المنطقتين هما المناطق تشاهدان حاليا أكبر تطور عمراني في معرانه — كما سنبين فيما بعد — ولكن نظرا لهذا الموقع الهام بالقرب من المنطقة التجارية المركزية فانهما سيظلان دائما يجذب السكان .

أما توزيع الوحدات السكنية حسب انواعها في كل منطقة من معرانه فكانت كما في جدول رقم (٣) :

جدول رقم (٣) : الوحدات السكنية وانواعها في معرانه (١٩٦٦)*

	المناطق السكنية			وحدات متناثرة	المجموع
	أ	ب	جـ		
مجموع الوحدات السكنية	١٧٥	٩٠	٢١٥	١٢٨	٦٠٨
عدد الوحدات السكنية					
أ) حسب النوع :					
فيلات	١٢	٦٢	٣٥	١٠	١١٩
بيوت عربية (عرش)	٦٢١	٢٩	٢١٢	٧٣	٩٦١
مستقل	٦	٢	٢٢	١٥	٧٥
بركات	٣٩	٢	١٥		٥٢
ب) حسب نوع البناء :					
دائم					١١٥٥
مؤقت	٣٦	٢	١٥	—	٥٣
جـ) حسب الوضع :					
مفصول	١١١	٦٨	٩٤	٦٥	١٣٨
متاصل	١٢٩	٧	٧١	١٨	٢٢٥
ثابت لا متاصل	٣٥٧	١٥	١٥٠	٤٥	٥٧٥

* المصدر : تقرير الملك جي ف ك ص ١٢١ .

يلاحظ من جدول رقم (٣) أن البيوت العربية كانت هي النوع السائد في منطقة مصراته البرانية (عام ١٩٦٠) ، بينما الفيلات ، بينما الشقق كانت قليلة ، كما يلاحظ أن معظم الوحدات السكنية في المنطقة د ب ، (العي الايطالي سابقا) كانت من نوع الفيلات ، بينما كانت نسبتها قليلة في المنطقتين الاخريين ، ك ا كانت بين وحدات الاسكنة ، وهي أيضا حسنة ومساعة للسكن ، بينما كانت أعداد كبيرة من المنطقتين الاخريين متآكلة (٧٩٪ و ٧١ وحدة سكنية على التوالي) .

هذا وقد وجد أن معدل عدد العائلات في الوحدة السكنية كان ... متقارب نسبيا ، حوالي عائلة واحدة (١٠٠ ، ١) ، إلا أنه كان ملاحظا أن مصراته كانت تعاني من ازدحام في الاماكن السكنية ، وان عددا كبيرا كان يحتاج الى اصلاحات .

كما أن الطرق كانت بحاجة الى رصف وتعبيد الشوارع وتوسيع الشوارع ، وبالاضافة لمناطق السكن التي تحتاج الى اصلاح وتجديد كانت تقع في المنطقة السكنية (أ) وهي أكبر منطقة سكنية وأعلاها كثافة سكانية فان عملية شق الطرق وتخفيف عبء الازدحام للمنطقة يتطلب دراسة وافية بمشاريع اسكان كبيرة في المنطقة لنقل السكان من هذه المساكن القديمة الى وحدات سكنية حديثة .

(٢) المناطق التجارية : (شكل رقم ـ ٦)

كانت أكثر الانشطة التجارية تتركز حول المنطقة التجارية المركزية (Central Business District أو C B D) ، حيث بلغ مجموع محلاتها (٢٣٠ محلا تجاريا) ، وقد تركزت مع الزوايا الجنوبية والاقليمية ، لمدينة مصراته .

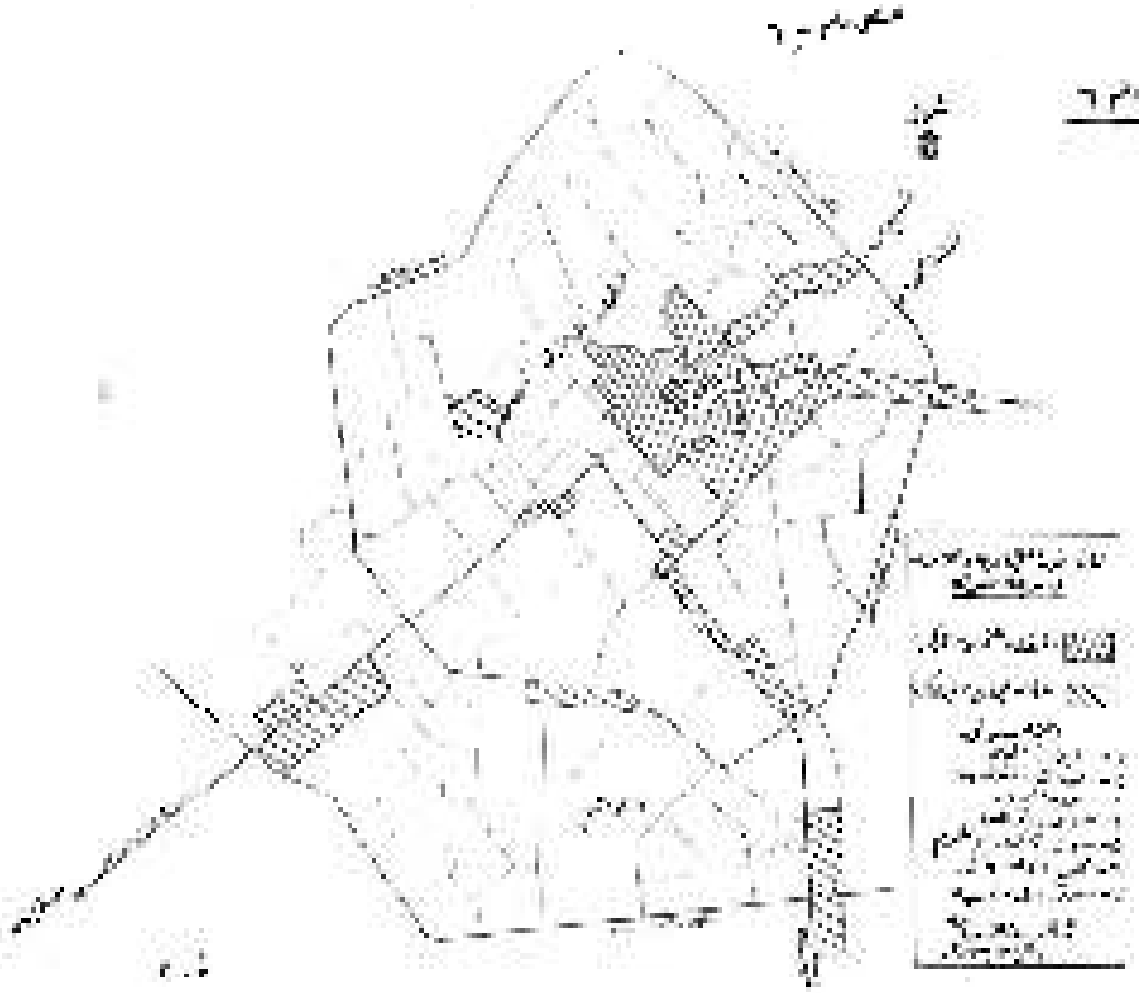
وقد كانت الاسواق في مصراته تعقد خلال ثلاثة أيام في الاسبوع :

... الاثنين والخميس ، ولم يكن مسموحا في ذلك ... سوى ... (السوق) التي تقع على بعد ٥٠ كيلو مترا الى الغرب منها) إلا ان هذا السوق كان يعقد أيام الأحد والاربعاء ، ولذلك لم يكن هناك منافسة فعلية بين الميناس إلا يوم الأحد (حيث أسواق متعددة تعقد في وقت واحد) ويوم الاثنين والخميس (وهي ايام الحجارب أيام العمل) .

بلغ عدد الوحدات التجارية في مصر له عام ١٩٦٦ حوالي ٧٨٠ وحدة ، ويمثل هذه الوحدات كان عبارة عن محل عائلي يشتغل فيه افراد الاسرة بالعمل فيه ... ان لا ... رج (١٦) ، وكان أكبر هذه المتاجر منذ المتاجر العامة ـ حيث بلغ عددها ١٣٥ متجرا ـ ثم المحلات التي تحتل محل البقال (أو الجوخي) ـ حيث بلغ عددها ٦٥ محلا ـ ثم البقالات ـ والتي بلغ عددها ٤٥ بقالا (١٧) .

وقد كان من هذه المحلات ، محلات تجارية تعمل أيام الأسواق فقط ، وبعضها الآخر يعمل طيلة أيام الاسبوع (كمحلات الجوهرجي ، وبيع الاحذية ... الخ) . اما المحلات التي سوف نتحدث عنها (أيام الأسواق فقط) فهي المحلات البسيطة بشكل عام التي تقع بجوار حوانيت البائعين الرئيسيين (بيداني التمر والرشايبي) كما ان الاشخاص الذين يعملون في التجارة أو الحرف اليدوية على أساس جزئي (أو كعمل اضافي) يقيمون خارج مصراته ويحتفظون بمكان خاص في مصراته للعمل أيام الأسواق فقط .

وبين هذه المجموعة من المحلات التجارية كانت هناك أسواق متخصصة تبيع بعض المواد أو الحيوانات ، وبعض منها كان مستمرا والآخر غير مستمر ، وكانت كلها متمركزة حول بيداني التمر والرشايبي .



ب) الأسواق الدائمة كانت تشمل الأسواق الآتية :

١ ـ سوق الفواكه والخضروات .

٢ ـ سوق الأسماك .

٣ ـ سوق الغنم .

٤ ـ سوق الأرانب والدجاج .

٥ ـ سوق السجاد .

ج) الأسواق غير الدائمة كانت تشمل :

أ ـ سوق أدوات الخضروات والفواكه .

ب ـ سوق الحبوب .

جـ ـ سوق البرسيم (العلف) .

د ـ سوق الصوف الخام .

هـ ـ سوق الجلود .

و ـ سوق الخرد (الخضار) .

ز ـ سوق عصرة وردة .

حـ ـ سوق المواشي .

ط ـ سوق المعدات والأدوات المعدنية .

ك ـ سوق الملابس .

وقد كان موعد إقفال الأسواق عند الساعة الحادية عشرة من الصباح ، فيتجول التجار في السوق في محل مجاور يشغلون أرض الميادين والأسواق الأخرى لعرض بضائعهم (وحيواناتهم) حتى أن تجمع أي عدد من هؤلاء الباعة قرب بعضهم بعضا يشكل سوقا مقترحا (غير معروف) تخصص في بيع سلعة ما . وقد كان عدد من كبار هؤلاء الباعة على قلة الأرض عدده لكي يكسبوا مكانا مستمرا يتعهدونه في المستقبل .

ومن بين هذه الأسواق نجد أن ميدان النصر كان أكثرها أهمية ونشاطا من الناحية التجارية ، وأن محوره (الممتد من شمال الشرقي إلى الجنوب الغربي) يتقاطع مع محور الشارعين الواصلة بين مطاعم مكانين واسعين من مركز المدينة ـ جزء يقع في الشمال من هذا المحور ، وجزء آخر يقع إلى الجنوب منه . هذا وكانت منطقة الميدان تعج بالباعة

والمشترين (أو السبلة) أيام انعقاد الأسواق اذ كان يقصد المدينة أعداد كبيرة من الناس من مناطق بعيدة ـ خاصة أيام الثلاثاء لعدم وجود مناطق لسوق مماثلة في ذلك اليوم ـ فقد كانت بعدان العمل صغيرة ومعظم أعمال البيع والشراء تتم على أشكال متفرقة .

هذا وقد اتخذت مظهر وشوارع محلات التجارية الحديثة خارج المنطقة المركزية ـ مثل شارع بغدادي وشارع رمضان السريحي وبعض الأحياء السكنية الجديدة ـ الطابع من نوع « السوبر ماركيت » التي تعرض بضائع متعددة ومختلفة ـ خاصة من السلع الغذائية ـ وتتم في الغالب تحت أنظار العاملين ، بينما أغلب المحلات التجارية الصغيرة في سوق الصاغة والقرضاية كانت من طابق واحد والأعمال التجارية الصرفة .

وتبين من مشاهدتي للتغيرات التي حدثت لمنطقة العمارة في مدينة مصراته في عهد ثورة الفاتح العظيمة (معتمدين على دراستنا الحقلية لتلك المدينة في عام ١٩٧٩ م) .

٦ ـ الطوبوغرافية الحالية لمدينة مصراته : واقع شكل رقم ١٠ :

إن محافظ مدينة مصراته قد تفطن على أن استلام الإدارة المحلية لزمام الأمور بعد نجاح ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة ، وقد أخذت هيئة الإدارة في تنفيذ المخطط العام ـ الذي كان قد وضعته شركة « دوكسيادس » وشركاه ـ بشكل جيد وبصورة لا تتعارض مع أي محاولة من سكان المدينة ، وبذلك فقد حققت السريانات الدائرية الأول والثاني بنظاميهما حول مركز المدينة ، وكذلك أيضا جزء من الطريق الدائري الثالث في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ، كما أن الإدارة المحلية قد أقرت هدم المساكن المتداعية والتي وقفت في سبيل تنفيذ هذا المخطط العام ، وقد استعدت أن تعوض ـ أكثر الدخل المحدود من السكان الذين كانوا يقيمون في هذه

المنطقة المركزية ، أو تساعدهم في انشاء مساكن أخرى جديدة على جانبي الشوارع الحديثة التي أخذت تشق الطرق القديمة من المدينة .

كما أن الإدارة المحلية لبلدية مصراته قد قامت بتحديد الاستعمالات المختلفة للمدينة وحددت على قلب بعض الأنشطة التجارية الى خارج المنطقة المركزية ، ونقل المدابغ الصناعية والحرفية الى أجزاء معينة من المدينة أو خارجها ، تمشيا مع النظريات العلمية لتخطيط المدن وحفظ البيئة والتراث القديم ، كالاحتفاظ ببعض الأبنية القديمة أو التاريخية ، ولا شك لأحد أن يثني اجلالا واعترافا لهذا الجهود الطيب والجاد الذي تبذل في تحسين معالم المدينة ، رغم الأعباء الكثيرة التي تحملتها هذه الادارة بعد الأيدي الغاشمة المحتلة ، بأن المنطقة الوحيدة التي لم تصلها يد التطوير بعد هي منطقة التجارية المركزية (CBD) وقد لاحظنا أن معظم التجار الذين أجري استفتاؤهم يبدون تخوفا من نقلهم محل عملهم الحالي بعد شق بعض الشوارع الحديثة أو الطرقات داخل هذه المنطقة أو بعد نقل بعض الأنشطة الى خارج هذه المنطقة المركزية .

ورغم تقدم مدينة مصراته ذات الموقع الرئيسي كما سبق ذكره فهي ما زالت تعاني جدا والى حد ما الى الآن ، تعرية بعض المدن العربية من حيث تركيبها الداخلي ، فانك لا تجد في وسط المنطقة العمرانية منطقة تجارية مركزية تضم بأنشطة متجانسة ، فالشارع الرئيسي هو تجارة الشوارع أو الجنبة تضم بعض المحلات أو الحرف اليدوية ، وقلما تجد بالقرب منها (وقد تكون أبعد أحيانا) بعض الشركات والمؤسسات والدوائر الحكومية والمصارف ، وخارج هذه النواة تجد نشاطها التجاري بشكل رئيسي مع مناطق سكنية قديمة وبعض منها مساكن أو منشآت وسط كما هو الحال في الجبلة أو مستغل كمرافق مؤجرة (أو مساكن مؤجرة بالكامل) لعائلات أو لأشخاص يعملون في هذه المنطقة المركزية القريبة منهم ، وقد لا يتجاوز

عرض هذه المنطقة من ... ـ ١ كيلو متر ، وبعد هذا النطاق تجيء منطقة مكتظة من مساكن الفئة ، يقيم فيها بعض أصحاب الاعمال الموجودين في المنطقة المركزية أو بعض موظفي الحكومة ، والكثافة السكانية أقل في هذا النطاق من النطاق السابق ، كما أن دخل هؤلاء السكان أعلى من دخل سكان النطاق الأول ، ونجد في القسم الغربي من المدينة مساكن شعبية تعتبر نسبيا (كانت قبل تطوره) ويقيم فيها بعض الموظفين في دوائر الحكومة (البريد والجمارك) أو من أفراد القوات المسلحة من ضباط ، وان عرض هذا النطاق هو متوسط فهو يمتد ما بين نصف كيلو متر في المنطقة شرقية غربية حوالي كيلو متر ونصف في المنطقة الغربية والعاصمة الغربية ، وقد يكون أحسن حالا من النطاق هو النطاق الثاني ،

أما خارج النطاق الثاني فاننا نجد ـ في بعض المناطق من المدينة وخاصة الجزء الجنوبي الغربي ـ مناطق سكنية أحسن حالا من النطاق السابق ، وهي تمثل السكان الذين استفادوا من شق الطرق الحديثة فسعوا مناقب وانشأوا عمارات جديدة بعدة الايجار أو لسكن التجار وأصحاب الاعمال ـ ذوي الدخل المتوسط الى العالي ـ في المنطقة المركزية ، أو في محيط الاسواق ، أو بعض موظفي الدولة والشركات والمصارف ، ويدل على ذلك وجود منطقة سكنية حكومية (شعبية) في الجزء الجنوبي الغربي من المنطقة ـ تقع ما بين الطريق الدائري الشمالي والطريق الدائري الثاني ، فقد اقام في حي المساكن الجديدة مواطنون من ذوي الدخل المحدود ، ـ وهي مؤلفة من عمارات أو فلل ـ كما سبق أن بينا ـ وأنشئت بين هذه الوحدات السكنية محلات تجارية لتلبية الحاجات اليومية لسكان تلك المناطق ،

ونجد خارج المنطقة السابقة نصف دائرة ، منطقة الفيلات ، ـ أو الضواحي ـ التي يقيم فيها التجار الكبار وأصحاب الاعمال الكبيرة ومديرو

السكان او المؤسسات الخاصة وكبار الموظفين الذين يأتون الى المدينة بسياراتهم الخاصة يوميا الا ان داخل المجتمع يسمح لهم بنقطة تقصان داخلهم وتملك اطلال واسعة ، ومساحة عامة بالسيارات — وهي خارج نطاق دراستنا هذه .

وهكذا فان هذا النموذج يشبه الى حد ما النموذج الذي اقترحه عالم الاجتماع بيرجس (Burgess) لتركيب المدن الامريكية — وخاصة شيكاغو — الذي وجود بعض العوامل (كوجود مساكن الصفوة قرب النقطة المركزية ووجود المقابر في غرب وشمال المدينة ، ووجود املاك للدولة في بعض أحياء المدينة) لم تمنعه كنموذج أو (مودل Model) ، بيرجس ، لكن تركيب المدينة كان الى وقت قريب ، ولا يزال في الاغلب شبيها بهذا الموديل .

وسنتناول هنا كل استعمال على حدة ، لبيان تركيبه وخصائصه وعلل أسباب توزعه ونتائج هذا التوزع للمدينة بأجمعها .

أولا : المناطق التجارية :

(أ) النقطة التجارية المركزية :

تقع هذه المنطقة في وسط المدينة — حول ميدان النصر والقرطاجية حيث يمتد من الشرق والشمال والجنوب الطريق الدائري الاول ، ومن الجنوب الغربي طريق بنغازي ، ومن الشمال الغربي شارع الجزيرة ، وان هذا التحديد بالحقيقة لم يتم على دراسة علمية كما يجب ، بل استنادا في تحديد هذه المنطقة على وجود نسبة عالية من استعمال التجاري من كل بلوك ، داخل هذه المنطقة[٥] ، وحيث ان معظم هذه المنطقة مؤلفة من أبنية من دور واحد فقد كان تحديد هذه المنطقة أسهل مما لو كانت المنطقة مؤلفة من عمارات ذات استعمالات مختلفة . (شكل رقم ٧ : ورقم ١٠) .

وتألف هذه المنطقة من عدة أسواق مستوفة وغير مسقوفة بالاضافة الى العديد من المحلات التجارية التي تعرض أنواعا عديدة من السلع .

(أ) الأسواق المسقوفة :

(أ) سوق الخضار والفواكه :

يشرف هذا السوق على ميدان القرطاية من الناحية الجنوبية ، ويضم ما بين ٢٠ ـ ٢٥ محلا تجاريا (أغلبها أنشئ ١٩٣٢ م) ـ وتتميز هذه المحلات بأنها تخدم معظم سكان المدينة اذ أن هذا السوق يحوي أنواعا مختلفة من الخضار والفواكه معروضة بشكل منسق وخاصة للسيدات الرسمية التي يشرف عليها رجال العرس البلدي يوميا . وان هذا الوضع استوجب وجود ذلك سوق بالقرب من نواة المدينة التي يقصدها الناس يوميا لشراء حاجاتهم من الملابس والأدوات والأحذية وغير ذلك ويقصدون بعد انهاء تسوقهم في المنطقة التجارية المركزية عادة . وهناك عامل آخر مساعد وهو وجود سوق اللحم والأسماك والبيض / دجاج بجوار هذا السوق مما يسهل عملية شراء أنواع المذكورة من مكان واحد بدقة وسرعة .

هذا وان إيجار هذه المحلات منخفض جدا اذ أنها ملك للبلدية وهي التي تشرف على تأجيرها للمواطنين . لذلك كانت فرصة التنافس بين سكان الحصول على محل في ذلك السوق (الميسر) . وبالرغم العناية التامة بالنظافة العامة تظهر المحلات التجارية والسوق ـ وخاصة قسم اللحم والأسماك .

(ب) سوق اللحوم والأسماك والدجاج والبيض :

وهو ـ كما ذكرنا سابقا ـ يتصل بسوق الخضار والفواكه وله مدخل خاص به من الشرق الشرقي لميدان القرطاية مما يساعد على تهيئة



ادخال الموقع أن هذا الجزء بشكل سريع ودون أن يتعرض للمواقف فيما هو أدخل من سوق الخضار ، وأن محلات بيع التمر أكثر من محلات بيع الخضر والفواكه ، والظاهر أنها تعمل من يوم لآخر أي أنها لا تحوي كميات كبيرة للعرض إذا تم بيع في ذلك اليوم ، مما يدل على أن المال يدور على هذه المادة يوميا ولا يخزن ، إلا في كميات صغيرة من يوم لآخر ، وكذلك الحال بالنسبة لبيع الأسماك ، مع أن الإسماك موضوعة عادة في صناديق تحوي ثلجا ، لأن الكميات المعروضة قليلة وعليها طلب كبير .

أما الحجاج فانه يتم عادة جيدا ولا توجد امكانية ليبيه مذبوحا وسلخا كما هو الحال في بنغازي أو مراكش ، وهكذا فاننا نجبه بائعي الحجاج وأرباب يحترفون حسوبا مزولا نوعا ، ويدخل هذا المجمع عدد الأسواق السود الخاصة ، كما أنهم يتضمنون أيضا لمراقبة الحرس البلدي فيتم تسميم أيضا نقيقه زعادة سيئا .

هذا وقد كان هناك سوق آخر مفتوح (غير مسقوف) لبيع الخضار في الشمال من ميدان النصر (بالقرب من سوق الجملة السابق) الا أن هذا السوق قد ألغي ولم يعد يسمح ببيع الخضار والفواكه في هذا المكان وهذا من اختصاص الادارة المحلية لبلدية أيضا .

(ب) سوق السجاد :

يقع هذا السوق في الجزء الشمالي من ميدان النصر ، وهو سوق صغير يحتوي حوالي ٢٠ محلا تجاريا صغيرا مكتظا بالسجاد والاكلمة وغيرها من المصنوعات الصوفية اليدوية ، وقد سبب قرب هذا السوق من ميناء طرابلس الغرب الكثير من المتاعب الجمة لخدمة الاسطار والمبار ، كما أن وجود بائعي السجاد في مكان واحد يسهل عملية المساومة على بيع السجاد والاكلمة الوافدة الى السوق ، اذ لبائع هذه السلع تجار المختصين من دول الشرق الأدنى ، وبما أن السوق صغير ومسقوف فان مثل هذه الصفقة تتم بسهولة وبسرعة ، خاصة في الأيام التي لا يعقد فيها الأسواق أو في الأوقات التي لا يكون فيها مشترون عديدون في السوق ، وهناك عامل آخر ذكره لنا بعض التجار وهو عامل الأمان ، فان السجاد والاكلمة باهظة الثمن جدا فقد جرت العادة أن هذا السوق يراقبه بشكل الملاحظة بشكل في المساء وأيام العطل .

وقد كانت السلع المصنوعة ترد الى هذا السوق من أماكن عديدة

خارج المدينة وأحياء من منطقة قسران ـ خاصة أيام القوافل القديمة ـ وكان حركة التجارة أقوى بكثير مما هو عليه الوضع الآن ، وكان زوار هذا السوق خلال الأيام التقليدية لانعقاده ـ كما أشرنا في الفصل السابق ـ وقد ذكر لنا بعض التجار أنهم يجدون منافسة قوية من السجاد المستورد من خارج ليبيا ، ولذلك فقد قل دخلهم من هذه التجارة ، كما أنهم كانوا يقارنون بين مستواهم من ناحية أخرى ، فإن صوفهم هذا ممتاز أيضا عند تنفيذ الأنماط العامة ـ والمتأخرون منهم يدفعون أيجارات زهيدة (ما بين ٤ ـ ٦ دنانير شهريا) .

وما زالت بعض القبائل المحيطة بمدينة مصراته تحتفظ بصناعة معينة من هذه النسوجات الصوفية وتحضرها الى هذا السوق باستمرار ـ الا أنه حسن ركود في صناعة السجاد الزاحف في الخمسينات والستينات ، ولكن عادت الحركة الى تشجيع هذه الصناعة اليدوية الهامة وذلك بافتتاح معهد لصناعة السجاد اليدوي تدرب فيه الفتيات الصغيرات بهذه الصناعة على أحدث الطرق لانتاج السجاد والاكلة عن طريق منوالات مختصة ، ثم إعطاء الخريجات أو الأجنبية بدورها لأسرهن في منازلهن لانتاج السجاد بالطرق التقليدية ـ وتقوم الخريجات ببيع انتاجهن الى هذا المعهد الذي يقوم بدوره ببيع هذا السجاد في الأسواق المحلية والعالمية ، ويوجد الآن في هذا المعهد شعرة عاملة في صناعة السجاد الأمر الذي أدى في فترة معارض دولية وعديدة الى مدينة مصراته بصناعة الصناعة اليدوية ، إذ يعد صناعة انتاج معهد انتاج الخيوط الصوفية في مدينة لمرح على زيادة هذا المعهد وخريجاته الخيوط الصوفية الجيدة والمتنوعة الألوان) .

(٢) الأسواق غير المسقوفة :

وتتألف من كلا من ميداني النصر والفرضاية ، وميدان الاستقلال ، وسوق التركمان (السبع القديمة) ، وسوق الغنم ، وسوق الماشية .

أ) ميدانا النصر والفرضاية :

يمثل ميدانا النصر والفرضاية ، ومتفرعاتهما ، عقدة المواصلات في المدينة ، وقد كانت تفد إليهما السيارات القادمة من بنغازي في طريقها إلى طرابلس ، وكذلك الطرق المتجهة شرقا إلى مصراتة والطرق المتجهة جنوبا إلى منطقة الجفرة (ورزان) . أما حاليا فقد افتتحت طريق جديدة خارج هذه المنطقة التجارية تصل ما بين طرابلس وبنغازي دون الاضطرار إلى المرور في وسط المدينة .

ومن جهة ساعد هذا المشروع على تخفيف حركة المرور داخل المدينة ، ومن جهة أخرى فقد أبعد الحافلات الضخمة السابقة من هذه المنطقة ، وبذلك فسحت محلات تجارية جديدة على الطريق الدائري ومن كل من طريق بنغازي وطرابلس لتوفير الخدمات للأشخاص الذين لا يريدون (أو لا يستطيعون) الوصول إلى المنطقة التجارية المركزية .

وقد كانت محلات التجزئة المركزية تفتح خلال ثلاثة أيام في الأسبوع (وهي أيام الأحد والثلاثاء والخميس) ، إلا أنها أخذت تفتح أبوابها ثلاثة أيام الأسبوع — مع أن النشاط التجاري ما زال محتفظا بتقاليده السابقة فنجده أقوى في الأيام السالفة الذكر (ما زالت هذه الأيام تقام بالنسبة لانعقاد سوق البدو كما سيرد فيما بعد) .

وقد تكون هذه التقاليد من عادات الريفيين الذين لا يستطيعون الحضور يوميا إلى أسواق مدينة مصراته — أو أنهم يحاولون حضور أسواق أخرى مجاورة لمدينة مصراته (كما ذكرنا أعلاه) .

مع ذلك لا تزال هذه المنطقة تعتبر أنشط منطقة تجارية في مدينة مصراته ، إذ أن هذه المنطقة تحوي حوالي ٥٠٠ محل تجاري على مسافة

... من مراكز الميادين الرئيسية فيها ـ وان معظم هذه المحلات لا تختص في بيع سلعة واحدة بل أنها تعرض عدة سلع ، كالملبوسات والاحذية والاقمشة والمفروشات والآلات الكهربائية والادوات المنزلية وغير ذلك ـ في محلات صغيرة (انشيء بعد ١٩٥٣م) وهي متلاصقة وفي الشرع القديم في داخل وخارج ... وأغلبها لا يجري واجهات لعرض البضائع والسلع لاحظنا أثناء الدراسة الحقلية أن بعض هؤلاء التجار قد اكتسبوا شهرة واسعة حتى أن الناس يقصدونهم من أماكن بعيدة لشراء سلعة ما لثقتهم بجودة في الواجهة أو معاملتهم عليها . وقد ذكر لنا أن من أهم أسباب ازدهار هؤلاء الناس بشكل متفاوت على بعض التجار هو المعاملة الحسنة التي يقدمها التجار لزبائنهم . وقد تبين لنا أن معظم هذه المحلات التجارية يديرها شخص أو شخصان على الاكثر وقلما تستعين بأيدي عاملة خارج النطاق العائلي وهي من الشروح التي يخدم سكان المدينة والمناطق المجاورة من القرى ضمن النطاق البيئي المحلي . وقد يكون هذا سبب وجود اعداد كبيرة من المحلات التجارية المتشابهة التخصص بجانب بعضها البعض في مدينة صغيرة بهذا الحجم .

هذا وقد كان يوجد العديد من الباعة المتجولين (البسطات) تشترى أرض الميادين العرض بضائعهم وعلى أزمة مرور كثيرة ، أما في الوقت الحالي فان البلدية لا تسمح لهؤلاء المتجولين بالقيام بمثل هذا العمل وذلك حتى تصبح محلات خدمية بهم ـ الا أننا لاحظنا وجود بعض الاكواخ المرتبة في ساحة ميدان النصر تبيع سلعا بسيطة كالمخبوزات والساعات البسيطة والراديوات الصغيرة والسجائر والمجلات والجرائد وغيرها من أنواع الترطاسيه .

هذا وقد لاحظنا أثناء زيارتنا لمدينة وجود أنشطة مختلفة من الانشطة التجارية في الجزء الشمالي والجزء الجنوبي لهذه المنطقة التجارية المركزية ولاعطاء فكرة كاملة عن تركيب هذه المنطقة فاننا سنعطي هنا تحليلا خاصا لاهم أنواع الاستعمالات الموجودة في كل جزء على حدة .

٢ ـ تركيب الجزء الشمالي من المنطقة التجارية المركزية :

يضم هذا الجزء شمال المحور الشرقي ـ الغربي لميدان النصر وامتداده غربا الى شارع الجمال وشارع جامع الشيخ .

ويحتوي هذا القسم حوالي ١٧٥ محلا تجاريا ، و ١٥ محلا مرتفعا (كالخياطين والحلاقين ومصلحي الدراجات أو الاجهزة الكهربائية) ـ بالاضافة الى ١١ محلا مهجورا .

(أ) المحلات التجارية :

يحتوي هذا الجزء حوالي ١٧٥ محلا تجاريا مختلف التخصص ، كما يظهر من جدول رقم ٤ .

جدول رقم (٤) : توزيع المحلات التجارية في الجزء الشمالي من المنطقة التجارية ونسبتها المئوية

نوع التخصص	عددها	نسبتها المئوية	نوع التخصص	عددها	نسبتها المئوية
ملابس	٣٨	٢١٫٧١	مطاعم	٤	٢٫٢٨
ذهب	٢١	١٢٫٠٠	مواد غذائية وروائح	٣	١٫٧١
أدوات كهربائية	١٠	٥٫٧١	أحذية	٣	١٫٧١
عطور ومستحضرات	١٨	١٠٫٢٨	خردوات	٣	١٫٧١
خلافون	١٠	٥٫٧١	مصوغات	٣	١٫٧١
مجوهرات قديمة	٥	٢٫٨٦	مغاسل	٣	١٫٧١
أدوات منزلية	٤	٢٫٢٨	ساعات	٢	١٫١٤
مواد صحية	٤	٢٫٢٨	فوطوغرافية	٢	١٫١٤
متفرقات	٥	٢٫٨٦	غير ذلك	٦	٣٫٤٢
المجموع :	١٧٥				١٠٠٫٠٠

وقد قام بجمع هذه المعلومات الطالبان ـ عبد الهادي بن غريل ومحمود بيت كمال .

يلاحظ من جدول رقم ـ ٤ ـ أن محلات الملابس الجاهزة (بشتى ملابس الاطفال والرجال والنساء) تحتل المرتبة الاولى ـ حيث بلغ عددها ٣٨ محلا ـ ويتركز معظم هذه المحلات في الجانب الشمالي لميدان النصر وشارع جابر الشيخ ـ اذ يوجد فيهما حوالي ٢٢ محلا ، وذلك لان هذه المنطقة هي النواة الرئيسية لمنطقة التجارية في ميدان النصر وشوارعه الرئيسية ، كما توجد نواة أخرى لمثل هذا التخصص تقع عند التقاء شارعي الشريف وعبده ـ حيث يوجد حوالي ١٤ محلا تجاريا للملابس ـ وهذا العدد قليل بالنسبة لباقي النواتين واقع خلف مستشفى الامراض العقلية (٥ محلات فقط) ، ونظرا لان بيع الملابس يحتاج الى العرض الجيد والدعاية (الاعلانات) المغرية ، فان تركز هذه المحلات في وسط هذه المنطقة التجارية يضمن لهذه المحلات اعتدادا كبيرة من الزبائن والمارة التي تشاهد الملابس المعروضة أو المعلقة أمام هذه المحلات ، بينما المحلات الواقعة خارج هذه النواة تعتمد اعتمادا كليا ، وفي الغالب المنطقة المحيطة بها أو تعتمد على الشهرة (خاصة اذا تخصصت هذه المحلات في بيع نوع واحد من الملابس الجيدة مثلا ـ كملابس الاطفال أو السيدات) ومنطقة تفصلها الزبائن من منطقها زمن الخارج ويشمل ذلك مجال التجاري (أو جذبها الاقتصادية) ، كما وان هذه الظاهرة موجودة في معظم محلات العالم .

محلات الذهب :

أما المجموعة الثانية من المحلات التجارية فهي التي تختص في بيع ـ صنع المجوهرات الذهبية والفضية ـ حيث بلغ عددها ٢٩ محلا (أو ما يعادل حوالي ٢٠٪ من مجموع هذه المحلات التجارية النهائية) ـ وان سبب

ويوجد هذا العدد من المحلات في الجزء الشمالي يعود لوجود سوق الذهب في هذا الجزء ـ وهو سوق صغير غير مسقوف مؤلف من حوالي ٥٠ محلا صغيرا مزدحما في مكان صغير (لا يزيد عن ٨٠٠م) تبيع جميع أنواع المجوهرات الشعبية ـ خاصة الذهبية ـ وأغلبها من صنع أجنبي* ورغم أنه توجد محلات أخرى لبيع الذهب خارج هذا السوق ، إلا أن هذه المحلات الأخرى لا تجتذب إليها الجمهور الذي يوجد هذه المحلات في هذا السوق يساعد على سهولة الحفاظ عليها في المساء وأيام العطل حيث يمكن اغلاق هذا السوق وحراسته بسهولة ، كما أن هذا التركز في مكان صغير يساعد بيع الذهب للتجار عن طريق المزاد العلني (كما شاهدنا في سوق السجاد) وهي الطريقة التقليدية المتبعة في بيع أي مجوهرات واردة مسروق من بعض الموانئ أو بواسطة المذهب ، والمنافسة شديدة بين هؤلاء التجار لكسب الزبائن خاصة عندما تكون المحلات متجاورة بهذا الشكل .

كما وان موقع السوق في هذا المكان مهم أيضا إذ أن الزبائن لا يجدون صعوبة في ايجاد هذا السوق عند قدومهم للمنطقة التجارية إذ انه يقع على وشك أو شارع شيق ـ شارع حسن برخان الدين ـ وهو أحد من الأسواق القديمة المرغوبة في المدينة والمتجولات فيه مختلفة أيضا (تتراوح ما بين ٥٠ ـ ٥٠٠ دينارات سوريا) ، والتجار عقون على استقبال عملهم إذ ان موقع هذا السوق قد تأثر عند تنفيذ المخطط العام للمنطقة التجارية ـ خاصة وان معظم التجار في هذا السوق يملكون محلاتهم ، ويخشون أن يضطروا الى دفع ايجارات مرتفعة بعضهم عجز عن دفعها ـ

وهناك تراة أخرى لبيع المجوهرات واقعة في شارع درنة شمال هذا السوق ، إلا أن المجوهرات المعروضة فيها أقل نوعا وجودة من المعروضة في سوق الذهب كما أن معظم الزبائن يقصدون سوق اللحم أولا لاطلاع على أسعار البيانات وفي الغالب تشتري احتياجاتهم من تجار هذا السوق ، وقد ذكر معظم التجار الذين استجوبوا في هذا السوق أن مركزهم ممتاز من الناحية التجارية ولا يرغبون في تغيير مكان عملهم .

(٣) محلات المواد الغذائية : البقالات :

يبلغ مجموع هذه المحلات حوالي ٢٥ محلا (أي بنسبة ١٤,٨٪ من مجموع محلات الجزء الشمالي) ، وهي منتشرة في جميع أجزاء ميدان النصر والمنطقة التي تقع إلى الشمال منه ، ولكنها تتركز في شارع الميدان (الشارع من ميدان النصر) وشارع أحمد الشريف وفروعه — بعيدة نوعا ما عن المركز الإسكاني — وان نمط التوزيع لا يعتمد على أي أساس سوى محاولة أصحاب هذه المحلات الاقتراب من المركز الرئيسي لكي يكونوا قريبين من الحركة العامة للتجارة ، لكنهم لا يستطيعون منافسة محلات الملابس والأحذية والشعب في دفع الإيجار فالمساكن التركية — خاصة بعد أن انتشرت بقالات حديثة في الأحياء السكنية الجديدة وعلى طول الشوارع الرئيسية التي اجتذبت تجمعات كبيرة من الزبائن الذين يعيشون خارج المنطقة التركية .

ولذلك فإن أغلب هذه المحلات التركية تحاول أن تبيع بالجملة والتجزئة لكي تحافظ على بقائها في هذا الموقع المهم ، كما أن معظم هؤلاء التجار يملكون محلاتهم التجارية أو يدفعون إيجارات قديمة مخفضة

(متوسطها من ٨ ـ ٢٠ دينارا شهريا) بينما ايجارات المحلات الحديثة خارج هذه المنطقة مرتفعة كثيرا (ما بين ١٢٠ ـ ٣٠٠ دينارا شهريا) .

يضاف الى هذا ان غالبية هؤلاء التجار لهم خبرة طويلة في هذه التجارة فهم يحترقون بضائعهم من مراسلين مباشرة بكميات كبيرة ويبيعونها في المحلات الصغيرة أو المحلات التي هي أصغر حجما (أو رأس مال) أو الى المحلات التجارية خارج مدينة مصراته . ومن دراسة ميدانية لعدد هؤلاء التجار نلاحظ أن معظم مبيعاتهم هي للمحلات التجارية خارج البلد أو المنطقة العمرانية (وسوق البديات والصواعي) .

والنسبة للمحلات الأخرى فانها منتشرة هنا وهناك دون اتباع أي نمط خاص وأن وجودهم في المنطقة التركزية هو بسبب احتياجاتها الى اعداد كبيرة من المتسوقين (عليه اقتصادية عالية) لكي تحتفظ ببقائها وعملها . كما أن تلك الاستعمالات ـ كبيع الأقمشة والخردوات والأدوات المنزلية ـ هي قسمة للاستعمالات السابقة ويمكن معها يتمكن طبيعي ـ الا أن المحلات التي تحتاج ببيع الأثاث تحتاج الى محلات واسعة لعرض بضائعها ولذلك فهي تحاول أن تجد أماكنة لها خارج المنطقة المركزية كيلا تضطر لدفع ايجار عال بالنسبة لمساحة المحلات التي تحتاجها ، لذلك كان معظمها قليلا في هذه المنطقة التركزية ـ خاصة بان محلات المنشأ المركزية صغيرة وقديمة لا تساعد على عرض قطع الأثاث الجديدة أو الحديثة .

والشيء الذي يلفت الانتباه في هذا الجزء هو قلة وجود المركبات أو المكاتب والفنادق والمطاعم . مما يدل على أنها غير مألوفة أو غير ضرورية في هذه المنطقة إذا ما قيست بمثل هذه الانشطة في مدن أخرى بنفس الحجم . وقد يكون ذلك متعلقا بطبيعة العمل الذي يتم في هذه المنطقة : فهو من بقايا الماضي في العالم ولا يزال يتبع الطرق التقليدية القديمة في

البيع والشراء والجزء المعاملات الاقتصادية الاخرى . (وقد لوحظ ان القاهرة في الجزء الجنوبي من هذه المنطقة ايضا) ، فلم يلاحظ سوى وجود فندق واحد — الى الغرب من المركز — وبعض مكاتب الشركات في هذا الجزء ، وكذلك لوحظ وجود مسرحين الى الغرب من هذه المنطقة المركزية مما يدل على عدم امتداد الاهالي او الزبائن والتجار على التردد على هذه المنطقة بشكل مستمر — كما هو الحال في المدن الغربية مثلا .

وهكذا فان أهم انشطة هذا الجزء تتمثل ببيع الملبوسات والاحذية والذهب والمواد الغذائية ، مع وجود حركة أقل نشاطا لبيع الاثاث والادوات المنزلية والخردوات والآلات والمواد الصحية ، وان أغلب المحلات التجارية هي من النوع الصغير — متوسط الحجم بمديره شخص او اثنان على نطاق عائلي .

الجزء الجنوبي للمنطقة التجارية المركزية :

يشمل هذا الجزء القسم الجنوبي من ميدان التحرير وكامل ميدان الفرنساوي وشارع الفجالة وشارع فهمي أحمد ضمن المنطقة المدروسة .

ويحتوي هذا الجزء حوالي ١٣٩ محلا تجاريا ، حيث ان كل محلات الملابس الجاهزة والاحذية ايضا اعلى نسبة بين الاستعمالات الاخرى (جدول رقم ٥) فبلغ عددها ٤٥ محلا (أو ما يساوي ٣٢,٣٪ من مجموع المحلات التجارية) ، ويليها بمنصب في المرتبة الثانية محلات بيع المواد الغذائية — اذ بلغ عددها ١٦ محلا (أو ما يعادل ١١,٥٪) — وهذا العدد لا يشمل سوى المخابز والفواكه واللحوم ، لان كل هذه المحلات تقل عما لاحظناه في الجزء الشمالي . وكذلك الحال عند وجدنا ان محلات بيع الذهب تحتل المرتبة الثالثة بينما احتلت في هذا الجزء المرتبة الرابعة — اذ بلغ عددها ١٤ محلا (أو ما يعادل ١٠,٨٪ من مجموع

المحلات التجارية) ـ يقدر سبقها كل من محلات بيع الدخان والخردوات ومحلات بيع الادوات المنزلية ـ حيث يبلغ عدد كل منهما ١٥ محلا (أو ما يعادل ١٠٫٥ ٪ من المجموع) ـ كما هو واضح من جدول رقم ٥ .

جدول رقم ٥ : اعداد انواع المحلات التجارية ونسبتها المئوية في الجزء الجنوبي من المنطقة التجارية

انواع المحلات	العدد	نسبتها المئوية
ملابس جاهزة واحذية	٤٤	٣١٫٥ ٪
مواد غذائية	١٦	١١٫٢ ٪
سجائر وخردوات	١٥	١٠٫٥ ٪
ادوات منزلية	١٥	١٠٫٥ ٪
لعب ومجوهرات	١٤	١٠ ٪
اقمشة	٩	٦٫٣ ٪
[illegible]	٨	٥٫٦ ٪
[illegible]	٤	٢٫٨ ٪
ادوات كهربائية	٢	١٫٤ ٪
المجموع :	١٤٣	١٠٠٫٠٠ ٪

المصدر : الدراسة الميدانية للطالب ـ تنفيذ فاسون ومصطفى سعد سالم .

كما أن عدد محلات بيع الدخان والخردوات كان حوالي ثلاثة أضعاف ما وجد في الجزء الشمالي (١٥ محلا مقابل ٥ محلات في الجزء الشمالي) ، كذلك الحال في محلات بيع مواد البناء والادوات الصحية فقد بلغ عددها في الجزء الجنوبي أكثر من عددها في الجزء الشمالي (راجع جدول رقم ٤) .

وحيث أن مثل هذه الاستغلالات تحتاج عادة الى محلات كبيرة ، فقد يكون سبب اختلاف الاستغلالات عائدا الى اختلاف في ايجار المحلات نفسها أو اختلاف في نوع الزبائن الذين يترددون هذه المنطقة ـ خاصة ميدان القرعاية ، شارع العمال ، وان توزيع هذه الاستغلالات تساعدنا على ايجاد أسباب الاختلاف في توزيع أنواع المحلات التجارية بين الجزئين الشمالي والجنوبي .

محلات الملابس والاحذية :

يتركز أكبر توزيع لها في شارع العمال ـ الذي هو امتداد لميدان النصر ـ حيث وجد فيه ١٩ محلا (حوالي ٣٠٪ من مجموع محلات الملابس والاحذية) والتركز الثاني يقع في ميدان القرعاية ـ قصر احمد (حيث وجد ١١ محلا أو ما يعادل ١٧٪ من مجموع هذه المحلات) . والتركز الثالث يقع في شارع الميس ـ حيث وجد فيه ٦ محلات ـ ولكن اغلبها محصص للابس الاطفال .

ان مثل هذا التوزيع بلا شك متعلق بمركزية هذه الشوارع ، فكلما كان الشارع أو الميدان قريبا من وسط البلدة (أو المنطقة التجارية) كلما زادت أعداد محلات بيع الملابس لانها متعلقة بعدد الزبائن الذين يترددون على هذه المنطقة . فشارع العمال انشط منطقة من ميدان القرعاية أو قصر احمد إذ انه امتداد لميدان النصر الذي هو أنشط منطقة في البلدة من حيث الحركة الاجتماعية أو التجارية .

ويمكننا القول أن معظم المحلات التجارية المتخصصة ببيع الملابس في ميدان القرعاية وامتداده الى شارع قصر احمد تضمن بيع الملابس التي يمكن اعتبارها « نسبية » بمعنى طلب كبير من قبل الريفيين أو الفئة الفقيرة ـ (كالقمصان والسراويل البيضاء والمدارع السوداء والجبرة

واغطية السيدات والطواقي الرخيصة وغير ذلك) ، وقد يعود ذلك لوقوع هذا الميدان بالقرب من سوق الماشية سابقا وتردد القرويين عليه أكثر من مدان النصر ـ حيث وجدنا اغلب الملبوسات هناك من النوع الاوروبي (الافرنجي) .

كما أن معظم محلات شارع العمال تبيع السلع التخصصية كالملبوسات والاحذية التي يعالجها العمال ـ النوع الثقيل أو الخشن والذي يتحمل الصقع والاحتكاك الشديد أثناء العمل ، وان معظم هذه المحلات الصغيرة المساحة (٢٠-٣٠ م) وتستفيد من الارصفة وذلك لعرض بضائعها بدون أي تنسيق أو محاولة لاغراء الزبائن بالتوجه الى هذه المحلات وشراء مثل هذه البضائع المعروضة ـ خاصة وأن معظم البضائع داخل المحل تظهر وكأنها مكدسة فوق بعضها البعض ـ لا يتم بمحتوياتها الا صاحب المحل نفسه (يساعده احيانا أحد ابنائه) وفي حالة غياب صاحب المحل عن العمل فانه لا يستطيع أحد متابعة البيع أو معرفة مكان أنواع البضائع أو أسعارها ـ فلا تظهر على أنها مصنفة أو مبعثرة ـ اذا أن معظم هذه المحلات تدير بالسجائر وليس بالبضاعة .

محلات بيع المواد الغذائية :

بلغ عدد المحلات في الجزء الجنوبي من المنطقة المركزية ١٠٦ محلا تجاريا ـ مقابلا لـ ٣٨ محلا في المنطقة الشمالية ، ولا تظهر انها متركزة في أي موقع أو شارع معين بل تنتشر في معظم شوارع هذه المنطقة ، وإن محلات هذه المنطقة تبدو منافسة من سوق الخضار والفواكه واللحوم الذي يقع بالقرب من هذه المنطقة ، ولذلك تميل هذه المحلات التجارية الى التخصص في بيع المعلبات ومستخرجات الالبان والبقوليات وغيرها من المواد الغذائية التي لا توجد في سوق الخضار والفواكه واللحوم ، كما أن البعض من المحلات الموجودة في شارع القرية وشارع قصر السيد

تختص ببيع الجملة وهي المخازن (مستودعات) القريبة منها وتخدم بقالي المدينة والمناطق المجاورة فيما تحتاج إليه من المواد الغذائية (خاصة البقالين) . وقد ذكر بعض هؤلاء التجار أن خاوة (ضريبة) سلاحهم تبدأ من كل من دمدم (السفن وسرت وأبو لحيم — ومقدار مبيعاتهم اليومية حوالي ١٥٠ دينارا (أو ٣٥٠٠ دينار في الشهر) .

وكما ذكرنا سابقا ، فإن العمل هنا يكاد يكون عائليا أيضا — أي أننا نجد أيا من هؤلاء التجار يستخدم عملاء أو مستخدمين آخرين يساعدونهم في سير أعمالهم سوى أبنائهم (واحد أو اثنين) . وقد لوحظ أن محلات تجار الجملة تميل إلى التركز في ميداني الترخاية أو أحد الشوارع القريبة منها لأن مساحة تلك المحلات أكبر نوعا ما ، بالإضافة إلى سهولة وصول سيارات النقل الصغيرة إلى ميداني الترخاية ووجود أماكن لانتظار السيارات أكثر وأسهل من الشوارع الأخرى وميدان النصر — وهذا بالطبع يساعد على عمليات التفريغ والتحميل التي تتطلبها تجارة الجملة .

وقد لوحظ أن المحلات الموجودة في الشوارع المتفرعة من ميداني الترخاية وشارع قصر أحمد التي تختص ببيع المواد الغذائية هي مجموعة من نوع البقالات التي تخدم الأحياء المحيطة بها — وكان هذا هو السبب وجود الصغار والكبار في هذه المحلات بينما لم نجدها في محلات ميداني الترخاية — شارع قصر أحمد — باستثناء وجود محلات قليلة جدا — في الشارع المتفرع بميدان النصر . وفي الطرف الجنوبي من ميدان الترخاية — مخرج سوق الغنم — وجد بعض أولئك الذين لم يتمكن هؤلاء التجار من الحصول على محلات داخل السوق ، لسبب أو لآخر ، فاستأجروها منذ زمن طويل وتتميز إيجارات منخفضة نسبيا بالنسبة إلى بقية .

محلات الخردوات والسلعات :

لوحظ وجود عدد كبير من هذه المحلات (حوالي ١٥ محلا) بالمقارنة بالجزء الشمالي من المنطقة المركزية (التي تضم حوالي ٥ محلات) ـ وتتركز مثل هذا النشاط في شمال الجزء الجنوبي بميدان النصر ـ شارع المحال وفي ميدان الفرعانية ـ شارع قصر احمد ، ونظرا لكون هذا النوع من التجارة يحتاج الى أكبر عدد ممكن من الزبائن (ما يلبي بغية عالية من السكان لذلك فهي تتطلب الابتعاد عن مراكز مركزية أو قريبة جدا منها ، كما أن مثل هذه الاختصاصات لا تحتاج الى أماكن تجارية واسعة مما يساعدها على البقاء في أماكن مركزية تكون في الغالب مرتفعة الايجار ، وان مثل هذه المحلات تحتاج الى عناية كبيرة (او عرض جيد) لكي تستطيع مع بضائعها منهاة ، فانك تجدها تعتمد على عرض أنواع عديدة من بضائعها في واجهاتها العديدة التي يتقد أصحابها العديد من السبل ليضعوا على أحدث الموديلات من الساعات والأجهزة المصنوعة الصغيرة الحجم والآلات الحاسبة الصغيرة أيضا .

ولقلة الا ـ لا نرى مثل هذه المحلات موجودة في الشوارع المتفرعة من الميادين الرئيسية ، وتصادف هذه المحلات بعض الناقصة من الاكواخ ، المتصوبة في المحور الرئيسي ميدان النصر ـ والجزء بعض ، السطان ، التي تقلت من مراقبة العرس البلدي .

محلات الاثواب المنزلية :

بلغ عدد هذه المحلات ١٥ محلا تجاريا (أي بنسبة تمثل ٥ر٣٪ من مجموع المحلات التجارية في الجزء الجنوبي من المنطقة التجارية) ـ وتتركز مواقع هذه المحلات في الجزء الجنوبي من ميدان الفرعانية ، شارع سعدون السويسي (المفتوح جزءا من ميدان الفرعانية) ، وإن مثل هذه

المحلات تعتمد أيضا على المركزية في تركزهـا اذ أن بضائعها لا يشتريها (أو يحتاج اليها) الافراد يوميا لهي تحتاج أيضا الى « عصبة » مركزية كبيرة لكي تحتفظ برونقها المركزي هذا «

وقد لوحظ ان عددها قد يبلغ ثلاثة أضعاف عددها في الجزء الشمالي (راجع جدول رقم ٤) — وهي ظاهرة عادية تفقد الاقتراب ان يسود مثل هذا العدد الكبير من هذه المحلات حصول معظم الفرشاية لا تجد ما يملله سوى كون ايجار بعض تلك المحلات منخفضا (خاصة في شارع محمد علي السويدي) وقد ذكر أن هذا السبب هـو من أهم الاسباب أو البواعث الرئيسية التي دفعت هذه المحلات، كما أن المحلات الواقعة في شارع قصر أحمد مثلا يدفع ايجارها الشهري هـو ٣٥ دينارا — بينما متوسط الايجارات في شارع العمال اقل من ذلك (ما بين ١٥ — ٢٢ دينارا شهريا) — وأن هذه الظاهرة هـي شيء معروف في جغرافية المدن — فكلما بعد مكان المحل التجاري عن المركز كلما كان « الايجار الاقتصادي » اقل — اذا لم تتداخل عوامل مناسبة في سير الامور بمجراها الطبيعي (كقضية تحديد الايجارات من قبل الحكومة أو تحديد مناطق الاستعمالات المدنية للاراضي)[٢٩] .

محلات الذهب :

اختير هذه المحلات تركزا مهما أيضا في الجزء الجنوبي من هذه المنطقة التجارية حيث بلغ عددها ١٤ محلا — في الجزء الجنوبي من ميدان القصر — وامتداده في شارع العمال (جامع الشيخ) وكذلك حول ميدان الفرشاية — وامتداده في شارع قصر أحمد «

ويلحظ أن عدد هذه المحلات أقل مما شاهدنا في الجزء الشمالي (حيث بلغت حوالي ٢٩ محلا) « وقد يرى من الاستبيانات أن معظم أصحاب هذه

المحلات قد دخلوا في هذه المهنة حديثا لذلك لم يستطيعوا استئجار محل في سوق الذهب ـ أو أن بعضهم وجد محله أسهل في سوق الذهب صغيرا أو قديما فاستأجر محلا خارج ذلك السوق وعلقه على واجهة محله ـ فقد ظهر أن معظم هذه المحلات تتمتع بمساحة أكبر من محلات سوق الذهب كما أن لها واجهات عصرية تعرض فيها العديد من أنواع المجوهرات الشعبية الذهبية والعصرية ، وأن المنافسة بين هذه المحلات أقل مما هي موجود في سوق الذهب ، فبعض التجار يفضل مثل هذه المواقع البعيدة نوعا ما عن منافسيهم ، وإن كان ذلك يكلفهم جهودهم هذا منطقيا أيضا ، والعكس بالعكس ، إذ أنك لا تجد أي محل لبيع المجوهرات في الشوارع البعيدة عن المركز ... تقريبا (سوى محلات تبيع فيها المجوهرات أو تجري فيها تصليحات لبعض القطع) ـ كما أنك لم تجد مثل هذه المحلات في أسواق التجارة الحديثة ـ خارج المنطقة التجارية المركزية (CBD) فهو إذن نشاط مرتبط بالمركزية أكثر من أي نشاط آخر ـ خاصة في مدينة متوسطة الحجم كمدينة جدة .

محلات لوازم البناء والأدوات الصحية :

إن عدد هذه المحلات عشرة ـ وهي بذلك تحتل المرتبة السادسة من بين الاستعمالات في هذا الجزء من المنطقة التجارية ، وعلى غرار ما ذكرنا سابقا عن محلات الذهب ، فإن هذه المحلات موزعة في الشوارع الرئيسية لميداني الشبر والفرضية ، كما في الكرمة ، وشارع السروجي وشارع قصر الحمد .

إن مثل هذا الاستعمال لا يحتاج إلى مركزية كبيرة ، لأن المواطنين يحتاجون في العادة وطبيعي أن يعرفوا الأماكن التي تباع فيها مثل هذه الأدوات وأن يرتادوا لشرائها وإنجازها ـ ولكي يتعرف المشترون على هذه المحلات يحاول الباعة التمركز في شارع واحد (أو شوارع متجاورة)

ويتخصص كل منهم في بيع نوع مختلف عن زملائه (أو يتنافسون على بيع معظم الانواع الجديدة) . كما أن قيام أحد المتعهدين بالتعامل مع أحد هؤلاء الباعة يسهل لهم عملية الدعاية لأماكنهم ويشجعهم على بقية المتعهدين أو بناني البيوت ، وأحيانا يقوم أصحاب هذه المحلات بالاتصال بالمهندسين والمقاولين وعرض ما عندهم من مواد بناء وبضائع جديدة . وأحيانا أخرى تقوم الشركات الكبيرة التي تصنع هذه المواد والأدوات الصحية بالاعلان عن بضائعها وأسمائها وكلائها ومندوبيهم . وهذا بالطبع يشجع لاصحاب هذه المحلات وبائعين جديدين دون الاضطرار الى التواجد في وسط المدينة .

ان المحلات التي تبيع هذه المواد تحتاج الى ان تكون واسعة لعرض بضائعها وهذا قد لا يتوفر في محلات السوق المركزية ، واذا توفر يكون ايجارها مرتفعا بسبب زيادة في أسعار هذه الاماكن ، لذلك يضطر معظم هذه المحلات الى التواجد خارج المنطقة المركزية نوعا ما معتمدة على الدعاية لنفسها اما من قبل الشركات التي تنتج هذه المواد أو من قبل المهندسين والمقاولين أو بالسمعة (بالفم مجولين) بوصول بضائعهم على شركات البناء والمقاولين المشهورين في المنطقة .

هذه أهم الاستغلالات الموجودة في هذا الجزء من المنطقة التجارية المركزية التي يمكننا تقديم بعض الآراء عن أسباب وجودها في هذا المكان وجودها مستعينين بالمعلومات التي استقيناها من مقابلاتنا الشخصية لاصحاب هذه المحلات ، وبمعلومات أخرى متعلقة بجغرافية المكان وخصائصه العمرانية .

هذا وان هناك منطقة أخرى تجارية ثانوية حيث تقع على الشوارع الرئيسية المؤدية الى المنطقة التجارية المركزية (عند تقاطع شارع رشاد السويطي

وطرابلس) : فانواع المتاجر متنوعة ولم نجد فيها أي نمط خاص لتوزيعها وأغلب الأراضي هنا مستغلة بالدوائر الحكومية والمرافق العامة والمساكن — وسنحاول دراستها مع مناطق المرافق العامة — خاصة وان عددا كبيرا من المتاجر في هذه المنطقة سوف يهدم نتيجة لتنفيذ المخطط العام بشكل مؤقت الى أن تجد مكانا جديدا لها .

ب — مجمع الأسواق (سوق الجملة) : (راجع الشكل رقم — ٧)

يقع هذا المجمع على الجانب الجنوبي لشارع رمضان السويحلي — حوالي ٢ كيلومترا الى الغرب من المنطقة التجارية المركزية ، وهو مبنى حديث الحجم (أقيم في عام ١٩٧١) بلغت تكاليف انشائه حوالي ١٢٨ ألف دينار[٧] — ويشتمل على سوق للخضر والفواكه والتمور وسوق الحبوب والاعلاف ، وسوق الصوف الخام وسوق لحصر ومزرعة ، كما يحتوي مقرا للحرس البلدي ومخفر وأمكنة للتفريغ وتحميل الشاحنات وأماكن أخرى لاصطفاف السيارات .

إن البيع في هذا السوق تم بالجملة وتأتي الخضر والفواكه عادة من منطقتي طرابلس ومصراته — وأحيانا تصل الى السوق بعض السيارات المحملة بالبصل في فصل الشتاء من سبها عندما يتم وجود البصل الجاف في المناطق الساحلية ، وتأتي التمور كثيرا ، أما الحبوب والاعلاف فتأتي للسوق من جهات مختلفة من ليبيا ، أما الصوف الخام والحصر فتأتي في الغالب من منطقة مصراته ، وقد تبين لنا من استجواب بعض التجار في هذا السوق أنهم شيوخ ولهم اتصالات واسعة مع بقية تجار الخضار والفواكه والحبوب في مختلف أنحاء الجماهيرية فهم متفقون مع طرابلس وبنغازي ومصراته والبيضاء وسبها لشراء أو بيع سلعهم وتنقلها الى الأسواق بشاحناتهم الخاصة التي تتعهد يوميا في معظم المدن الليبية ، وقد وجدنا من الاستبيانات التي أجريناها مع هؤلاء التجار والمشترين أن بعض السلع تأتي من طرابلس :

مثل البصل الجاف (اذا وجد) الحمضيات ، البطاطا ، التفاح والموز ، أكثر توفرها في الاسواق) ، أما بالنسبة للذين يقيمون في منطقة معينة وفي رأيهم انهم يحضرون الخضروات الهامة : كالخس والمعدنوس والبقدونس الاخضر (والطماطم اذا وجد) — أو الخضر الجذرية كالجزر والفجل واللفت ، أو المنتوجات التي تحتل حيزا كبيرا وتكون أجرة نقلها عالية بالنسبة لوحدة الوزن كالقرع الاصفر ، والقرنبيط (الزهرة) والملفوف — والبطيخ والشمام ، وغالبا ما تنقل مثل هذه السلع بسيارات شحن صغيرة (بيك أب) من ..... ثم البدء الذي يأتي من خارجها أو الجذور او قسم الثمار بواسطة الشاحنات الكبيرة (لغاية كلفة النقل) .

وتعتبر هذه الاسواق ثلاثة ايام في الاسبوع : أيام الاحد والثلاثاء والخميس .. وأقوى أيام الحركة التجارية يكون عادة يوم الخميس (أما لوجود فترة طويلة نسبيا بين يومي الخميس والاحد ، أو لوجود أسواق أخرى في المنطقة في الايام الاخرى — كما ذكرنا من قبل — ، ومن تحليل الاستبيانات التي أخذت في ذلك التجمع (يوم الخميس) تبين لنا أن حوالي ثلثي عدد السيارات ترد الى السوق ثلاث مرات يوميا أو أكثر خلال الاسبوع ، وحوالي ١٣٪ من مجموع السيارات التي استجوبت تأتي الى السوق مرتين في الاسبوع ، والباقي مرة واحدة أسبوعيا . كما ان معظم السيارات (حوالي ٨٥٪) الكبيرة التي تجلب الخضر والفواكه من مزارعي تأتي لهذا السوق بين مرتين الى ثلاث مرات في الاسبوع ، والشاحنات القادمة من الجفرة وسبها ترد مرة في الاسبوع أحيانا ، وتنقل التمور أو بعض المحاصيل المبكرة (كالبصل والطماطم) .

إن موقع هذا التجمع من الناحية تركيب المدينة حسن الى حد ما ، غير أولا يبعد كثيرا عن المنطقة التجارية المركزية وبذلك تبتعد عن هذه المنطقة حركة الشاحنات الكبيرة وحشرات السيارات و البيك أب ، الصغيرة من

وسط المدينة ، كما أن وجود عدد أسواق تكمل بعضها بعضا في مكان واحد يعطف على السكان الجانبيات (أو التجار المتجار) مزية التنقل المقصي بين عدة أسواق ـ كما كان الوضع سابقا قبل بناء هذا المجمع .

ثانيا : بما أن هذا المجمع حديث البناء فقد تقلت عملية دخول وخروج الشاحنات بشكل لا يعرقل فيه الحركة العامة لسير السيارات والمشاة على أحد الشوارع الرئيسية لمدينة مصراته (شارع وعمال سوبحلي) .

ثالثا : إن وقوع هذا المجمع على هذا الشارع يسهل حركة وصول السيارات اليه من منطقة طرابلس بغربي بلدية مصراته ـ التي تولد أكثر الحركة التجارية في ذلك المجمع أيضا ـ انعقاد الأسواق ، كما أن هذه السيارات لا تجد صعوبة في الاهتداء على هذا المكان بعد أن تترك الطريق الساحلي .

رابعا : بما أن هذا المجمع حديث الانشاء فقد عمل بطريقة يمكن فيها عمل الاختصاصات من بيع وشراء (سوق الخضار والفواكه منفرد نوعا ما عن بقية الأسواق) مما يسهل عملية مراقبة الأسعار والنظافة العامة من قبل رجال العرس البلدي .

خامسا : يوجد حول هذا المجمع أرض لم تستغل بعد يمكن التوسع فيها في المستقبل لبناء أمكنة للتبريد (لحفظ الخضار والفواكه والتمور) .

سادسا : إن هذا المجمع قريب نسبيا من سوق الفطاني للخضار والفواكه في المنطقة المركزية مما يسهل عملية نقل هذه السلع بسرعة وبكلفة قليلة نسبيا ، وهو أيضا في موقع متوسط أيضا بالنسبة للتجلات الحديثة التي أخذت تظهر في الأحياء السكنية الجديدة .

سيء : إن موقع السوق حسن ، فهو بعيد عن السيارات أو الاتجاه الرئيسي ـ لا يمر مشوش كثيرا ـ وبعيد نوعا ما عن مشكلة عبور الطريق السالك (في فصل الشتاء) ومعنى أيضا من الغبار الشتوي تحمله رياح الشمال عادة لأنه معتاد بالنسبة لكل سكنة ربيعي نجيل .

ومن الانتقادات التي يمكن أن توجه لهذا الموقع أنه بالرغم من هذه الحسنات كان يفضل اختيار مكانه أن القرب قليلا من هذا المكان عند تقاطع شارع رمضان السويدي مع الطريق الساحلي ، إذ أنه مع كل هذا الانتظار في حركة المرور ما زالت قوية وخضرة جدا في شارع السويدي لكثرة تنقل المواطنين بسياراتهم الخاصة أو معتمدا على الاتجاه في هذا الشارع الرئيسي في المدينة ، فهو الشارع الرئيسي الذي يوصل الطريق الدولية قبل المدينة وكثير ما يستخدم السيارات الخارجية من أجل بالسيارات الأخرى للانتقاء على هذا الشارع ، ورغم أن البلدية قد وضعت بعض الحواجز (المطبات) لتحد هذا التوسع إلا أن السرعات ما زالت خطرة وتتكاثف . كما أن الزحف القادمين من جنوب مصر تماما (مصر والكويت وكذلك العمل الذين أصحاب البقالات في شرقي المدينة فما) لوا يعبرون من وسط المدينة تقريبا (أما عن طريق شارع بغازي أو مصر الجديد) زيادة يسبب أحيانا حركة مرور غير مرغوبة وخاصة لبعض المشاة الذين يحاولون الوصول ، فمن كان موقع السوق على الطريق الساحلي تم انفصل هؤلاء المواطنين التجار عن حركة الطريق الساحلي مباشرة ، ومن جهة أخرى فإن أولئك الذين يسكنون على الجانب الشمالي لشارع رمضان السويدي

تقع هذه المحلات الى الغرب قليلا من المنطقة المركزية وبالقرب من منطقة سكنية (مساكن شعبية) وأشبهها من نوع « السوبرماركيت » الحديث التأسيس ، فهي تخدم نوعين من الزبائن : النوع الاول هم سكان المنطقة المجاورة شمال وجنوب شارع السوبرملي والنوع الثاني هم من الزبائن الذين يمرون بهذا الشارع ، أو الاهالي القاطنين خارج البلدة ، الذين لا يريدون الدخول الى وسط البلدة لصعوبة ايجاد مكان لاصف سياراتهم وتحسبا لشدة حركة المرور في المنطقة المركزية .

وهناك مجموعة اخرى من الزبائن هم من ذوي الدخل المرتفع الذين يتطلبون بضائع من نوع جيد أو غير متوفر في المنطقة المركزية ، فهذه المحلات تعرض عادة بضائع جيدة وغالبا ما تكون أجنبية تسد حاجات بعض الموظفين وأصحاب الدخل اذ أن اسعارها مرتفعة عادة .

كما أن هذه المحلات تستفيد من موقعها القريب من مجمع الاسواق ، فتستطيع أن تعمل على أجور الخضار والفواكه وتنافس المحلات الاخرى بالنوع (والاسعار احيانا) ، وتستفيد ايضا من وجودها بالقرب من مجمع دوائر الحكومة ومؤسسة الاسكان وغيرها من المؤسسات الحكومية فعند خروج هؤلاء الموظفين من دوائرهم يمرون عادة على هذه المحلات لشراء احتياجاتهم المؤقتة (الآنية) ، خاصة وان محلات المنطقة المركزية تكون عادة مغلقة .

٢) المحلات التجارية الواقعة في شارع بغداد :

تقع هذه المحلات الى الجنوب من المنطقة التجارية المركزية ، وأعلبها من النوع الحديث (السوبر ماركت) وبعض المحلات التي تبيع الادوات المنزلية والملابس الجاهزة والاثاث وغير ذلك ، وأن معظم هذه المحلات تخدم المنطقة السكنية المحيطة بها ، كما أنها تستفيد من السابلة

الداخلة او الخارجة من المدينة عن طريق شارع سعد زغلول . وقد امتدت هذه المنطقة تسع (أكثر من تلك الواقعة على شارع السوبحلي) نظرا لحركة العمرانية الواسعة التي قامت في منطقة الموش والمنطقة الواقعة بين شارع الدرعاه وشارع بنغازي . كما انها تخدم ايضا المناطق التي تقع الى الجنوب من مصرانه (الكراريم وطبينه) وبعض سكان الزاوق من ذوي الدخل المرتفع والذين يتطلبون سلعا جيدة وأوربية الصنع ، أو يقصدون هذه المحلات لسهولة التبضع فيها وايجاد أنواع متعددة من البضائع والحرفيات التي تحتاجها ربات البيوت في تطيب وتحسين مساكنهن على الطرق الحديثة .

وقد اقتصر بعض المحلات التجارية ـ خاصة المواد الغذائية والخردوات ـ في مناطق المساكن الشعبية ـ في مناطق الموش والروسان ودائر حمار والقروبه ـ وأخذت تنافس هذه المحلات الحديثة على طول الطرق الرئيسية في المدينة ، الا ان سيطرتها (أو سيطرتها) محدد ولخدمة الاحياء السكنية المحيطة بها فقط ، وكذلك الحال في المحلات التجارية المنتشرة بين الاحياء السكنية القديمة فهي عديدة وأغلبها من نوع البقاليات الذي تحتوي المواد الغذائية وبعض المواد المرتبة ـ وهي تخدم سكان الاحياء التي تقع بها وبعض المارة خارج تلك الاحياء ، وقد استفاد بعض الذين منها من اتساع الطريق الدائري الاول والثاني فأصبح الوصول الى محلاتهم بطريقة أسرع من تلك الموجودة في وسط المدينة ، وأغلب هذه المتاجر هو من النوع الذي يملوه سكان مساكنه ، ويفتح طيلة النهار .

ثانيا : المناطق السكنية :

توجد ضمن منطقة مصراته العمرانية اربع مناطق سكنية مختلفة التركيب تلاث منها قديمة نسبيا (تعود الى ما قبل ثورة الفاتح من سبتمبر)

والرابعة حديثة البناء ، وعدد المناطق هي : (شكل رقم ـ ٨ ، شكل رقم ١٠) .



(١) المنطقة الاولى :

تمتد هذه المنطقة الى الشرق من المنطقة المركزية وقد سبق أن ذكرنا شيئا عن خصائصها وأصلها (راجع شرح تركيبها في عام ١٩٦٦) . ونظرا لتنفيذ المخطط العام لمدينة بمصراته العمرانية فقد أزيل جزء كبير من مساكن هذه المنطقة وشقت الطرقات والشوارع خلالها ـ بعضها قد أنجز ، والآخر في طريق الانجاز أو التنفيذ . وإذ أهم الحوازن في هذه المنطقة هو فتح الطريق الدائري الأول والطريق الثاني ، ثم اتمام المجاري وعمد

خطوط الانارة ضمن هذه المنطقة ، وقد بدأت تظهر في هذه المنطقة بعض المساكن الحجرية بدلا من المساكن الحربية القديمة (الاعريش) التي كانت منتشرة في معظم أنحاء المنطقة ، وتتميز هذه العمارات الحديثة بوجود المياه الجارية ، والكهرباء والمجاري وبعض الشوارع المرصوفة . ولا يسمح للمواطنين بانشاء مساكن لهم الا بعد موافقة البلدية على المخطط ليدخل المخطط العام حيز التنفيذ ، أما المواطنون الذين لا يستطيعون بناء مساكن خاصة بهم ، فانهم يتقدمون للحكومة بطلب لمنحهم المساكن الشعبية خارج هذه المنطقة .

وقد لوحظ أن معظم المساكن التي تم بناؤها في هذه المنطقة — وفقا للمخطط العام — قد صممت من طابقين ، الأرضي متجر (غالبا يسكنه صاحب هذه العمارة) والطابق الثاني مسكن ، حيث يتجمع سكان بداية حديثة تم بناء ٣٨ عمارة مكونة من طابقين : مسكن ومتجر ، كما وجد ٢٢ مسكنا حديثا من النوع المفصل (فيلا) ، و ٢٧ مسكنا قديما ، وهذا ما تم حصره من واجهات الشوارع الرئيسية فقط ، وهناك أيضا أراضي لم تستغل بعد .

تبين شارع الزرقاء — تمر الحمد جنوبا الى شارع الرياض والتقاطع مع الطريق الدائري الثاني أثناء الدراسة الحقلية وجود المحلات التجارية التالية :

٣٧ : محلا لمواد الغذائية (بقالات) .

٩ : محلات للملابس والأثاث .

٢١ : محلا لمختلف الاستعمالات (من محطة لسيارات ومواد البناء والزيوت ومحلات تأجير السيارات وغير ذلك) .

١٦ : محلا لم تستغل بعد .

ونظرا لوجود بعض المساكن القديمة في هذه المنطقة وانشاء المناطق السكنية الجديدة فان الكثافة السكنية هي بين المتوسطة الى الكثيفة (العالية) ولكن عندما يتم بناء معظم أراضي هذه المنطقة فانه يتوقع أن تصبح الكثافة مرتفعة .

(٢) المنطقة الثانية (منطقة (ب)) :

تقع هذه المنطقة الى الجنوب الغربي من المنطقة التجارية المركزية — وهي — كما ذكرنا سابقا — اقل جاذبية سكنية من المنطقة السابقة - وهي ما تزال على وضعها السابق تقريبا اذ ان معظم مبانيها ما زالت حسنة اذ أن معظمها قد أقيم في العهد الايطالي . وقد انشئت بعض العمارات الصغيرة على شارع بنغازي وعلى طريق طرابلس وأخذت تستغل كمحلات للاتجار أو مكاتب للشركات ومحلات تجارية كما انشيء فيها منزه حديث يضم مطعما / مقهى حديثا — ويقوم في هذه المنطقة مسارح وأماكن أخرى للتسلية (كالنوادي والمكتبة العامة ودور للشباب) ، بالاضافة الى الفنادق والمطاعم والمصارف لتم المنطقة التجارية المركزية .

(٣) المنطقة السكنية الثالثة (منطقة (جـ)) :

تقع هذه المنطقة السكنية في القطاع الشمالي الغربي من المنطقة السابقة . وقد أنشيء معظم هذه المنطقة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . كما أنها قد شاهدت تطورا كبيرا في السنوات على أثر انشاء العديد من المساكن الشعبية في محلة رأس عمار . وهي على نوعين : نوع مؤلف من طابق واحد ولكنها متصلة بجانب بعضها البعض (كمحلات متصلة بواسطة الاسوار التي تحولها) وأغلبها تقع على شارع الاربعين في الجانب الشمالي — ما بين موقع المستشفى المركزي ومجمع الاسواق .

والنوع الثاني : تتعدد الطوابق ، قسم مستغل من قبل بعض

الدوائر الحكومية والمؤسسات العمومية ـ وتقع هذه العمارات أيضا بالقرب من شارع رمسيس السويحلي والعاشر بالطريق الدائري الأول ـ من الجهة الشمالية ـ ويقدر أن هذا الاستعمال مؤقت الى أن تجد هذه الدوائر والمؤسسات مواقع أخرى جديدة . والقسم الثاني يقع خلف هذه العمارات (من الجهة الشمالية) ـ في منطقة الغربية ـ وهي مؤلفة من دورين وكل بناية مؤلفة من ٤ شقق ـ ويقيم في معظم هذه الوحدات أفراد الشرطة العاملة والمتقاعدة ـ خاصة الذين هم من خارج محافظة بورسعيد .

وقد اشتكى عدد كبير من هؤلاء السكان من ضيق هذه الشقق اذ أنها مؤلفة من ثلاث غرف ومناسبة لشقة الواحدة وهي غير كافية لعائلاتهم الكبيرة . الا ان الشقة مزودة بجميع المرافق الضرورية وكذلك فانها قريبة نسبيا من المنطقة التجارية المركزية ومن مجمع الأسواق ـ كما توجد بعض المحلات ضمن هذه المساكن الشعبية تخدم احتياجات الأهالي السكان المحليين .

هذا ويوجد بالاضافة الى المساكن الشعبية القديمة ، مساكن أخرى جديدة ، تم بناؤها ما بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ ، وهي مؤلفة من أربعة طوابق ـ لاتزال منها تحت عمليات التطوير الارضي متأخرة ـ وتقع هذه الوحدات السكنية في وأس شارع ـ عند التقاء طريق بلعاوي مع شارع رمسيس السويحلي ـ من الجهة الشمالية ـ وهناك مجموعة أخرى تقع أيضا على شارع رمسيس السويحلي ، عند التقائه بالطريق الدائري الثاني ـ كما يوجد ضمن هذه المنطقة أيضا أبنية أخرى مؤلفة من عدد من المحلات والمساكن القديمة (طراز عربي ـ أحواش) ـ وقد تأثرت هذه المنطقة أثناء شق الطريقين الدائريين الأول والثاني وازيل بعض هذه الأحواش ، التي اخترقت شق طريق الطريقين ، وما زالت بعض الأراضي غير مستغلة

كمساكن وهي في انتظار شق ورصف الشوارع الفرعية ومد الجداري والمرافق الاخرى .

(أ) المنطقة السكنية الرابعة (منطقة الكوثر) :

تقع هذه المنطقة في الجزء الجنوبي الغربي من المنطقة العمرانية — ما بين طريق بنغازي والطريق الدائري الثالث . وتمتد شمالا الى شارع رمضان السويحلي وإن معظم الوحدات السكنية في هذه المنطقة حديثة الانشاء — كمساكن شعبية أقيمت في عهد ثورة الفاتح من سبتمبر المباركة ويمكننا أن نقسم المساكن الشعبية الجديدة الى ثلاث مجموعات :

أ — مشروع الدفعة الاولى : انشئت في عامي ١٩٧١ — ١٩٧٢ :

وتقع هذه المجموعة في الجزء الجنوبي من منطقة الكوثر — ما بين طريق بنغازي والطريق الدائري الثالث . وتشمل هذه الدفعة ٢٠٠ وحدة سكنية مشكلة من دور واحد — على هيئة فيلات بجانب بعضها بعض . ولذلك فهي تحتل أكبر مساحة سكنية في هذه المنطقة — وتتكون هذه الفيلات من « غرفة ، ومطبخ ، ومنافع وحديقة » و« فراج » خاص . وإن هذا النوع من المساكن مرغوب كثيرا . وجميع الاهالي القاطنين في هذه المنطقة مسرورون من السكن في هذه المنطقة لانها تحوي فيلات جميلة وجميع المرافق العامة . بما في ذلك المدارس الابتدائية والاعدادية — ورياض الاطفال . كما أنها قريبة من الشاطئ البحرية الواقعة على شارع بنغازي . وبعض المحلات التجارية الموجودة ضمن هذه المساكن .

هذا ولقد لاحظ مؤسسة الاسكان أن مثل هذه الوحدات السكنية باهظة التكاليف وتحتل مساحة واسعة وعلى قلة عدد الوحدات . ولذلك فانها عدلت عن انشاء وحدات سكنية منفصلة وتبنت فكرة انشاء عمارات مؤلفة من عدة شوابق .

ب ـ المجموعة الثانية : انشئت في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ :

وتضم هذه الدفعة في موقعين : الأول على الجزء الشمالي من شارع السوهلي ـ في محطتي رأس سدر والجزيرة وهي تألف من مجموعتين : الأولى عند تقاطع طريق بنغازي مع رمضان السويحلي ، والثانية عند تقاطع الطريق الدائري الثاني مع طريق رمضان السويحلي ، المجموعة الأولى من ٤ عمارات ـ الأرضي منها متجر ـ والمجموعة الثانية من أربع عمارات .

أما الموقع الآخر فهو على شارع بنغازي عند تقاطعه مع الطريق الدائري الثاني ـ في منطقة الزهيتينة ، وتضم هاتان المجموعتان ٢٧٠ وحدة سكنية والعمارات مؤلفة من ٤ طوابق ـ كل طابق مؤلف من شقتين وتتألف من هذه العمارات مؤلف من طابقين ـ خاصة على طول شارع بنغازي وجانبي الطريق الدائري الثاني ، كما نشاهد أنه توجد عمارات من ٤ عمارات من ٤ أدوار وتحتها محلات تجارية أو أماكن للخدمات العامة .

وإن كان هذا المشروع من أكثر المشاريع توفيقاً من ناحية سكان المساكن الشعبية كما أنها تقع على أرض ممتازة ، قريبة في المدينة وكما أنها قريبة من المحلات التجارية الحديثة على طريق بنغازي وشارع رمضان السويحلي ، كما أنها قريبة من المرافق العامة الأخرى كالمدارس والمستوصفات ـ كما سنرى فيما بعد .

جـ ـ المجموعة الثالثة : أنشئت في ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ :

وتضم هذه الدفعة في وسط منطقة الكوشي ـ بالقرب من الطريق الدائري الثاني وهي مؤلفة من هذه وحدة سكنية ، موزعة على عمارات من ٤ طوابق ـ كل طابق به شقتان ، وكل شقة تشتمل على

عرف ، وصالونا ومقاهيها ، وقد تبين لنا أن معظم سكان هذه الدفعة هم من خارج منطقة مصراته الحرارية — ومع أن المنطقة جميلة جدا ونظيفة وتحتوي معظم المرافق الضرورية الا أن الاهالي يرغبون في الحصول على مساكن منفصلة ، ويشكون من صغر حجم غرف هذه الشقق ، وبعضها قريبا من بعض المناطق التجارية — رغم أنه توجد بعض المحلات التجارية في هذه العمارات تخدم الاهالي احتياجاتهم الآنية ، كما أن الاهالي يشكون من عدم وجود محلات القصابين قريبة منهم ومن عدم وجود مساجد ووسائل ترفيه ومتنزهات ، كما أن عددا كبيرا من سكان هذا الحي ذكروا أنهم يشترون معظم حاجاتهم من متاجر المحلات المجاورة لهم ، وهم بحاجة الى مستوصف ، والى انتظام وسائل المواصلات العامة .

وقد ظهر من الاستبيانات أن عددا كبيرا قد استلم مساكنهم منذ مدة قريبة (حوالي عام أو أقل) ولذلك فانهم لم يتكيفوا بعد مع مشاكل هذه المنطقة ، أو أنهم كانوا يتوقعون خدمات عامة أفضل في هذه المنطقة مما كان في احيائهم السابقة — ومع أنها بالحقيقة أفضل على وجه العموم — كما ذكروا في الاستبيانات — إلا أنهم يريدون خدمات أخرى .

ثالثا : المرافق العامة : (شكل رقم — ٩) .

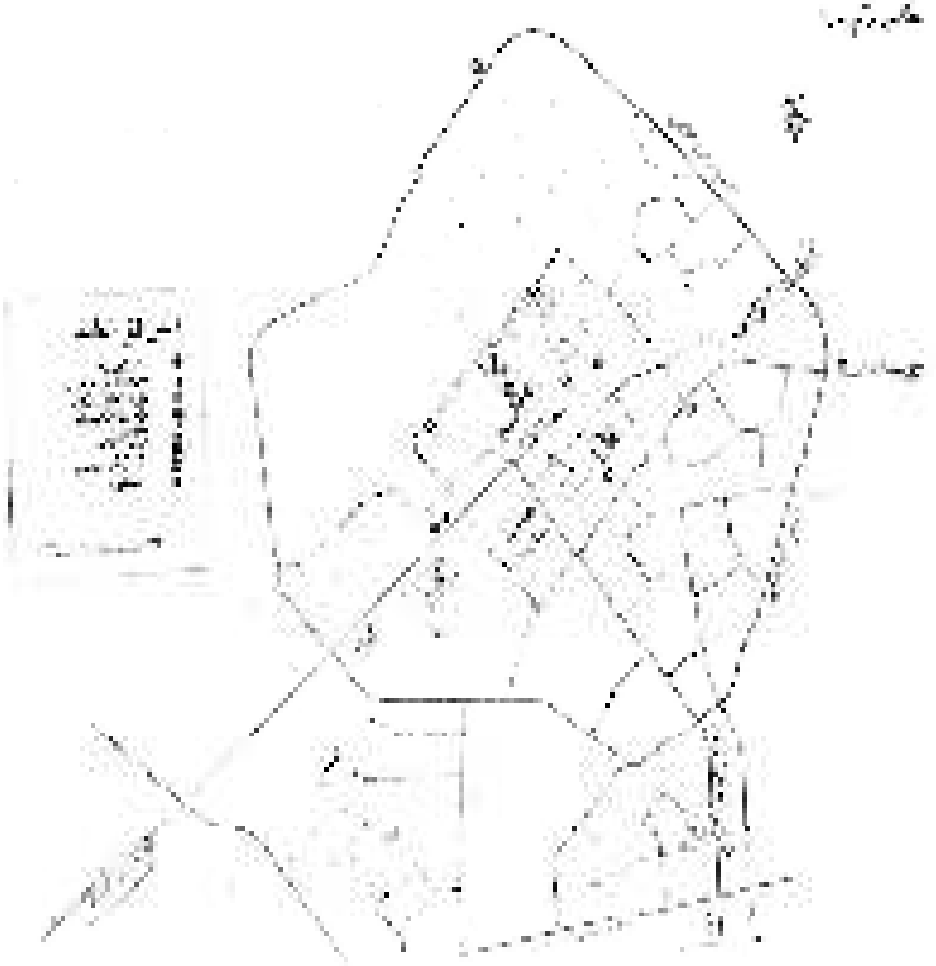
تشمل المؤسسات المختصة بشكل رئيسي : التعليم والثقافة والصحة والترفيه والحكومة ، وبما أن مدينة مصراته هي مقر لبلدية مصراته ، فان عليها أن توفر الخدمات اللازمة للفروع والمحلات التابعة لها .

أ) المباني الحكومية :

وتشمل مباني الادارة المحلية (البلدية) ومباني الادارة الاقليمية ، وتقع هذه الدوائر بالقرب من المنطقة التجارية المركزية — خاصة بناية البلدية [١٢] والحرس البلدي ودائرة الامن العام ، وإن هذا الموقع حسن

لانه مركز في وسط البلدة وقريب من المنطقة التجارية التي يؤمها الناس في اثناء ايام الاسبوع ليقضوا ما يحتاجون ، وبعض هذه المباني قد يتغير موقعه اثر تنفيذ المخطط العام ، لكن يتوقع أن يبقى قريبا من المنطقة التجارية المركزية (C.B.D) كي يسهل على الوافدين الوصول اليها .

وهناك مجموعة اخرى من المرافق العامة الحكومية في شارع وعمان السريعي ـ الى الغرب من تقاطعه مع طريق بغازي كمرافقة للمواصلات ومؤسسة الاسكان وغيرها ، وقد اعتلت هذه المرافق مبانيا كانت معدة لتكون مساكن سكنية ولكن نتيجة لعدم وجود اماكن مناسبة لهذه المؤسسات فقد احتلت تلك العمارات بشكل مؤقت .



وعلى مقربة من هذه المجموعة ـ وعلى الجانب الآخر من شارع ... الميدان السويحلي ـ يقع المجمع الإداري لكتب دوائر الحكومة الأخرى ، وهو بناء حديث ـ مثل بناء البلدية ـ وموقعه قريب من الطريق المؤدي الى البلدة ، فيستطيع الاهالي الوصول الى هذا المجمع بسهولة وسرعة ـ كما توجد أمامه ساحة واسعة تسهل الاستعلام ـ للزائرين أو المترددين على هذا المجمع ، وهو قريب أيضا من مجمع الأسواق فيمكن للاهالي قضاء حاجاتهم في دوائر الحكومة أو زيارة السوق اذا كان هناك داع لذلك ـ فقد يتجمع المزارع أو التاجر بمواجهة دوائر الحكومة بعد انتهاء الأسواق أو قضاء حاجته في يوم واحد دون الانتظار لاكثر من مدة قريبة .

أما بالنسبة لابناء البادية فان موقع مجمع الدوائر الحكومية ليس بعيدا فهو يقع قريبا من الاحياء السكنية ، حيث يرتاده الاهلي الذكر ومع تشعب الطرق الداخلي الذي ان الحدائق تحيط به ، يستطيعون الوصول اليه بسرعة ايضا ، فالموقع اذن مناسب لمعظم أحياء المدينة ، وكذلك الحال بالنسبة لفروع البلديات ، اذ أن موقعه قريبا من الطريق الساحلي يسهل عملية الوصول اليه إذ باقي طرق المدينة ، وإما باقي فروع وشعب السويحلي .

هذا ومعظم بقية أخرى ـ مدينة البادية ـ تجمع المحاكم تقع قريبا نسبيا من المنطقة التجارية المركزية ـ عند تقاطع شارع فرانسس بشارع الغرب ، فهي منطقة في موقعها عن مركز المدينة ، ولكن بما ان غالبية القوافل لا ترتد على هذا المجمع يوميا ، فان الوصول اليه ـ اذا اختصر الامر ان ذلك ـ ليس ببعيد عن المنطقة المركزية أو الاماكن السكنية .

ب) المدارس والمعاهد العلمية : (راجع شكل رقم ـ ٨) .

لقد شاهدت مدينة معسراته وفروع البلدية نهضة كبيرة في ميدان

... والتربية والاعراب الاخيرة ، فقد أنشأت العديد من المدارس التعليمية في معظم انحاء البلاد (العراقية) ، ففي العام الدراسي ١٩٧٣/١٩٧٤ كان عدد المدارس النهارية في بلدية مصراته بأسرها ما يقارب من ١٠٣ مدرسة (منها ٨٦ مدرسة للبنين و ١٧ مدرسة للبنات) ، وكان عدد التلاميذ يقارب ٢٣٫٨٩٣ تلميذا و ٧٧٠ فصلا ، اما في العام الدراسي ١٩٧٥/١٩٧٦ فقد ارتفع عدد المدارس الى ١٣٤ مدرسة (اي بزيادة تعادل ٣٠٪) ، وبلغ عدد التلاميذ ٣٢٫٨٨٣ تلميذا (اي بزيادة تصاعدية ٣٧٪) خلال فترة اعوام .

هذا وان اكبر عدد من المدارس موجود بالطبع في مدينة مصراته فهي تحوي حوالي نصف مجموع مدارس البلدية واكثر من نصف عدد فصولها ، كما هو واضح من الجدول التالي :

توزيع عدد المدارس والفصول والتلاميذ في بلدية مصراته / للعام الدراسي ١٩٧٥/١٩٧٦ (١٩)

قرى البلدية	عدد المدارس: بنين	بنات	المجموع	عدد الفصول	عدد التلاميذ: بنين	بنات	المجموع
القرى الاخرى	٦٢	٦	٦٨	٤٨	٦٫٥٥٩	٧٫٦٩٩	١٤٫٢٥٨
				٥٦١	٨٫٩٩٤	٩٫٦١٥	١٨٫٦٠٩
الجموع العام لمدارس البلدية	١٠٥	١٦	١٢١	١٠١٩	١٥٫٥٥٣	١٧٫٣١٤	٣٢٫٨٨٣

المصدر : وزارة التعليم والتربية — مراقبة التعليم الابتدائي والتربية بمصراته — قسم الاحصاء التربوي — العام الدراسي ١٩٧٥/٧٦ ، ص ١ .

هذا وان اكبر تركيز يتجه نحو مدارس الابتدائي — بنين ، اذ بلغ عددها في عام ١٩٧٥/١٩٧٦ حوالي ٧٧ مدرسة ، ومدارس البنات الابتدائية بلغت ١٦ مدرسة فقط ، ويعود الى ان اهالي هذه البلدية — رغبة في الفروع — لا يزالون متحفظين — كما يظهر — في ارسال بناتهم الى المدارس — وعند ارسالهن الى مدارس قرآنية — ثم عدا ان ... في المصادر المتوفرة لهذا البحث ، فقد توسط ان عدد طلاب الابتدائي يقترب من ١٥٫٥٥٣ طالب ، بينما مع عدد طالبات الابتدائي

طالبة ، وكذلك فان أعداد مدارس الاعدادي ـ ذكور قد بلغت ٩ مدارس بينما مدارس الاعدادي ـ إناث والمختلطة بمدارس الثانوي ـ ذكور الى الاناث هي نسبة ١ : ٢ ، كما هو واضح من الجدول التالي :

توزيع المدارس والفصول والتلاميذ حسب الجنس
في بلدية حمص عام ١٩٧٦ / ١٩٧٧ (*)

الرحلة	عدد المدارس		الفصول		عدد التلاميذ		المعلمون
	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	
١ ـ رياض الاطفال	٢١	٢٣	٣٠	٣٠	٥٧٠	٥٧٠	٣٠
٢ ـ ابتدائي عام	٩٧	٩٥	٤٣٦	٤٣٢	١٣٤٠٠	١٣٢٩٠	٤٣٨
٣ ـ ابتدائي خاص	٢	٢	٩	٩	٢٧٠	٢٧٠	١٠
٤ ـ اعدادي عام	٩	٥	٦٣	٥٣	١٩٥٥	١٦٥٣	٦٣
٥ ـ اعدادي مهني	١	١	٦	٦	١٨٠	١٨٠	٦
٦ ـ ثانوي عام	٤	٢	٣٢	١٦	٩٦٠	٤٨٠	٣٢
٧ ـ ثانوي مهني	٢	١	١٢	٦	٣٦٠	١٨٠	١٢
٨ ـ معلمات ـ معلمين	١	١	٦	٦	١٨٠	١٨٠	٦
المجموع	١١٧	١٣٦	٥٩٤	٦٤٢	١٧٨٥٥	١٩٢٦٠	٥٩٤
	٢٥٣		١٢٣٦		٣٧٨١٥		١٢٣٦

(*) المصدر : المديرية العامة للتربية ـ دائرة التخطيط والدراسات ـ مراقبة التخطيط ـ قسم الاحصاء التربوي ، ص ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠

أما من جهة التوزيع الجغرافي ، فيظهر أنه غير متوازن توزيعا سليما ، إذ نجد العديد من المدارس الابتدائية ـ وأحيانا الاعدادية ـ هنا وهناك في جميع أحياء المدينة ـ إلا أن حجم المدارس وحداثة البناء أو قدمه قد لا تكون متعادلة في توزيع المدارس الموجودة في مركز المدينة (كالمدرسة المركزية للبنين ، مثلا) أكبر المدارس الابتدائية في المدينة ولكن بناءها قديم وبحاجة الى الاصلاح ، أما في الاحياء السكنية الجديدة ـ وبعض مرور البلدة ـ فان الابنية حديثة وعدد الطلبة أقل مما هو عليه الحال في وسط المدينة .

وبالطبع فان المدارس الثانوية (ذكور واناثا) تميل الى التمركز في وسط المدينة التي يأتيها الطلاب بسهولة من جميع أنحاء المدينة ، أما معاهد المعلمين والمعلمات فانها غير متمركزة في وسط المدينة ، بل موجودة في أطرافها لأنها عادة ما تكون داخلية ويأتيها الطلاب من المدينة وقروحها ـ أو من بلديات أخرى ـ كما هو الحال في معهد ابن غليون ، ومعهد القوزي للمعلمين .

هذا وهناك عدد كبير (حوالي ٢٨ مدرسة) تحت التنفيذ في نواحي عديدة من البلدية ، كما أن مراقبة التعليم والتربية أحدثت ثلاثة مدارس قرآنية مختلطة على مستوى المرحلة الابتدائية (واحدة في محلة النوفلي وأخرى في النعيان)[١٩] ، وهناك شعور بجعل الكثير من المدارس الابتدائية مختلطة توفيرا للأبنية والمدرسين في المناطق التي يوجد فيها العدد كبير من الذكور والاناث تستلزم اقامة مدرسة خاصة لكل جنس .

جـ) الخدمات الصحية :

لقد نهجت بلدية مصراته نهجا حسنا أيضا في ميدان الخدمات الصحية ، ومحاولة تأمين أحسن الخدمات للمواطنين داخل البلدة ، فقد كانت البلدية

مؤخرا بانشاء عديد من المراكز الصحية لتجريب الامراض والعمل على تحسين المستوى الصحي لجميع السكان في البلدية .

ولا شك أن القائمين على بلدية مصراته يبذلون مجهودا كبيرا لتحقيق هذه الاهداف في أقصر وقت ممكن ـ على جميع المستويات ولعظم الاستدعاءات الطبية ـ حتى أن بعض الاختصاصات فيها قد نالت شهرة اقليمية وأصبح يقصدها الناس للعلاج من انحاء عديدة في الجماهيرية (كمركز البلهارسيا والامراض الصدرية) .

وأهم مراكز الخدمات الصحية المتوفرة حاليا في بلدية مصراته ما يلي :[٢٠]

(أ) المستشفى المركزي :

لقد تم انشاء هذا المستشفى الكبير في عام ١٩٧٤م ، حيث انتقلت اليه مهام المستشفى القديم واضيفت اليه خدمات أخرى لم تكن متوفرة في المستشفى السابق .

ويقع هذا المستشفى في شارع رمضان السويحلي ـ خارج المنطقة العمرانية وقريب من الشاطئ عند الشارع مع الطريق الساحلي الواصل بين بنغازي وطرابلس . كما أنه مزود بفناء واسع لاستيعاب سيارات الزوار والعاملين به .

ويتسع هذا المستشفى لـ ٢٢١ سرير (منها ٣٤ سريرا للاطفال) . وقد زود بطاقم من الاطباء الأجانب الذين يتخصصون اختصاصات مختلفة : فجوني ٢٠ طبيبا للباطنية ، و ١٨ طبيبا عاما ، وواحدا للجلدية ، واثنين للاطفال ، وثلاثة للجراحة ، واثنين للنسائية ، واثنين للانف والاذن والحنجرة ،

بالاضافة الى ١٠ قابلات ، ٤٢ ممرضة ، ١٨ ممرضا ، ٧٧ مساعد ممرض و ٢٥ فنيا .

(٣) المستشفى القديم :

أصبح هذا المستشفى مختصا بالأعمال الصحية العسكرية بعد أن تم افتتاح المستشفى المركزي الجديد . ويقع هذا المستشفى في بناء قديم غربي من المنطقة المركزية . ويحتوي هذا المستشفى ١٠٩ سريرا ، ٩ أطباء عسكريين و ١٩ اختصاصي صيدلة و ٩ أخصائي أشعة ، ٢٠ ممرضة ، ٨ ممرضين ، و ٢١ مساعد ممرض .

ورغم أن المبنى محاط بغابة جميلة ، الا أن الموقع العام لا يظهر حال على الاطلاق صحي لمثل هذا التخصص ـ فالجو حوله مقفر وأحيانا يمتلئ بالغبار والأتربة التي تحملها الرياح شمالا من صحراء الخضراء (كعنوان المدينة الواقعة شمالها) وبعيدا قليلا عن البحر لا يصل الهواء الطلق من الشمال ـ خاصة في فصل الشتاء ـ من رطوبة عالية ، اذ تفضل في معالجة الأمراض الصدرية توفر الهواء النقي والجاف للنزلاء . أما اذا أريد الاستفادة من البناء القديم فيمكن استغلاله كمستوصف أو مجمع للعيادات الخارجية .

(٤) مجمع العيادات الخارجية :

يحتوي ٥ أطباء عسكريين ، ١٠ مختصين ، ٢١ ممرضة وقابلة واحدة .

(٤) مراكز صحية بدون اقامة : (علاج خارجي) :

يوجد مركز في محلة المحجوب وآخر في محلة الزوق .

(٥) مستوصف مصرانه المركزي :

أسس في عام ١٩٧١ ، وكان يعمل به طبيبان ، ثم ارتفع العدد الى ثلاثة ، وأصبح يعمل فيه ممرضة مساعدة بالاضافة الى القابلة الشابة ، وقد

أصبح بعده خدمات للأمراض الباطنة إذ ألحق به أخصائي هذه الأمراض وطبيبة ، وثلاثة أطباء عموميين في عام ١٩٧٥ م :

(أ) مستوصف أبو سلطان والجزيرة .

(ب) مراكز متخصصة لكل من :

(١) الأمراض الصدرية .

(ب) البلهارسيا : افتتح سنة ١٩٧١ في مدينة منصورة — ويقدم خدمات لأي مواطن من المصابين بحاجة الى المعالجة من هذا المرض — وقد أتم في هذه المنطقة نظرا لوجود العديد من المصابات (خدمة حصول تطوعي) والتقصي عن المرض بين مواطني هذه المنطقة — مما ساعد على الحد من انتشار هذا المرض ومحاربته بين المواطنين .

(ج) مركز مكافحة التراخوما .

(د) مركز مكافحة الجذام : أنشأ عام ١٩٧٦ م ويزوده بعدد من الأخصائيين والمشرفات الخدمات ، وكذلك بسيارات الفحص المتجولين — مزودة بآلات لاسلكية .

(هـ) الخبر الحي الجاد : تم تطوير هذا المركز ليزود الأطباء بالتحاليل الطبية الضرورية لتشخيص الأمراض . وقد أضيف الى موظفيه اخصائي التحليل وعدد من الفنيين .

(و) مركز الصحة المدرسية : يقدم خدمات للطلاب أو الأطفال عند دخولهم أو التحاقهم بالمدارس .

الحرف المهنية والصناعة : (شكل رقم ـ ١٠) :

ان الحرف المهنية منتشرة في أماكن عديدة داخل مخطط مدينة مصراته وهي على ثلاثة أنواع ـ النوع الأول هو الحرف الصغيرة التقليدية كالحدادين والحلاقين ومصلحي الدراجات ومحلات طلاء الأوعية النحاسية والفصدير ومحلات النسيج اليدوي (الأنوال) وموقع معظم هذه المحلات حول شارع العمال وميدان القرضابية .

شكل رقم ـ ١٠

التركيب الداخلي لمدينة

مصراته ١٩٧٧



وهناك بعض المحلات التي تقدم خدمات أحدث نسبيا كما في الأجهزة المرئية والمسموعة وبعض الأدوات الكهربائية الأخرى ـ وهذه منتشرة في أماكن مختلفة (بأعداد قليلة) وتكون في الغالب في الشوارع

الجانبية المتفرعة من الشوارع الرئيسية .

كما توجد بعض الورش لتصليح السيارات وهي منتشرة بشكل كبير على شارعي بنغازي عند حدود البلدة ، وعلى شارع رمضان السويطي — خارج المخطط كما توجد في هذه الاماكن بعض الورش لتصليح الاخشاب والابواب والنوافذ والاثاث البسيط .

وهناك أيضا أماكن لبيع « البلوك » الاسمنتي على طول شارع قصر احمد مباشرة خارج المخطط — مستفيدة من وجود أراضي غير صالحة للزراعة وغير مستغلة بعد من الناحية العمرانية — حيث تستطيع التوسع بدون الاضطرار الى شراء أراضي جديدة — ووجود سوق لبيع البلوك بشاحنات خاصة على جانبي الشارع أيضا .

وبالاضافة الى هذه الورش فانه يوجد مستودع مهم في منطقة اخشاب مصنع « وزة للاعلاف » وهو يقع على الطريق الساحلي — خارج المخطط — ومعمل — أو معهد — صناعة السجاد ويقع في المنطقة الشرقية — خلف مقر البلدية — وقد سبق أن ذكرنا سبب موقعه هنا هو تشريب الطابات الزيتية على صناعة السجاد حسب الطرق الحديثة مع العمل على احياء والاحتفاظ بهذه المهنة في هذه البلدة .

الحواشي والمراجع المستعملة للبحث

١ ــ منجزات بلدية مصراتة في ظل ثورة الفاتح من سبتمبر العظمى : ٦٩ ــ ٧٥ م ، ص ١٦ .

٢ ــ محمد بن عثمان الحشائشي التونسي : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ــ رحلة الحشائشي الى ليبيا ، (تقديم وتعليق علي المصراتي) . دار البناء ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٦٥ م .

٣ ــ G. Blake: "Form and Commercial Function of the Center Of Misurata."

مجلة كلية الآداب ــ جامعة بنغازي ، العدد الثاني (١٩٦٨) ، ص ص ٣٠ ــ ٣٩ .

٤ ــ منجزات بلدية مصراته ــ المرجع السابق ، ص ١٩ .

٥ ــ نفس المرجع .

٦ ــ النتائج الأولية للتعداد العام للسكان ــ سنة ١٩٧٣ : ص ٢٥ .

٧ ــ الجمهورية الاشتراكية : ١٩٧٤ ، ص ١٠ .

٨ ــ تقرير شركة هالد جي ، ماوشال ، ماكدونالد : وليامس ــ هيئة استشارية ، طرابلس ، ١٩٦٦ م ، ص ١١٢ ــ ١٢٤ .

٩ ــ حسن الحداد : ، التركيب الوظيفي لمدينة طرابلس الكبرى ــ الجمهورية العربية الليبية ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، المجلد السادس (حزيران / يونيه) ، ١٩٧٠ م ، ص ٧٤ : ص ٩٧ .

١٠ ــ الدائرة الهندسية لبلدية بنغازي : فبراير ١٩٧٦ م (مقابلة شخصية مع المسؤول) .

١١ ـ الإسكان في ليبيا ـ وضع شركة دوكسيادس وشركاه ، سنة ١٩٦٨ م ، ١ .

١٢ ـ المرجع نفسه .

13 — E. W. Burgess, "Urban Areas" in T. V. Smith, and L.D. White (editis) Chicago : An Experiment in Social Science Research. The University of Chicago Press, Chicago, 1929, pp. 133 — 168.

١٥ ـ لاستعمال طريقة علمية من أجل تحديد المنطقة التجارية المركزية يمكن للباحث الرجوع إلى الأسلوب الذي ابتدعه العالمان : مرفي ، و . ا . فلسن ، في المرجع .

R. E. Murphy and J. E. Vance, "Delimiting the C. B. D." Economic Geography , Vol. 30 (1954) pp. 189 — 222.

١٦ ـ راجع نظرية « فون ثونن » (Von Thunen) في :

محمد علي الفرا : مناهج البحث في الجغرافيا ، (ط ١) : الإسكندرية : وكالة المطبوعات ١٩٧٣ ، ص ٢٠٦ ـ ٢١٢ .

١٧ ـ مدينة البلدة جميل وحدثت المدة ـ وقد تم إنشاؤه مع قاعدة الخدمات في عام ١٩٧٩ م ، بلغ عدد السكان حوالي ٢٧٧٦٧ نسمة حاليا .

١ ـ راجع احتياجات بلدية مدينة البلدة : ص ٧١ : .

١٨ ـ الجمهورية العربية الليبية : محافظة مصراتة ـ مديرية التعليم والتربية : النشرة الإحصائية لعام الدراسي ١٩٧٣/٧٢ م ص ٣ .

١٩ ـ مراقبة الخدمات والتعليم بمصراتة ـ التشريعات المدرسية التي تحدد المسافة في جميع الخطط ـ نموذج رقم ٣ .

٢٠ ـ مقابلة مع مراقب الخدمات الصحية بمدينة مصراتة ، بتاريخ ١٩٧٩ م ، بالإضافة إلى النشرة الخاصة عن نشاط المراكز الصحية في مصراتة عام ١٩٧٦ م ـ ١٩٧٦ م .

(دعوة للمشاركة)

الاخوة الاعضاء هيئة التدريس

بعد التحية

يسرة دعوتكم للمشاركة باعمالكم في مجال تخصصكم لينشر بمجلة الكلية آملين ما يلي :

١) ان تراعى في البحث القواعد العلمية المعروفة في كتابة البحوث اذا كان الانتاج المساهم به بحثا ، وان يكون في مجال تخصص الكاتب ، ويفضل أن يكون ذا علاقة بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية .

٢) يجب أن يكون الانتاج المساهم به بطول مناسب مع نوعيته ومع حجم مجلة الكلية ، على أن يتميز بالابتكار سواء كان مقالة أو بحثا أو قصة أو قصة أو مسرحية ، وان يراعى في كل منها القواعد المتعارف عليها .

٣) لقد رفضت الوصاية في مجال السياسة والاقتصاد في مجتمع شرع في ممارسة سلطة الشعب في ظل نظام جماهيري ، وبالتالي لا معنى لأن تظل الوصاية الفكرية قائمة ، والتي تعني اخضاع البحث أو الكاتب لتقييم صادر من غيره كمحرر الناشر ، مما يعيق البحث والخلق الفكري ، لانه يشترط في كل بحث أو مقال ... الخ شيئا جديدا يخالف ما تعارف عليه الآخرون ، وهذا يجعل التقييم صعبا ان لم يكن مستحيلا خاصة في العلوم الانسانية والادبية كما أن هذا التقييم ، الذي لا يعلمه الا الكاتب ، يقيم بواسطة لجنة ، يحرم القارىء من حضور هذا التقييم والالمام بجوانبه ، المقيم والتقييم والتقييم ، ما يخرجه من أهم دائرة في العمل الثقافي والفكري ، ويجعل الامور للقارىء وكأنها مسلمات لا تقبل جدلا ، أو

جثث بلون روج ـ وهذا ما يعني ديكتاتورية فكرية وإرهاب ثقافي .

إلا أن إلغاء التقييم كشرط للنشر لا يعني إلغاء تقييم بالعكس فان الطريقة التي ستأخذ بها المجلة من الآن فصاعدا والمتناسبة مع سلطة الشعب والديمقراطية المباشرة : تجعل من التقييم أهم وأخطر من الطريقة السابقة ان التقييم يجب ان يتم علانية وبحضور القارىء أي نشر الموضوع وإتاحة الفرصة دون تحديد لكل من يريد نقده ، وعلى القارىء في هذه الحالة ان يحسم الأمر بان يرجح أحد الرأيين .

الى جانب التقييم الذي الغيناه الذي لا علاقة له بالمحتوى أي التقييم الذي يتعلق بالشكل فقط .

د) ان المجلة مجلة كلية الآداب والتربية وبالتالي لا معنى لحصرها في موضوعات معينة وفي طريقة انتاج فكري معينة ، بل يجب أن تكون مجلة كلية الآداب والتربية مشتملة على الأدب و القصة والقصيدة والمسرحية والمقالة ، الى جانب اشتمالها على بحوث علمية ، أقصد ان الآداب لا يختص المتخصصون في الآداب والعلوم الانسانية من هذه القسم أقسام العلوم الطبيعية والتي تجعلهم يفرضون على موضوعاتهم الانسانية مناهج لا تناسب معها فتشوهها ، وينتج عنها أن العلوم الانسانية تفقد شخصيتها ولا تستطيع التحول الى علوم طبيعية ، ان كليتنا كلية آداب وعلوما انسانية ولذلك يجب ان تكون لدينا طرقنا الخاصة الدائمة دون ان نخجل من اننا لسنا علوما طبيعية .

هـ) ان المجلة تصدر عن كلية الآداب والتربية بجامعة قاريونس « العربية » وموجهة للمشاركة في الحياة الثقافية للشعب العربي الليبي وللقطر عربية بصفة عامة والجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، هذه الحياة الثقافية التي نعتقد انها تنبض بنبض الطموحات

لنظرية العلمية الكاملة وبالتالي فإن صدور المجلة ونصفها مكتوب باللغة
أجنبية مع معرفتنا انها لن تقرأ الا من قلة قليلة جدا لا تبرر مصاريف طبعها
وبالتالي أم تدارك المجلة الى الآن مشاركة فعلية في النشاط الثقافي سن
واعتبارها مرجعا للطلاب ـ صحيح هناك اسباب اخرى ايضا ـ ولهذا تقرر
ان تطبع المجلة باللغة العربية فقط ولن تقبل غير هذه اللغة الا في حالة ن
الكاتب غير ناطق بالعربية وان موضوع بحثه يستحق التوثيق .

٦) يعتبر الكاتب مسؤولا عن بحثه ولا يعبر عن الكلية ولا المجلة
وعلى هذا الأساس فان هيئة التحرير المجلة تعلك ، ان للمجلة
تخصص مكافأة مالية متناسبة مع نوع المساهمة ونرجو أن يصلنا
انتاجكم في متسع من الوقت .

(د . وجيه بوبيوس)

امين لجنة مجلة كلية الآداب والتربية

UNIVERSITY OF GARYOUNIS

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS AND EDUCATION

VOL 9

1980